سلسلة الدراسات التثقيفية

٥

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات في الاشتراكية العلمية

سلسلة الدراسات التثقيفية

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

موضوعات

في الفلسفة

الكتاب الثاني

دائرة الاعلام المركزي ـ طبعة اولى ١٩٨٥

الفصل الأول

القوانين العامة للتطور الدياليكتيكي واهميتها بالنسبة للمارسة العملية

ان دراسة كل من قوانين الدياليكتيك* المادي، ودراسة مضمونه واهميته بالنسبة للنشاط العرفاني (المعرفي) والعملي الثوري لا يمكن ان تكون نافعة الا اذا اخذنا بعين الاعتبار على الدوام تابعيتها المنطقية ونظامها. وفي هذا الصدد نعيد الى الاذهان ان قوانين الدياليكتيك العامة لا تقوم ولا تفعل فعلها الا من خلال القوانين الخاصة الملازمة لمختلف الاشكال الحركة ومختلف العمليات والمواضيع. ومن هنا ينبع استنتاجان هامان. اولا. ان هذه او تلك من موضوعات كل قانون عام من قوانين الدياليكتيك انما يجب املاؤها بمضمون ملموس، يتناسب مع طبيعة الظاهرة المدروسة او الفعل المدروس. ثانيا، ان السبيل الوحيد للمعرفة ولتوجيه العمل توجيها علميا يرتكز على معرفة القوانين الخاصة في ميادين النشاط الملموسة. وبتعبير آخر، لا يقوم استعمال قوانين الديالكيكتيك في حشر مواضيع وظاهرات الواقع في مخططات منطقية

---

* الدياليكتيك. هذه الكلمة يترجمها بعضهم بكلمة « الجدلية » ولكننا نرى ان نحتفظ بلفظها الاصلي لكثرة تداولها في جميع لغات العالم، ولان كلمة « جدلية » لا تؤدي المعنى المقصود اداء تاما، كما سيتبين من البحث. المترجم.

فارغة لا مضمون لها، بل يقوم في تعميم نتائج بحوث العلوم الملموسة والتجربة الثورية تعميما منطقيا.

وفضلا عن ذلك، يجب ان يؤخذ بالحسبان عامل هام آخر. فان قوانين الدياليكتيك المادي مترابطة فيما بينها وتشكل نظاما علميا معينا. ولكل مقولة في هذا النظام مضمونها واهميتها المنهاجية والعملية، ولكن مكان الصدارة يعود الى قوانين الدياليكتيك المادي الاساسية: قانون الوحدة والصراع بين الاضداد، وقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية، وقانون نفي النفي. ان المغزى من الاشارة الى اهمية قوانين الدياليكتيك هذه يتلخص في انها هي التي تكشف المضمون الاساسي لكل تطور: مصدره، اشكاله، طابعه واتجاهه.

ان قانون الوحدة والصراع بين الاضداد يشكل كنه ونواة الدياليكتيك لانه يبين المصدر الداخلي للحركة التلقائية ولتطور الاشياء والظاهرات، والقوة المحركة لتحولاتها الكمية والكيفية، ويحتم الميل من القديم الى الجديد. ومن الممكن اعتبار جميع العلاقات الجوهرية العميقة ضربا من وحدة بين اضداد.

وبهذا المعنى، يشمل قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية الصلة الداخلية المتبادلة بين الكم والكيف ويفصح عن سبل واشكال الانتقال من الحالة القديمة الى الحالة الجديدة. وقانون نفي النفي تلازمه هو ايضا خاصة مماثلة. ومن الممكن ان يتخذ الصراع بين الاضداد باوسع المعاني شكل صراع بين القديم والجديد. ان المضمون الخاص لهذا القانون يتلخص في ان التفاعل، الصراع بين القديم والجديد يتيح كشف طابع واتجاه التطور التقدمي.

ان عمليات التطور الموضوعية تتضمن دائما، علاوة على مضمونها الاساسي، كثرة من العلاقات الجوهرية الاخرى. وهذا التعقد والغنى في العلاقات القانونية العامة بين عمليات التطور ينعكسان في الدياليكتيك

الماركسي في المقولات القطبية (الزوجية). ومن هذه المقولات، السبب والنتيجة (العلة والمعلول)، الضرورة والصدفة، الامكانية والواقع، المضمون والشكل. وبما ان صيغة قوانين العلم، كما سبق وقلنا، تفصح دائما عن العلاقة الجوهرية لمقولات معينة، فان العلاقة بين مقولات الديالكتيك الزوجية تبرز كقانون. وبوسعنا ان نتحدث بكامل الحق والصواب عن قانون السببية، وقانون التناسب بين المضمون والشكل، بين الجوهر والظاهرة، وما الى ذلك. وبالتالي تفصح المقولات الزوجية كذلك عن نواة الديالكتيك، وتكمل وتوضح بصورة جوهرية قوانين الديالكتيك الاساسية، ولهذا تبرز بوصفها قوانين غير اساسية من قوانين الديالكتيك.

وبديهي ان ما يرتبط بنواة الديالكتيك، ليس قوانينه الاساسية وغير الاساسية وحسب، بل ايضا سائر المقولات الفلسفية التي تبرز بوصفها تعريفات لهذه او تلك من جوانب العالم الموضوعي العامة وصفاته وخواصه. ولهذا لا تناقض قوانين الديالكتيك المقولات. فهي ذاتها مقولات فلسفية وتبرز من خلال مقولات كالوحدة، والتضاد، والصراع، والكم، والكيف، والقفزة، والنفي، وما الى ذلك. وتجدر الاشارة الى ان استعمال نظام قوانين ومقولات الديالكتيك المادي بوصفها سلاحا نظريا للمعرفة العلمية والممارسة الثورية يتطلب دراستها بانتباه، واستيضاح مغزى ومضمون كل مقولة وكل قانون.

قانون وحدة صراع الاضداد

في نظام قوانين الديالكتيك المادي العامة يشغل قانون وحدة وصراع الاضداد أهم مكان ومكانا خاصا. وكان لينين يعتبر هذا القانون كنه، نواة الديالكتيك ويقول انه يمكن بهذا المعنى تعريف الديالكتيك بايجاز على انه مذهب وحدة الاضداد.

جوهر قانون وحده وصراع الاضداد. ان كل تشكيل مادي او شيء، او ظاهرة او نظام يتألف من اقسام وعناصر أبسط مترابطة فيما بينها بطريقة معينة. وخصائص مختلف العناصر وطبعها وتفاعلها تشكل داخل النظام المادي جوانب او ظاهرات معينة. وهذه الجوانب والميول الجوهرية الموجودة داخل الشيء او الظاهرة، والتي تفترض وتناقض بعضها بعضا في آن واحد تسمى **الاضداد**. والاضداد تعرب كذلك عن اعلى درجات الفرق بين الجوانب والميول المعينة في حركة المواضيع، وتعمم التعدد اللامتناهي لشتى انواع الخواص والجوانب والميول المتضادة.

ومن الامثلة على الاضداد في الطبيعة غير العضوية، الخواص الجسيمية والموجية للمواضيع الصغيرة المادية، الدقائق ومضادات الدقائق، الجاذبية والدفع، ومن الامثلة على الاضداد في الطبيعة الحية، التمثل والفرز، الوراثة والتغير، عمليات التهييج وعمليات الكبح في قشرة نصفي الدماغ الكبيرين. وفي تطور التشكيلات الاجتماعية الاستثمارية تعرب الاضداد عن الاوضاع وعن المصالح الطبقية للعبيد ومالكي العبيد، للفلاحين الاقنان والاقطاعيين، للبروليتاريا والبرجوازية. ان هذه الطبقات الاجتماعية تنشأ عن اساليب انتاج معينة، وهي مترابطة فيما بينها بوثوق، وهي تفترض وتنفي بعضها بعضا من حيث طبيعتها، من حيث وضعها ومكانها في المجتمع.

وأهم عامل في فهم طابع الاضداد، هو الصلة فيما بينها وتفاعل معين داخل الشيء نفسه او العملية نفسها. مثلا. البروليتاريا والثروة - انها هما ضدان. وهما، بهذه الصفة، يشكلان كلا واحدا نوعا. وهما كلاهما ينجمان عن عالم الملكية الخاصة. ان المسألة كلها تقوم فيما يلي: اي وضع معين يشغل كل من هذين العنصرين داخل التضاد.

ان الديالكتيك المادي لا يقرر مجرد واقع الاضداد وحسب، بل يكشف كذلك وحدتها وتفاعلها. ومن الممكن اعتبار الوحدة كصلة متبادلة موضوعية

وضرورية بين الجوانب في قوام كل ملموس ما. واي كل هو دائما وحدة معينة، ملموسة، بين الاضداد، وتشارط متبادل بينها. ان التشارط المتبادل بين الاضداد في اطار كل معين يبين ان للاضداد شيئا ما مشتركا. ان القطب الشمالي والقطب الجنوبي هما قطبان بالقدر نفسه، وجوهرهما واحد، كذلك جنس الذكور وجنس النساء يشكل النوع الواحد نفسه، الجوهر الواحد نفسه، هو الجوهر البشري.

والمقصود هنا ان الاضداد هي مختلف جوانب الجوهر الواحد نفسه، ولهذا لا تنفي بعضها بعضا وحسب، بل تتطابق كذلك فيما بينها، وتعبر عن الفرق وعن تماثل معين. ان الفرق والتماثل بين الاضداد هما شكلان خاصان للاعراب عن وحدة الاضداد، هما تغير التناسب بينها. ان تغير التناسب بين الاضداد في ظروف معينة يؤدي الى نشوء لحظة فعلها المتساوى، وذلك حين يبدو كأن التناسب بين القوى المتضادة داخل الكل يتساوى.

ومن هنا ينجم ان الفرق بين الاضداد، وتماثلها، وتطابقها، وفعلها المتساوى، ليست غير عناصر وحدة الاضداد، هذه الوحدة التي هي دائما نسبية، مؤقتة، اصطلاحية في العملية الدائمة للتفاعل بين الاضداد.

ان التفاعل الدائم، تغير التناسب الداخلي، يسمى في الدياليكتيك المادي **بالصراع بين الاضداد**. ان الصراع بين الاضداد مطلق، وهو لا يتوقف ابدا، وهو ينتهك دائما « تساويها »، « توازنها » المؤقت، ثباتها، وحدتها. وهذا الصراع يحدد التغيرات الكيفية في الاشياء والظاهرات، ويؤدي الى حلول وحدة جديدة من اضداد جديدة محل الوحدة المعنية. والصراع بين الاضداد هو مصدر صيرورة وتطور جميع العمليات والاشياء في العالم المحيط، هو قوتها المحركة. وبالتالي يتلخص جوهر واهمية قانون وحدة وصراع الأضداد في انه يكشف المصدر الموضوعي الداخلي لحركة وتطور جميع الاشياء والعمليات. ان الطابع العام والمطلق للصراع بين الاضداد يتجلى في جميع درجات نشوء

وصيرورة ووجود الاشياء او الظاهرات المعنية، وكذلك لدى الانتقال الى وضع جديد او الى شيء جديد.

وبهذا المعنى كان الصراع بين الاضداد عاملا دائم الفعل، شرطا الزاميا لكل تغير وتطور. وهو يعرب عن الواقع التالي، وهو ان الحركة هي الحركة التلقائية للمادة، وان مصدر الحركة يقوم في اشياء وعمليات العالم الفعلي ذاتها.

خلافا لهذا الفهم الدياليكتيكي، ترتكز مختلف تشويهات الدياليكتيك على اضفاء صفة الاطلاق على مختلف عناصر الحركة القانونية والتطور القانوني، بما فيها عناصر الوحدة والتفاعل بين الاضداد. مثلا. ان ما يسمى « بنظرية التوازن » يضفي صفة الاطلاق على الوحدة في الظاهرات، ويعتبر حالة التوازن والهدوء وقوة الاستمرار الحالة الرئيسية في العالم. وتقول « نظرية التوازن »، ان ليس مواضيع الطبيعة وحدها، بل ايضا العمليات الاجتماعية، لا تغير حالتها الا تحت التأثير الخارجي حسب الصيغة القائلة: حالة التوازن ـ بعث التوازن على اساس جديد. وواضح ان هذه النظرية تقيم مقام دياليكتيك التطور الحقيقي الحالة الميتافيزيائية للهدوء وانعدام الحركة في الطبيعة والمجتمع. ومن السهل ان نلاحظ انه في حال اعتبار وحدة الاضداد مماثلة للجمود، للتوازن المحافظ في الممارسة الاجتماعية، تؤدي هذه النظرية الى تبرير النظم الاجتماعية القائمة. فان المفاهيم الاشتراكية ـ الديمقراطية والتحريفية المعاصرة بشأن التناسق الطبقي والمساواة الاجتماعية بين البرجوازية والبروليتاريا، وبشأن الوحدة الاجتماعية والوطنية والقومية تبتغي الحفاظ على « توازن » النظام الاجتماعي الرأسمالي. والى هذا يؤول في آخر المطاف المعنى الحقيقي لجميع بيانات الاممية الاشتراكية الاصلاحية.

ان الدياليكتيك المادي لا ينكر البتة عناصر الاستقرار، الثبات النسبي للتوازن، للهدوء. ولكن هذه العناصر ليست غير عناصر الحركة العامة والتطور العام، اذ ان توازن القوى لا ينفي البتة الصراع، بل، على العكس،

يجعله حادا بخاصة.

ان الاضفاء الميتافيزيائي لصفة الاطلاق على وحدة الاضداد الاجتماعية هو الاساس المنهاجي للنظريات البرجوازية والاصلاحية لنظريتي « التناسق الاجتماعي » و « التوازن » اللتين تبرران « خلود » الرأسمالية وتدافعان عنه، وتجردان الطبقة العاملة من سلاحها الفكري. ولكن التطرف الآخر - اي الاضفاء الميتافيزيائي لصفة الاطلاق على الصراع بين الاضداد الاجتماعية - يؤدي الى تشويه فهم العملية التاريخية والآفاق الثورية. وليس من العسير استشفاف هذه المواقف، مثلا، في مفاهيم الثوريين والفوضويين البرجوازيين الصغار المعاصرين عن « الحرب الثورية العامة » و « الثورة الدائمة » التي ينادي بها التروتسكيون والعقائديون الجامدون المعاصرون. وهم يتقاربون على الصعيد المنهاجي بكونهم ينكرون اشكال وحدة البشر الاجتماعية، هذه الاشكال العابرة تاريخيا ولكن الضرورية في المرحلة المعنية، ولا يلاحظون، مثلا، الفرق المبدئي بين الوحدة الاجتماعية في ظل الرأسمالية والوحدة الاجتماعية في ظل الاشتراكية.

ان فضح البطلان النظري للفكرة البرجوازية القائلة بالمصالحة الطبقية العامة وفضح التفسيرات العقائدية الجامدة للوحدة الاجتماعية لا يمكن بدون الفهم الماركسي لتحول الاضداد. وفي غمرة الصراع، تتسرب الاضداد بعضها الى بعض، ويتحول بعضها الى بعض: الايجابي الى سلبي، الجديد الى قديم، التقدمي الى محافظ، رجعي. وأهم مقدمة لهذا التحويل، هي ظروف معينة لاجل الاضداد المتقابلة، بما فيها الطبيعة، والمكان التاريخي ودرجة التطور لهذا الموضوع الاجتماعي او ذاك. يجب اعتبار الاضداد، لا كاضداد ميتة، جامدة، بل كاضداد حية، متحركة، متحول بعضها الى بعض.

وفي الحياة الاجتماعية، يمكن ان تجري تحولات الاضداد في اتجاهات مختلفة، تبعا للظروف والمكان والزمان. فتلك هي مثلا في ظل الرأسمالية تحول

المزاحمة الحرة الى احتكار، وتحول الحروب العادلة الى حروب غير عادلة، والعكس بالعكس، وتحول البرجوازية ذاتها من قوة تقديمية في التاريخ الى كابح له، الى قوة رجعية، وما الى ذلك.

ان عملية تحول الاضداد الاجتماعية، ان هذه العملية الفعلية لا تمت بأي صلة الى الصيغة العقائدية الجامدة القائلة ان الاضداد **تتبادل اماكنها**. ومن الشائع بين العقائديين الجامدين المعاصرين الزعم، مثلا، « ان طبقة الملاكين العقاريين التي تملك الارض تتحول الى طبقة محرومة من الارض. . . »، او « ان البرجوازية تتحول الى طبقة خاضعة، وتنتقل الى الوضع الذي كانت تشغله نقيضتها »، او، اخيرا، « ان الحرب يحل محلها السلام . . . والسلام تحل محله الحرب ».

ان النظرة الميتافيزيائية القائلة ان الاضداد تتبادل اماكنها فقط وانها تبرز كظاهرات متضادة خارجيا، لا تكشف بل تطمس عملية التطور واتجاهاتها الناجمة داخل الموضوع الاجتماعي المعني. وتجدر الاشارة الى ان حصر الصراع بين الاضداد في تغير اماكنها هو عند العقائديين الجامدين المعاصرين اساس نظريتهم، « نظرية عدم التوازن ». وهذه النظرية تبرز من حيث جوهر الامر كشكل مقلوب « لنظرية التوازن » المذكورة سابقا، وتجد تعبيرا بليغا عنها في المخطط العقائدي الجامد المعروف: التلاحم - الانشقاق - التلاحم الجديد على اساس جديد. وهذا المخطط العقائدي الجامد لا يزوّر في الظروف الراهنة قوى التطور الاجتماعي المحركة وحسب، بل يشكل كذلك محاولة لتبرير النشاط الانشقاقي الذي يقوم به العقائديون الجامدون والقوميون المتعصبون في داخل الحركة الشيوعية والعمالية.

ان التفسير العقائدي الجامد والمبتذل والذاتي لديالكتيك تحول الاضداد الاجتماعية تدحضه التجربة التاريخية للبلدان الاشتراكية. فان التحويلات الاشتراكية المحققة حتى نهايتها المنطقية هي وحدها التي تتم بصورة جذرية

شكل الوحدة الاجتماعية، وتقضي على الاضداد الاجمالية الملازمة للرأسمالية، وتؤدي الى بناء المجتمع الاشتراكي، مجتمع الكادحين الاحرار والمتساوين في الحقوق. فلا يحدث اي « تحول » للبرجوازية الى « طبقة خاضعة »، بل يقضي عموما على البرجوازية بوصفها طبقة.

ان صراع الاضداد في عملية تطور الظاهرات يكتسب اشكالا مختلفة الامر الذي يحتم شتى تناقضات الواقع نفسه.

التناقضات الدياليكتيكية وتطورها واشكال تجليها. لا يندر استعمال مفهوم التضاد ومفهوم التناقض بالمعنى نفسه. فبما ان جميع العمليات والظاهرات تتألف من جوانب او اتجاهات تطور متضادة، فانها تبرز كتناقضات. وفي الوقت نفسه ينطوي مفهوم التناقض على مضمون خاص فان التناقض يشمل عملية حركة الاضداد ويعبر عن تغير التناسب بينها.

وفي مختلف العمليات، قد تتواجد التناقضات في مختلف مراحل التناقض وتختلف من حيث الطابع والاتجاه والشدة. فان نشوء وصيرورة اي شيء عملية يجريان بقدر ما يتزايد التمايز الداخلي بين جوانبه واتجاهاته المتضادة. وهذه العلاقة، علاقة الاختلاف البسيط بين الاضداد هي الدرجة الاولى للتناقض.

ان انشطار الكل الواحد لاحقا، وانعزال جانبيه المتضادين يقويان الاختلاف البسيط حتى الاختلاف الجوهري. والاختلاف الجوهري المتطور يكتسب شكل التضاد. والتضاد بدوره، بوصفه شكل التناقض المتنامي، يمكنه ان يتعاظم، ويتطور، ويكتسب طابعا أحدّ فأحدّ. وقد وصف ماركس تعاظم التناقض هذا عند تحليله فعالية البضاعة، واشار الى ان وجودها « يجب ان يتطور الى اختلاف، والاختلاف الى تضاد والى تناقض »*. ان الاختلاف

* راجعوا: المخطوطات الاقتصادية ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨. ارشيف ماركس وانجلس. المجلد ٤. عام ١٩٣٥، ص ٦٧. وكذلك: ماركس وانجلس. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ٤٦، القسم الاول، ص ٨٩.

البسيط والاختلاف الجوهري، والتضاد بوصفه شكل التناقض المتطور، والنزاع بوصفه الدرجة العليا لتطوره، تبين درجة نضج وشدة التناقضات ذاتها. وتجدر الاشارة الى ان حركة التناقضات يمكن ان تجري، تبعا لطبيعة وظروف وجود المواضيع، في اتجاهات مختلفة ـ سواء من الاختلاف البسيط الى النزاع، ام من النزاع الى الاختلاف. وعلى سبيل المثالي التاريخي، ندرس العلاقة المتبادلة الدياليكتيكية بين المدينة والريف. فبقدر ما كان يتطور الانتاج والعلاقات الطبقية، بقدر ما كان يتطور الاختلاف البسيط بين المدينة والريف الى الاختلاف الجوهري، ثم الى التضاد وحتى الى النزاع. وفي ظروف النظام الاقطاعي التاريخية الملموسة تجلى ذلك في استثمار المدن من قبل الاقطاعيين، اما في ظل النظام الرأسمالي، فالامر على العكس، فان الريف تستثمره المدينة بوصفها مركز الانتاج الصناعي. ان صفة هذا التناقض النزاعية هي استمرار مباشر للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية في ظل الاقطاعية وفي ظل الرأسمالية.

ان تغير جوهر النظام الاجتماعي تغيرا جذريا بنتيجة الثورة الاشتراكية يؤثر في طابع واتجاه العلاقة المتبادلة بين الجانب الصناعي والجانب الزراعي من الانتاج الاجتماعي الواحد. ففي البلدان الاشتراكية، تتسم العلاقة المتبادلة الدياليكتيكية بين المدينة والريف باتجاه آخر: من القضاء على حالة النزاع للمتضادات بين المدينة والريف الى الاختلاف الجوهري، وفي مستقبل البناء الشيوعي، الى الاختلاف البسيط، الى تحول العمل الزراعي الى نوع من العمل الصناعية.

وعليه يجري كل تناقض عبر مراحل الصيرورة والتطور والحل الداخلية. وفي هذه المراحل، يختلف دور كل تضاد. فان تضادا قد يبرز بوصفه **الجانب الرئيسي من التناقض**، الجانب الذي يحدد في المرحلة المعنية اتجاه التطور. ويمارس تضاد آخر تأثيرا اكبر او اصغر في طابع واتجاه التطور، ويصبح كذلك في ظروف معينة المحرك الرئيسي للتطور الدياليكتيكي. وفيما يتعلق بالعملية

التاريخية، تبرز الطبقة الصاعدة، اي القوى الاجتماعية التي تعبّر عن تطور المجتمع التقدمي، بوصفها الجانب الرئيسي من التناقض. ولدى انتقال المجتمع من الاقطاعية الى الرأسمالية، كانت البرجوازية الجانب الرئيسي من التناقضات الطبقية. وفي العهد المعاصر، تحولت البرجوازية الى الكابح الرئيسي للتقدم التاريخي، في حين ان الجانب الرئيسي من التناقض الاجتماعي في هذا العهد، تجسده الطبقة العاملة العالمية المعاصرة. ومن هنا تنبع الموضوعة الماركسية المعترف بها عموما والقائلة ان المضمون الرئيسي والاتجاه الرئيسي لتطور البشرية التاريخي في زمننا انما يحددهما النظام الاشتراكي العالمي والقوى المناضلة ضد الامبريالية ومن اجل تحويل المجتمع على اسس الاشتراكية.

تعدد اشكال التناقضات. ان تعدد اشكال حركة المادة، والعلاقات والصلات الموضوعية في الطبيعة والمجتمع يؤدي الى نشوء تعدد التناقضات الديالكتيكية. وضمن هذا التعدد تشكل التناقضات التناحرية وغير التناحرية، الداخلية والخارجية، الاساسية وغير الاساسية، أهم التناقضات من اجل الممارسة الثورية.

ان الخاصة التي تميز التناقضات الاجتماعية تقوم قبل كل شيء في ان هذه التناقضات تكون تناحرية وغير تناحرية. فان تناقضات التطور الاجتماعي، التي تتكون بصورة موضوعية، على اساس اقتصادي معين، تنعكس بصورة واعية او غير واعية في رؤوس الناس وتتطلب منهم اعمالا معينة. ولهذا من المهم ان تعرف اساس وطابع التناقضات الاجتماعية.

ان التناقضات التناحرية تلازم التشكيلات الاستثمارية مع علاقات الانتاج القائمة فيها على السيادة والخضوع. ففي هذه التشكيلات توجد اضداد اجتماعية متعادية عداء مستعصيا. والعلاقات المتبادلة بينها تتجلى بتناقضات حادة في منتهى الحدة. وهذه التناقضات تحل عن طريق النزاعات الاجتماعية، على العموم، عن طريق القضاء على الاساس الاقتصادي للمجتمع القديم،

الامر الذي يؤدي كذلك الى القضاء على القوى الاجتماعية الاقتصادية القديمة، الى القضاء على الطبقات الرجعية التي ولى عهدها. ان اسلوب الانتاج الذي تسود فيه الملكية الخاصة والاستثمار هو الاساس الموضوعي للتناقضات التناحرية. وفي هذا الصدد، كتب ماركس يقول: « منذ بدء الحضارة بالذات، بدأ الانتاج يرتكز على تناحر المراتب والفئات والطبقات واخيرا على التناحر بين العمل المكدس والعمل المباشر. فلا تقدم بدون تناحر. . . وحتى الوقت الحاضر، تطورت القوى المنتجة بفضل هذا النظام لتناحر الطبقات »*.

ان التناحر بين البروليتاريا والبرجوازية سيبقى، على حد قول ماركس، نضال طبقة ضد طبقة، نضالا يشكل ثورة كاملة اذا بلغ الدرجة العليا من توتره. ان الثورة الكاملة، الاشتراكية، التي تقضي على الملكية الرأسمالية، هي وحدها التي تحل، في آخر المطاف، جميع التناقضات التناحرية في الرأسمالية.

وفي تقييم التناقضات التناحرية في المجتمع الرأسمالي المعاصر، تتجلى المصالح الطبقية بسطوع. فعند ايديولوجيي البرجوازية، تسود وجهتا نظر متضادتان شكلا ولكنهما تؤكدان دائما رسوخ الرأسمالية. فلاجل الجماهير الشعبية الغفيرة، يروجون نظرية التوفيق بين التناقضات، نظرية التخفيف من التناقضات، نظرية انكار تناحرات المجتمع الطبقي. ان ترويج التوفيق بين التناقضات لا يقوم في اساس نظريات « التوازن » البرجوازية المذكورة اعلاه وحسب، بل يقوم كذلك في اساس نظرية « المجتمع الصناعي الواحد »، ونظرية « المجتمع المتكون »، والخ. .

ومن الطبيعي ان يكون كثيرون من الفلاسفة البرجوازيين يتبنون موقف التخفيف من التناقضات الفعلية، اي الموقف المناسب والملائم للطبقات

* ماركس. بؤس الفلسفة. ماركس وانجلس. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ٤، ص ٩٦.

السائدة. فان التوميين، (نسبة الى القديس توما) الجدد المعاصرين يحاولون ان يجدوا حججا في صالح موضوعة مؤسس مذهبهم توما الاكويني، القائلة « ان الطبيعة لا تجيز التناقضات ». فان التومي الجديد الفرنسي انذره مارك، مثلا، في كتابه « طرائق الدياليكتيك »، يستنجد بالرب لاجل « جعل مملكة الحب في وسط الخلود ممكنة وسهلة، لاجل وضع حد للصراع بين السيد والعبد ».

ويحاول فلاسفة برجوازيون آخرون ان يخفوا او ان يخففوا التناحرات الاجتماعية عن طريق انكار موضوعية التناقضات. مثلا. يقول الفيلسوف الاميركي سيدني هوك في كتابه « المادية الدياليكتيكية والطريقة العلمية»:

« المقترحات او المحاكمات او التأكيدات قد تكون متناقضة، ولكن لا الاشياء او الاحداث ». ان التفسير الذاتي او انكار التناقضات الموضوعية يعربان بالفعل عن خوف الايديولوجيين البرجوازيين المعاصرين من دياليكتيك الحياة الفعلي.

والى استنتاجات ليست اقل رجعية يخلص كذلك الفلاسفة البرجوازيون الذين يعترفون بالنزاعات الاجتماعية التناحرية، ولكنهم يفسرونها تفسيرا مشوها. فان الوجودي الالماني هايديغر وممثلي ما يسمى « بالدياليكتيك المأساوي »، مثلا، يقولون بوجود تناحر ابدي بين الفرد والمجتمع، ويصرون على استحالة حل التناحرات استحالة مطلقة. وبما ان التناحرات، كما يزعم انصار هذه النظريات، خالدة ومستعصية، فلا يمكن اعتبارها القوة المحركة للتقدم الاجتماعي، ولذا كانت الحرب العامة بين الناس حالة المجتمع « الطبيعية ». وعن هذا الطريق، يجري بالفعل تبرير وتخليد سياسة القوة الامبريالية، سياسة اضطهاد البلدان الضعيفة التطور في المضمار الاقتصادي، والتمييز العرقي، وما الى ذلك.

ان اضفاء صفة الاطلاق على التناحرات الاجتماعية باطل، لا من الناحية السياسية وحسب، بل ايضا من الناحية العلمية. ففي الحياة الاجتماعية لا

توجد تناقضات تناحرية وحسب، بل توجد كذلك **تناقضات غير تناحرية** تختلف كيفيا عن التناقضات الاولى. ان التناقضات غير التناحرية هي تناقضات تعرب عن تفاعل جوانب وميول مختلفة في الحياة الاجتماعية لا تتسم من حيث طبيعتها بطابع نزاعي ولا تؤدي بالتالي الى نضال لا هوادة فيه.

والتناقضات غير التناحرية تفصح عن علاقات ومصالح للفئات الاجتماعية موضوعية مختلفة، ولكنها غير نزاعية الزاما. ولهذا لا تؤدي طرائق حلها الى القضاء على هذه الطبقات او تلك.

والتناقضات غير التناحرية تتواجد كذلك في التشكيلات الطبقية التناحرية. ومن الامثلة عليها، التناقضات بين مختلف فصائل الجماهير الكادحة، والفوارق بين الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين والتناقضات الموقتة بينهما في بعض مراحل التطور التاريخي. ولكن التناقضات غير التناحرية تلازم على العموم، وفي المقام الاول، **المجتمع الاشتراكي** الذي تختلف بنيته الاجتماعية الاقتصادية اختلافا جذريا عن بنية المجتمع الرأسمالي.

وفي معرض تحليل طابع التناقضات في ظل الاشتراكية، من الضروري ان يؤخذ بالحسبان ان النظام الاجتماعي الاشتراكي يمر في مراحل معينة من نشوئه وصيرورته وتطوره. وفي هذه المراحل تتواجد وتحل تناقضات مختلفة من حيث مضمونها وطابعها. والمرحلة الانتقالية تتميز باجتماع سمات وخواص مجتمعين متضادتين هما الرأسمالية والاشتراكية. ولهذا تقوم اصالة المرحلة الانتقالية في وجود تناقضات تناحرية وغير تناحرية.

وأهم تناقض في المرحلة الانتقالية، التناحر بين الرأسمالية المقهورة سياسياً، ولكن المقاومة في الاقتصاد، والاشتراكية السائدة سياسياً ولكن التي لما تتوطد كليا. وهذا، بتعبير آخر، شكل جديد للتناقض التناحري بين البرجوازية والبروليتاريا اعربت عنه الصيغة اللينينية الشهيرة: « الغلبة لمن على من؟ ». ان الطريقة الرئيسية لحل أهم تناقض في المرحلة الانتقالية هي نضال

البروليتاريا الطبقي بلا هوادة بالتحالف مع الفلاحين وجميع الكادحين ضد قوى المجتمع القديم. وفي ظروف ديكتاتورية البروليتاريا، يتخذ النضال الطبقي اشكالا خاصة يتحقق فيها حل التناقضات التناحرية وغير التناحرية في المرحلة الانتقالية.

ان انتصار وتوطد الاشتراكية يقضيان على التناحرات التي تولدها الرأسمالية. والتناقضات الاجتماعية في الاشتراكية تكتسب طابعا غير تناحري. اما الاساس الموضوعي لطابع هذه التناقضات غير التناحري، فهو الملكية الاجتماعية لادوات ووسائل الانتاج، ووحدة اهداف ومصالح الطبقة العاملة والفلاحين التعاونيين والمثقفين الاشتراكيين، اي اسس جديدة مبدئيا ومضمون جديد مبدئيا للوحدة الاجتماعية.

ان تطور المجتمع الاشتراكي يجري على اساس حركة وحل التناقضات غير التناحرية. وقد اشار لينين بخاصة الى هذا العامل قائلا: «ان التناحر والتناقض ليسا البتة الشيء نفسه. في ظل الاشتراكية، يزول الاول ويبقى الثاني»*.

ان ممارسة البناء الاشتراكي تؤكد ان المجتمع الجديد يولد في غمرة النضال الذي تنبثق فيه التناقضات في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، ويجري فيه حلها. ان اصالة تناقضات الاشتراكية لا تتلخص في تغيرات طابع التناقضات وفي زوال التناحرات الطبقية وحسب. فان اشكال وطرائق حل التناقضات تتغير كذلك.

اذن، تقوم **الخاصة الاولى** للتناقضات الداخلية للاشتراكية **في طابعها غير التناحري** الذي تحدده البنية الاجتماعية الاقتصادية الجديدة، وسيادة الملكية

* المجموعة اللينينية ١١. ملاحظات على كتاب بوخارين: «اقتصاد المرحلة الانتقالية». عام ١٩٣١، ص ٣٥٧.

الاجتماعية، وانعدام الاستثمار والتناحرات الطبقية.

تقوم **الخاصة الثانية** للتناقضات الداخلية للاشتراكية في كونها **تناقض نمو** للنظام الاجتماعي الجديد، للخط الصاعد للتطور الاجتماعي خلافا لميل الرأسمالية العالمية الهابط تاريخيا.

الخاصة الثالثة تنبع من واقع ان الاشتراكية تنمو من احشاء المجتمع القديم وتتسم «بشامات» الرأسمالية. فان آثار الماضي تتبدى خلال حقبة معينة من الزمن في الاقتصاد (درجة تطور القوى المنتجة الوطنية، تخصص الاقتصاد، العلاقات الاقتصادية)، في العلاقات الدولية والقومية، في التقاليد الاجتماعية والمعيشية، في الثقافة الوطنية وفي النفسية وفي الايديولوجية. ان الظروف الوطنية تخلق اختلافات وتناقضات معينة في تحقيق القوانين الموضوعية العامة لبناء الاشتراكية. وهذه التناقضات هي، على العموم، تناقضات جزئية، قصيرة الامد تاريخيا، في بعض ميادين الحياة الاجتماعية، بشأن بعض العلاقات المتبادلة بين بلدان الاشتراكية العالمية.

الخاصة الرابعة ترتبط بتعاظم دور العامل الذاتي في حل التناقضات الموضوعية. فان عمل الجماهير الواعي، وتدخل الناس المعلل علميا في مجرى العمليات الموضوعية العفوى يعجلان حل التناقضات، ويزيدان من وتائر التقدم التاريخي. ان الوحدة المعنوية السياسية بين شعوب البلدان الاشتراكية، وتلاحمها وتعاضدها وصداقتها واخوتها، تتيح رفع مستويات التطور الاجتماعي الاقتصادي الى مستوى واحد، والتغلب سوية على المصاعب والتناقضات الموضوعية.

وبما ان الفلاسفة البرجوازيين لا يفهمون خصائص التناقضات في ظل الاشتراكية، او بما انهم يشوهونها قصداً وعمداً، فانهم يزعمون ان الديالكتيك في الاتحاد السوفييتي قد «مات» مع القضاء على التناحرات، وان الاشتراكية الفعلية تدحض ديالكتيك ماركس ولينين. ويزعم هنري شامبر في كتابه

« الماركسية في الاتحاد السوفييتي » « ان موت الديالكتيك يرتسم في الافق التاريخي للاتحاد السوفييتي » . . وقول جان بول سارتر في كتابه « نقد العقل الديالكتيكي » « ان ديكتاتورية البروليتاريا كانت مفهوما متفائلا ومفهوما صيغ بافراط في التسرع من جراء عدم معرفة قوانين العقل الديالكتيكي المطلقة » ، ويحاول موريس مرلو- بونتي في كتابه « مغامرات الديالكتيك » ان يسخر بصدد نتائج ثورة اكتوبر التي قضت على التناحر بين البرجوازية والبروليتاريا فيقول : « اذن ، لم تبق معارضة ، لا وجود للديالكتيك الفعال ! » .

خلافا للمزورين البرجوازيين ، يبين وجود التناقضات المتنوعة في مختلف ميادين المجتمع الاشتراكي وحلها بنجاح حيويته وآفاق الوتائر العالية لتطوره المتواصل . ان وتائر التطور التاريخي رهن بسرعة نضوج الجديد . ان التطور الاجتماعي المتسارع في ظل الاشتراكية انما مرده الى ان حل التناقضات الاجتماعية يؤمنه نشاط الجماهير الاجتماعي وتجربتها العملية وابداعها كما تؤمنه القيادة المنهاجية والهادفة المحللة علميا لجميع ميادين الحياة الاجتماعية من جانب الحزب الشيوعي والدولة الاشتراكية . وهذا القانون الجديد في تطور وحل التناقضات الديالكتيكية هو الذي يؤمن التقدم غير المحدود في تطور الاشتراكية ، في حركة المجتمع نحو علاقات شيوعية جديدة .

التناقضات الداخلية والخارجية ، الاساسية وغير الاساسية

ان التحليل العلمي الديالكتيكي يبتغي دراسة التغيرات الداخلية في الموضوع المعني او العملية المعنية ودراسة تغيرات صلاتها الخارجية على السواء . ان التناقضات الداخلية هي التناقضات التي تنجم بين اقسام ، عناصر ، جوانب الموضوع المعني وتعبر عن خصائص طبيعته الداخلية ، عن

طابع واتجاه الحركة والتطور . والتناقضات الخارجية هي تناقضات تبرز بوصفها شروطا معينة لوجود الموضوع المعني وتعبر عن صلته وتفاعله مع البيئة الخارجية ، مع المواضيع او العمليات الاخرى . ان التناقضات الداخلية هي اساس ومصدر التطور ، ولذا تحدد ، على العموم ، وجود الموضوع بالذات ، وميوله وآفاقه . وبوسع التناقضات الخارجية ان تمارس تأثيرا ايجابيا او سلبياً في مجرى التطور الداخلي بوصفها ظروفه التاريخية .

ومن هنا لا ينجم ان التناقضات الخارجية لا تضطلع الا بدور ثانوي . بل بالعكس . ففي اوضاع معينة ، يمكنها اولا ان تتسرب الى المضمون الداخلي وتتحول الى تناقضات داخلية ، او يمكنها ثانيا ان تتفاعل مع التناقضات الداخلية بدرجة من القوة انها تبرز في بعض المراحل بوصفها عاملا محددا لوجود وتطور الموضوع المعني . وعليه يؤكد الديالكتيك المادي على نسبية تقسيم التناقضات الى تناقضات داخلية وتناقضات خارجية ، ويقتضي تحليلا ملموسا لحالة وتفاعل العلاقات الداخلية والخارجية بين الاشياء والعمليات .

وعلى سبيل المثال ، ندرس تفاعل التناقضات الداخلية والخارجية في التطور الاجتماعي . وواضح ان وجود وميول عالم الاشتراكية وعالم الرأسمالية بوصفهما نظامين اجتماعيين متضادين انما تحددها في المقام الاول تناقضاتهما الداخلية . وفي الوقت نفسه ، لا يمكن الا نرى ان التناقضات الخارجية بينهما تؤثر بصورة معينة في وتائر واشكال تطورهما ، علما بان وجود ونمو الاشتراكية العالمية يمارسان تأثيراً متعاظماً في كل من البلدان الرأسمالية وفي كل النظام الرأسمالي بمجمله .

ومن جهة أخرى ، في مرحلة الحرب ضد الفاشية الاوروبية والعسكرية اليابانية مثلا ، حتمت التناقضات الخارجية معهما موقتا التطور الداخلي للاشتراكية في الاتحاد السوفييتي وحتى المصائر التاريخية للاشتراكية العالمية .

وعلاوة على التناقضات الداخلية والخارجية ، تتسم قضايا التناقضات الاساسية وغير الاساسية وانظمتها باهمية كبيرة لاجل تحليل العمليات

الاجتماعية تحليلا علميا. وفي شبكة التناقضات، بتعقدها وتعدد جوانبها من المهم خارق الاهمية فرز ذلك المركز الذي تتركز حوله كل الشبكة والذي تنطلق منه الدفعة الموجهة للاتجاه الاساسي للحركة والتطور. ان مجرد تعداد التناقضات الموجودة، والجمع الاختياري بينها وكذلك اضفاء صفة الاطلاق بصورة سفسطائية على بعض التناقضات غير الجوهرية، لا تتيح معرفة المجرى الاساسي، الرئيسي، المركزي للعمليات التاريخية.

وعلى الصعيد النظري، يتميز **التناقض الاساسي** بالسمات التالية:

اولا، يعرب عن تفاعل اضداد دائمة تحدد الطبيعة الداخلية للموضوع المعني او للعملية المعنية ووجوده بالذات منذ لحظة نشوئه حتى زواله، **ثانيا**، يشكل القوة المحركة الاهم، المصدر الاساسي لتطور الموضوع كله والعملية كلها، **ثالثا**، يحدد بين التعرجات المتناقضة العديدة المحور المركزي لجميع التغيرات، طريقها الرئيسي، وميلها القانوني، **رابعا**، على اساسه وبالارتباط به، تنبثق تناقضات اخرى، غير اساسية تتفاعل مع التناقض الاساسي وتشكل **نظاما معينا من التناقضات**.

وفيما يتعلق بتحليل العمليات التاريخية، تجدر الاشارة الى عدد من الاعتبارات الهامة. اولا، ان التناقض الاساسي في التطور الاجتماعي يقوم دائما في **اساسه المادي**، الذي يحدد في آخر المطاف جميع التناقضات في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية، ينبع من **اسلوب الانتاج السائد**. ثانيا، بما ان لكل تشكيلة معينة اساسا ماديا واحدا، واسلوب انتاج واحدا ناضجا وسائدا بهذا القدر او ذاك، فلا يمكن ان تقوم بضعة تناقضات اساسية. وبهذا المعنى، لا يمكن من الناحية العلمية الصرف اعتبار استعمال وتعداد جملة من التناقضات الهامة بصفة تناقضات اساسية امرا صحيحا.

في الاساس المادي للمجتمع الرأسمالي، يقوم تناقضه الاساسي، اي التناقض بين صفة الانتاج الاجتماعية والاستملاك الرأسمالي الخاص*

ورغم جميع التغيرات الحالية التي طرأت على الرأسمالية بوصفها تشكيلة اجتماعية اقتصادية، لا يزال الخط الرئيسي لتحركها يحدده فعل هذا التناقض الاساسي. وتبعا لدرجة نضج الرأسمالية نفسها، تظهر فيها وتفعل فعلها تناقضات غير اساسية. وهذه التناقضات مرتبطة بوثوق بتناقض الرأسمالية الاساسي، واحيانا تنجم عنه مباشرة. وفضلا عن ذلك، يبرز بعض من التناقضات غير الاساسية بصفة اشكال لتجلي التناقض الاساسي، وحلها الثوري يقرّب بهذا القدر او ذاك من حل التناقض الاساسي في المجتمع الرأسمالي.

وبديهي انه يتكون في كل بلد بعينه نظامه من التناقضات تبعا لمستوى التطور الاجتماعي الاقتصادي، والعلاقة بين مختلف النماذج الاقتصادية وتأثيرها، ودرجة التبعية حيال الامبريالية العالمية. فقد بقيت، مثلا، بنيات اقتصادية متعددة النماذج في ظل البناء التحتي السابق للرأسمالية، ويتواجد تعدد النماذج في البلدان حيث مستوى تطور الرأسمالية ضعيف ومتوسط، اما بلدان رأسمالية الدولة الاحتكارية، فانها تتميز بجملة من التناقضات الجديدة، وهذه التناقضات صاغتها وثيقة المؤتمر العالمي للاحزاب الشيوعية والعمالية في عام ١٩٦٩.

ثم ان قضية التناقض الاساسي قد غدت موضع صراع ايديولوجي حاد بالارتباط مع تحليل العهد التاريخي المعاصر. فان التناقض الاساسي في العهد المعاصر قد نبع وتنامى من التناقضات الداخلية في الرأسمالية. فان التناحر

* راجعوا في هذا الصدد، مثلا، كارل ماركس. «رأس المال»، ماركس وانجلس، المجلد ٣، ص ٢٧٥، انجلس «ضد دوهرينغ»، ماركس وانجلس، المجلد ٢٠، ص ٢٦٨.

الاجتماعي بين البرجوازية والبروليتاريا قد انتقل، بنتيجة توطد الاشتراكية، الى المسرح العالمي، ويبرز بوصفه تناحرا بين نظامين اجتماعيين متضادين. ان التناقض الاساسي في العهد التاريخي المعاصر - بين الاشتراكية والرأسمالية - والتناقض الاساسي للرأسمالية نفسها يتسمان كلاهما بالجوهر الاجتماعي نفسه ويحتمان بالتالي الوحدة الموضوعية بين الفصائل الاساسية للعملية الثورية العالمية في نضالها ضد الامبرايالية وضد الرأسمالية.

ان ايديولوجيي معادة الشيوعية ينكرون بصورة مباشرة وغير مباشرة التناقض الاجتماعي الاقتصادي الاساسي في عصرنا، وينكرون تأثيره المحدد في مصير البشرية. ومن هنا، يتحدثون، اكثر ما يتحدثون، عن التضاد بين اشكال وطرائق الادارة، ونمط الحياة، و « ديمقراطية » و « حرية » و « انسانية » النظام الرأسمالي، وعن « التوتاليتارية » و « الديكتاتورية » في ظل الاشتراكية. وعَرفّ بعض الفلاسفة البرجوازيين جوهر العصر بانه « هاوية حرارية نووية » (ك. ياسبرس) او « عصر الازمة العامة والجزئية » (الفيلسوف المكسيكي ف. لارويو).

ان آراء اولئك النظريين الذين يميلون الى استعظام شأن التناقضات الهامة بين الامبريالية وحركة التحرر الوطني هي ضلال (ان لم تكن تشويها متعمدا). وبعض منهم يؤكدون بعناد جدير باستعمال افضل ان التناقض بين البلدان المتأخرة اقتصاديا، التابعة والبلدان العالية التطور هو التناقض الاساسي في العهد الحالي.

وبقوة وشدة جرى، من اجل بلدان آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية، نشر الموضوعة القائلة بالتناقض الاساسي بين « الريف العالمي والمدينة العالمية » (التي تشمل البلدان الامبريالية المتطورة والبلدان الاشتراكية!). بل ان مواد المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الصيني تقدمت بموضوعه عن التناقضات الاساسية الاربعة في العهد المعاصر، زاعمة ان التناقض المركزي بينها هو

التناقض بين « الدولتين الاعظم » (الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي) من جهة، وجميع بلدان العالم الاخرى المتأخرة في تطورها.

ان بطلان هذه الآراء النظري ورجعيتها السياسية واضحان. اما ان التناقض بين الامبريالية وبين شعوب البلدان التابعة يضطلع في مرحلة معينة من تاريخ هذه الشعوب بدور هام في مصيرها، فهذا واقع لا مراء فيه. ولكن حل هذا التناقض مع الامبريالية، المحدد في المرحلة المعنية لا يحرر بعد العالم غير الاشتراكي وشعب البلد التابع من مستثمريه من ابنائه. فان تحرر الشعوب الفعلي لا يضمنه غير الصلة الوثيقة التي لا انفصام لعراها بين حركات وثورات التحرر الوطني والاجتماعي وبين الافق الاشتراكي. ان تزوير المادية الديالكتيكية، او رفضها او عدم فهمها، كل هذا يشكل جذورا منهاجية لمفاهيم معادة الشيوعية ومفاهيم انتهازية وقومية تعصبية من كل نوع.

ومع المرتدين الانتهازيين عن الماركسية، يزوِّر الفلاسفة وعلماء السياسة البرجوازيون، بنشاط وهمة، التناقضات الداخلية في الاشتراكية العالمية. اليكم موضوعة مميزة تعطي فكرة عامة عن هذا التزوير وتتكرر باشكال عديدة وفي طبعات عديدة.. « كيف يمكن ان يستمر التطور الديالكتيكي في ظل الاشتراكية والشيوعية، اذا لم يعد للنضال الطبقي وجود؟.. كيف يمكن ان يتواجد مثل هذا الديالكتيك اذا كانت الثورة البروليتارية ستكون الثورة الاخيرة، والاشتراكية والشيوعية التشكيلتين الاجتماعيتين الاخيرتين؟ »* وهذه المعضلة القائمة والمستعصية على الديالكتيك المادي يتقدم بها كثيرون من المؤلفين، ومنهم مثلا جيلاس في كتابه « الطبقة الجديدة »، وباولينو اريس سوموسا في كتابه « المادية التاريخية. سوسيولوجيا الماركسية » الصادر عام

* راجع غوستاف فيتر. « الايديولوجية السوفييتية اليوم. الفصل الاول. المادية الديالكتيكية والتاريخية »، فرانكفورت على الماين وهامبورغ، عام ١٩٦٢، ص ٢٣٤.

١٩٧٠ عن دار جامعية للطبع والنشر في بوينس ايرس، وكثيرون غيرهما. فهم يبذلون قصارى الجهد لكي يتجنبوا واقع ان التناقضات الداخلية للاشتراكية العالمية تتسم بطابع غير تناحري، وجوهر اجتماعي آخر، وتختلف بصورة جذرية عن الجوهر الاجتماعي للتناقض الاساسي وعن نظام تناقضات الرأسمالية العالمية.

ولكن اسلوب الانتاج الاشتراكي يولد التناقض الاساسي الملازم للاشتراكية، وهو التناقض بين المستوى الذي بلغه الانتاج المادي والروحي ودرجة تلبية الحاجات المادية والروحية، الاجتماعية والشخصية، لكل من الشغيلة. وهذا التناقض الاساسي هو مركز نظام تناقضات الاشتراكية. ان قسما من هذه التناقضات بقي ارثاً عن المجتمع القديم الذي تنبع منه الاشتراكية، ونعني بذلك التناقض او الاختلاف الجوهري بين المدينة والريف، بين العمل الفكري والعمل اليدوي، بين نمط الحياة الاجتماعية الاشتراكي وبقايا الرأسمالية في ادراك المواطنين السوفييت. وهناك تناقضات اخرى تعرب عن درجة نضج الاشتراكية ذاتها في مختلف ميادين الانتاج والحياة الاجتماعية. واخيرا هناك نوع ثالث في نظام تناقضات الاشتراكية ينجم عن خصائص التفاعل بين النظامين العالميين - الاشتراكية والرأسمالية - في المرحلة الراهنة.

اذن، ان تحليل طابع التناقضات الملموس ضروري، لا لاجل معرفة جوهر هذا العهد او ذاك معرفة صحيحة وحسب، بل ايضا لاهداف عملية، اي لرسم السبل والطرائق المناسبة لحل التناقضات من كل نوع وطراز. ولهذه الموضوعة اهمية مباشرة ايضا لاجل رسم سياسة صحيحة للاحزاب الشيوعية في الظروف الوطنية الملموسة.

قانون تحول التغييرات الكمية الى تغيرات كيفية والعكس بالعكس

في هذا القانون للديالكتيك، كما في جميع القوانين، تتكشف الصلة بين ضدين معينين والوحدة بينهما والعلاقات الضرورية بينهما، عنينا بها الكم والكيف. ان المواصفات الكمية والكيفية تلازم جميع مواضيع وعمليات الواقع، وتتسم بطابع عام. ولهذا كان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية والعكس بالعكس احد قوانين الديالكتيك الاساسية، فهو يبين سبل واشكال وطابع التطور في جميع ميادين العالم الطبيعي والاجتماعي. ان فهم المضمون الاساسي لهذا القانون واهميتها لاجل المعرفة العلمية والممارسة الثورية يتطلب دراسة بعض المقولات مسبقا.

مقولات الكيفية والكمية والمقياس. ان اشياء العالم المحيط التي يواجهها الانسان متنوعة الى ما لا حد له. وفي المرحلة الاولى من دراستها، تبرز المواصفات الكيفية والكمية. وقد وصف لينين سبيل المعرفة هذا على النحو التالي: « في البدء تلوح الانطباعات، ثم يبرز شيء ما، ثم يتنامى مفهوم الكيفية (تعريف الشيء او الظاهرة) ومفهوم الكمية »*.

ولهذين المفهومين معناهما الموضوعي ومضمونهما الموضوعي.

ان الكيفية (الكيف) هي الكيان الداخلي للاشياء والعمليات، مجمل الخصائص الثابتة الملازمة لها، والتي تميزها بعضها عن بعض او تربطها بعضها ببعض. كذلك يمكن اعتبار الكيفية وحدة البنية والعناصر التي تكوّنها، المجمل الثابت للخواص التي تميز شيئاً عن آخر. والخواص تعرب عن مختلف جوانب الكيفية وكذلك عن الكيفية بوصفها كلا في هذه الناحية الجزئية او

---

* لينين. خطة ديالكتيك (منطق) هيغل. المؤلفات، المجلد ٣٨، ص ٣١٤ - ٣١٥.

تلك. واحيانا، يستعمل مفهوم الكيفية ومفهوم الخاصة بالمعنى الواحد نفسه، ولكنه من الادق فهم الخاصة على انها صفة جزئية لهذا الكيان او ذاك. مثلا. اوضح ماركس ان كيان البضاعة الكيفي يقوم في كون البضاعة نتاجا للعمل معدا للتبادل. والبضاعة، بكيفيتها هذه، لا تملك خواص فيزيائية (طبيعية) وحسب، بل تملك كذلك خاصة جوهرية متميزة - هي ان تكون شكلا معادلا لقيمة. وفي هذه الحالة، تتكشف كيفية البضاعة من خلال علاقات معينة مع بضاعة اخرى، من خلال خواصها الجوهرية.

ومن المهم الاشـارة على الصعيد المنهـاجي الى ان الكيفية والخـاصـة، والتناسب بينهما، وتغيراتها تنشأ وتتواجد بصورة موضوعية. ولكن ممثلي المثالية الـذاتية ينطلقون على العكس من ذاتية الكيفيات (او الصفات) ويعتبرون الاشياء ذاتها وصفاتها (كيفياتها) كخواص للوعي البشري، كاحساسات او مجموعة من الاحساسات.

ان مقولات الكيفيات لا تطبق لوصف مجمل خصائص الشيء نفسه اجمالا وحسب، بل ايضـا لوصف مراحـل خاصة من تطوره ووصف اصالة جوانبه الداخلية. وفي كل نظام مادي وفي عناصره المكونة تظهر كيفيات (صفات) عديدة في مختلف مراحل تطورها وبالارتباط مع ظروف معينة. وبهذا المعنى، يتناول الحديث، مثلا، المرحلة السابقة للاحتكار والمرحلة الاحتكارية في تطور الرأسمالية، والتغيرات الكيفية في الانتاج، والنضال الطبقي، والعملية الثورية.

علاوة على الكيفيات (الصفات) الخاصة، تتسم جميع الاشياء والعمليات بوصف كمي. والمقصـود بالكمية كيان الشيء، الذي يعبر عن كبره وحجمه وابعاده ودرجة تطوره ومجمل اجزائه، وعدد خواصه، وما الى ذلك. والوصف الكمي يكمـل معـارفنـا كثيرا، ويبين علاقة الاجزاء الوحيدة النوع بالكل، وتغـيراتهـا. والكمية، مثلها مثل الكيفية، ملازمة موضوعيا للاشياء، ولكنها

تتبدى قبل كل شيء ككيان خارجي. ورغم هذا، يتجلى في الكمية مضمون هام، مثلا، مستوى ووتائر تطور الاقتصاد، مقدار الدخل الوطني والفردي، عدد اعضاء الحزب الشيوعي النشطاء، تركيبه الاجتماعي، وما الى ذلك. ومن هنا ينجم ان حساب الجانب الكمي من الظاهرات الاجتماعية هو جزء مكّون هام من التحليل العلمي لعمليات التـطور. فقـد قال ماركس، مثـلا، في دراسته للعمل:

« . . . اذا كانت كيفية العمـل الـذي تتضمنه البضاعة هي وحدها التي تتسم باهمية بالنسبة لقيمتها الاستهلاكية، فان كمية العمل هي وحدها التي تتسم باهمية بالنسبة لمقدار القيمة، علما بانه يجب حصر كمية العمل في العمل الانساني بدون اي كيفية لاحقة »*.

ان الجانب الكيفي والجانب الكمي يضطلعان بدورين مختلفين في عملية التـطور. فان الشيء او العملية يتغـيران بصـورة جذرية اذا فقـدا الكيفيات (الصفات) الملازمة لهما. وبنيتهما، وطبيعتهما، وخصائصهما تختلف مبدئيا عما كانت عليه، وتنبثق اشياء وعمليات جديدة. فان تغيرات الجانب الكمي من الشيء ضمن حدود معينة، - المقياس، الحجم، المقدار - لا تؤدي الى تحويلها جذريا، ولا تمس طبيعتها الداخلية. ان حدود التغيرات، والجوانب الكمية، التي يبقى في ظلها اساس الأشياء الثابت، وكيفياتها (صفاتها) القديمة، انما يعبر عنها تعبير « القدر ». والقدر هو تعبير ملموس عن وحدة ضدين مترابطين بالضرورة، هما الجانب الكمي والجانب الكيفي من الشيء المعني او العملية المعنية. ولكـل شيء قدر معـين تجري ضمن حدود ذبذبات الكمية مع بقاء الكيفية المعنية. وانتقـال التغـيرات الكمية الى ما وراء حدود القدر يؤدي الى

* ماركس. « رأس المال »، المجلد الاول، ص ٥٢

انتهاك التناسب المعني، الى مخالفة الوحدة المعنية بين الكمية والكيفية.

ان لحظات الانتقال من قدر الى آخر تسمى العقد او النقاط، وكل سلسلة الانتقال من وحدة بين الكمية والكيفية الى وحدة اخرى تسمى خط القدر العقدي. ولحالة كل موضوع او عملية قدرها. والقدر الجديد ينبثق حين تؤدي التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية. والتغيرات الكيفية تستحيل دورها بدون تراكم التغيرات الكمية مسبقا. ان الكيفية الجديدة تحتم الكيان الكمي الجديد، وتغيراته اللاحقة. وفي هذا يتلخص المضمون الاساسي للقانون الديالكتيكي القائل بتحول الكم الى كيف.

ان قانون تحول الكم الى كيف يتسم، مثله مثل جميع قوانين الديالكتيك المادي، بطابع عام وموضوعي. وتؤكده بكل جلاء الممارسة الاجتماعية التاريخية ومنجزات العلوم الطبيعية والاجتماعية. وقد سبق لانجلس وقال، مثلا، انه تمكن تسمية الكيمياء بعلم التغيرات الكيفية الجارية في الاجسام بتأثير تغير تركيب العناصر الكمي. وهذه الفكرة لا تتأكد صحتها نظريا - بقانون العناصر الكيمياوية الدوري - وحسب، بل ايضا عمليا - بصنع العناصر الثقيلة مما وراء الاورانيوم بصورة اصطناعية.

وعند تحليل تطور الرأسمالية، بيّن ماركس ولينين ان مالك النقود لا يصبح رأسماليا الا اذا كان مبلغ النقود التي يسلفها تتيح له ان يستأجر ويستثمر قوة العمل بدون ان يشترك مباشرة في عملية الانتاج. « هنا، كما في علوم الطبيعة، تتأكد صحة القانون القائل... ان التغيرات الكمية الصرف تتحول في درجة معينة الى فوارق كيفية »*.

وبديهي ان لتحول الكمية الى كيفية خصائصه في المواضيع الطبيعية والاجتماعية. والفرق بينها يتلخص في ان التحول الكيفي من حالة للمجتمع

* ماركس. « رأس المال » الفصل ٩. ماركس وانجلس. المؤلفات، المجلد ٢٣، ص ٣١٨

الى حالة اخرى يتحقق بنتيجة نشاط الناس الفعال، بنتيجة نضال الجماهير الكادحة الشعبية، بوصفها القوة الرئيسية في التاريخ. وفي الوقت نفسه، يتجلى الطابع العام والموضوعي لهذا القانون في ان عمليات التطور الطبيعية والاجتماعية ترتدي شكلين اساسيين: التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية. ان التغيرات الكمية تبين استمرار التطور في اطار كيفية معينة، والتغيرات الكيفية تدل الى الانقطاعات في التدرج، على التقطع، على حلول كيفية جديدة محل الكيفية القديمة. وهذه الصلة المتبادلة، وتحولات التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية والعكس بالعكس، ينكرها ويزورها الفلاسفة البرجوازيون، رغم معطيات العلم المعاصر والممارسة الاجتماعية التاريخية. مثلا، يزعم الفيلسوف الاميركي المذكور اعلاه سيدني هوك: « من الخرافة القول ان الكمية تصبح ذات يوم كيفية او ان الكيفية تصبح كمية »*. ومن الطريف الاشارة الى ان مواطنه ورفيقه في معاداة الشيوعية ولت روستو يدحض عمليا هذا الموقف بنظريته حول « اطوار النمو الاقتصادي »، حيث يبرز كل طور بوصفه كيفية جديدة تماما يحددها مستوى وابعاد استعمال التكنيك، والتنظيم، وادارة المجتمع.

وبالفعل يمكن ان نلاحظ في تطور الانتاج الرأسمالي مراحله التالية المختلفة كيفيا: التعاون - المانيفاكتوره - الانتاج الآلي - الصناعة الحديثة على اساس التقدم العلمي والتكنيكي. وفضلا عن ذلك، يتميز الانتاج الصناعي العصري بالانتقال من نظام الآلات ذي المحرك الواحد الى النظام المؤتمت ذي الادارة الذاتية. وكل من المراحل المذكورة تختلف كيفيا عن سابقتها. ولكن هذه التغيرات الكيفية في الانتاج لا تعني انقلابات جذرية في تطور الرأسمالية بوصفها تشكيلة اجتماعية اقتصادية، لان جوهر العلاقات الرأسمالية بوصفها

* سيدني هوك. المادية الديالكتيكية والطريقة العلمية.

علاقات استثمارية يبقى هو هو. وهذا الواقع لا يدحض نظرية روستو حول اطوار النمو الاقتصادي وحسب، بل يدحض ايضا المزاعم البرجوازية والمزاعم الاصلاحية بشأن « تحول » الرأسمالية كليا الى « مجتمع جديد » على اساس الثورة العلمية والتكنيكية العصرية في الانتاج.

كذلك تلازم التغيرات الكيفية التطور الاجتماعي في ظل الاشتراكية. فان الانعطاف التاريخي الجذري، وحلول الاشتراكية محل الرأسمالية يبدآن مع ظفر الطبقة العاملة بالسلطة السياسية. ومرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، ومرحلة بناء اساس الاشتراكية والمجتمع الاشتراكي المتطور، ومرحلة بناء الشيوعية وتطور الشيوعية، هي مراحل مختلفة كيفيا من نضوج التشكيلة الشيوعية.

ان المراحل المذكورة تعرب في الوقت نفسه عن الاتجاهات المتضادة في طابع التغيرات الكيفية الجارية في تطور الرأسمالية والاشتراكية. ففي الحالة الاولى، تتحقق هذه التغيرات عن طريق المزيد والمزيد من تأزم التناقضات الرأسمالية، وتؤدي في آخر المطاف الى زوال النظام البرجوازي. وفي الحالة الثانية، نرى قانونا آخر يقول ان التغيرات الكيفية في تطور الاشتراكية تؤدي تدريجيا الى علاقات اجتماعية ارقى فارقي، وتبرز بوصفها مراحل كيفية من التقدم الاجتماعي من جميع النواحي. وعليه يتبدى في التطور الاجتماعي تنوع مضمون واشكال تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية.

قضية القفزات في عمليات التطور. ان تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية هو، كما سبق وقلنا، طور انعطاف، طور انقطاع في التدرج، يتجلى في حلول كيفية جديدة محل كيفية قديمة. وهذا الانعطاف الحاسم، هذا الانتقال المباشر من حالة كيفية قديمة الى حالة كيفية جديدة انما هو **القفزة الديالكتيكية في التطور.**

وقد اشار لينين الى دور القفزات الانعطافي التحويلي في التطور الاجتماعي

واكد قائلا: « ... ففي هذه المراحل الثورية، تحل التناقضات العديدة التي تتراكم ببطء في المرحل المسماة بمراحل التطور الهادىء وفي هذه المراحل يبدو بأشد ما يكون من الوضوح دور مختلف الطبقات المباشر في تحديد اشكال الحياة الاجتماعية، وتنشأ قواعد « البناء الفوقي » السياسي الذي يستمر طويلا على اساس علاقات الانتاج المتجددة »*.

ان هذا القانون يتسم مبدئيا بطابع عام، ولكن تجلياته في مختلف الظاهرات والعمليات تتسم بطابع خاص وملموس. فان الديالكتيك المادي يميز القفزات من حيث مضمونها وابعادها وتائر واشكال تجليها. فان بعض القفزات تعني، من حيث مضمونها، الانتقال من شيء او عملية الى شيء آخر او عملية اخرى، جديد او جديدة كيفيا. فهكذا هي، مثلا، القفزات من عنصر كيماوي الى آخر، من بعض انواع العضويات الحية الى اخرى. وفي الحياة الاجتماعية تشكل الانتقالات بين مختلف التشكيلات الاجتماعية - الاقتصادية من العبودية الى الاقطاعية، من الاقطاعية الى الرأسمالية، ومن الرأسمالية الى الاشتراكية - قفزات من هذا النوع.

وفي حالات اخرى، تعبر القفزات، من حيث مضمونها، عن تغيرات كيفية ضمن حدود شيء معني او علمية معنية. وهذه، مثلا، اطوار التطور البيولوجي لمختلف النباتات والحيوانات، ومراحل تكون الانسان، والتغيرات الكيفية في اطار التشكيلة الواحدة ذاتها. فان الانتقال من الرأسمالية ما قبل الاحتكار الى الامبريالية، مثلا، هو قفزة في تطور التشكيلة الرأسمالية. وهنا ترد كذلك التغيرات الكيفية، المدروسة اعلاه في تطور المجتمع الاشتراكي، والتي تتسم بطابع مناسب كطابع القفزة.

---

* لينين. ضد المقاطعة. المؤلفات الكاملة، المجلد ١٣، ص ٢٣. لينين. ماركس - انجلس - الماركسية. دار التقدم، موسكو، ١٩٧٢، ص ٢٨٤.

وقد تشمل القفزات من حيث ابعادها عهودا تاريخية كاملة تجرى ضمنها جملة من مختلف القفزات داخل قفزة كبيرة عامة. مثلا. ان الانتقال التاريخي من جدنا الشبيه بالقرد الى الانسان كان خارقا الطول. وداخل هذه القفزة الكبيرة، تفرز النظريات المعاصرة بشأن نشوء الانسان ثلاثة اطوار اساسية: تطور الجد المباشر للانسان (القريب من الاوسترالوبيتيك ـ القرد الاوسترالي الشبيه بالانسان)، مرحلة نشوء الانسان وتكّون المجتمع الانساني (انسان زيندجان، الانسان الشبيه بالقرد، انسان الصين، انسان اتلانت، انسان نياندرتال)، مرحلة وجود الانسان من الطراز البدني الحالي (بصورة عامة، انسان كرومانيون). وبما ان كلا من هذه الاطوار قفزة داخل قفزة تاريخية كبيرة، فانها حقبة مديدة من الزمن. فان انسان كرومانيون، مثلا، ظهر منذ بضع عشرات الآلاف من السنين.

ان عهد القفزات الكبيرة في المجتمع المعاصر يشمل مرحلة كاملة من تطور التاريخ. ان التحول الكيفي الكامل للمجتمع البشري، الذي بدأ منذ ثورة اكتوبر الاشتراكية، يجري بفضل جملة كاملة من القفزات، بفضل انفصال مختلف البلدان عن النظام الرأسمالي تدريجياً وبفضل انتقالها الى الاشتراكية. كذلك تتألف التحويلات الاشتراكية الداخلية في بلدان الاشتراكية من جملة من القفزات في جميع ميادين الحياة الاجتماعية.

وتختلف القفزات من حيث وتيرة وشكل ظهورها، فهناك قفزات سريعة وحتى مفاجئة، حادة، وقفزات بطيئة تجري عن طريق تراكم الكيفية الجديدة باستمرار. ففي الطبيعة، يحدث القضاء الحاد على الكيفية القديمة وظهور الكيفية الجديدة، تحدث القفزة الحادة التعبير، مثلا، في حال التحولات الاشعاعية لنوى الذرات. كذلك توجد في الطبيعة سلسلة كاملة من التحولات الكيفية البطيئة، التدريجية، التي تجري احيانا بصورة غير ملحوظة جدا، وتؤدي مع ذلك الى كيفية جديدة ـ الى مستويات جديدة لتنظيم المادة،

الى انواع جديدة من العضويات النباتية والحيوانية.

ان وتيرة وشكل ظهور القفزة تحددهما طبيعة التناقض الذي تحله، والظروف الملموسة التي يتحقق فيها الانتقال من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة.

وفي عداد القفزات السريعة من حيث الوتائر والحادة من حيث الشكل في الحياة الاجتماعية، ترد القفزات التي تؤدي، على العموم، الى حل التناحرات الاجتماعية. وقد اشار انجلس الى هذا العامل، وكتب يقول ان الجديد يحل محل القديم «سلميا، اذا كان القديم عاقلا بحيث يتقبل مصيره دون مقاومة، وبالعنف اذا عارض القديم هذه الضرورة».*

وفي تاريخ المجتمع، تتصادف التغيرات الحادة والكيفية السريعة، والقفزات المنفردة مع الثورات الاجتماعية والقضاء على النظم الاجتماعية القديمة وبناء النظام الجديد. ان القفزة الحادة، والانتقال السريع والقاطع من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة يعبران عن خصائص عملية تطور المجتمع التناحري، المقسوم الى طبقات معادية. ولكنه من غير الصحيح حصر القفزة الثورية في التدمير، في العنف العسكري والجسدي. فليس من الالزامي اطلاقاً ايضاً ان تتحقق القفزة الحادة والسريعة، ـ مثلا، الانتقال الثوري الى الاشتراكية ـ، عن طريق الانتفاضة المسلحة والحرب الاهلية. من الممكن، طبعا، ان تنجم هذه الاجراءات المتطرفة عن الظروف التاريخية الملموسة لتطور هذا البلد او ذاك، وفي المقام الاول، عن هجوم الطبقات الاستثمارية العنيف السافر.

وانه لخاطىء كذلك زعم العقائديين الجامدين المعاصرين والمتطرفين «اليساريين» القائل ان القفزة الثورية لدن الانتقال من الرأسمالية الى

* انجلس. لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية. دار التقدم، موسكو، ١٩٦٧، ص٨.

الاشتراكية ترتبط الزاما بالحرب. فان التجربة التاريخية التي مرت بها كوبا وجملة من البلدان المتحررة التي اختارت الاتجاه الاشتراكي تبين ان الثورة ممكنة تماما بدون الحروب العالمية التي ارتبطت بها اولى الثورات الاشتراكية. ففي ظروف تاريخية ملموسة معنية، تتحقق الثورة كذلك بدون اللجوء الى القوة المسلحة، وذلك حين تتفوق الطاقة الاجتماعية السياسية للقوى الثورية المنظمة تفوقا كبيرا على امكانيات الطبقات الاستثمارية للمقاومة. ان القفزات الثورية هي نتيجة طبيعية، قانونية، لتطور النضال الطبقي والتناقضات الداخلية في المجتمع الاستثماري.

ان السبيل السلمي والسبيل غير السلمي للانتقال الى الاشتراكية ـ رغم اختلافهما من حيث الشكل ودرجة الحدة، ومن حيث طابع تحققهما ـ، يؤمنان حل المجموعة ذاتها من المهام الثورية ـ ظفر الطبقة العاملة بالسلطة، تحطيم الآلة البرجوازية البيروقراطية العسكرية تحطيما ثوريا، تصفية الملكية الخاصة واستثمار الانسان للانسان، اقامة وتوطيد الملكية الاجتماعية العامة لادوات ووسائل الانتاج. ان هذه التحويلات الاجتماعية الاقتصادية الجذرية تشكل موضوعيا جوهر الثورة الاشتراكية، المضمون الاساسي للثورة الاشتراكية التي لا تعادل البتة العنف العسكري والجسدي، كما يزعم الايديولوجيون البرجوازيون الرجعيون. فان الثورة الاشتراكية هي في جميع الاحوال ـ بصرف النظر عن خصائص وسبل تحقيقها واختلاف سماته ـ، قفزة كيفية عملاقة في تطور المجتمع.

التطور البطيء والثورة. الثورة والاصلاح. احيانا كثيرة يخلطون بين التغيرات الكمية والكيفية في الحياة الاجتماعية وبين مفهومي « التطور البطيء » Evolution والثورة. ان مفهوم التطور البطيء Evolution يستعمل احيانا للاشارة الى عملية التطور بمجملها. فان النظرية التطورية بشأن الطبيعة الحية، مثلا، لا تشتمل على التغيرات الكمية وحسب، بل ايضا

على التغيرات الكيفية. وقد استعمل لينين تعبير évolution « التطور البطيء » بمعنى آخر ايضا، عندما رأى من الضروري الاشارة الى التراكم التدريجي للخواص الجديدة لنضوج الكيفية الجديدة في قلب الكيفية القديمة. وقد قال: « . . . ان التاريخ الفعلي يحتوي هذه الاتجاهات المختلفة، كما ان الحياة والتطور في الطبيعة يحتويان التطور البطيء والقفزات السريعة، اي الانقطاعات في التدرج »*.

ان الشكل الثوري، خلافا للشكل التطوري البطيء، هو انتقال الى كيفية جديدة، انقطاع في التدرج الكمي. ان مفهوم « الثورة » بوصفها شكل التغيرات الكيفية يوازى مفهوم « القفزة ». وكل ثورة فعلية هي قفزة، ولكنه لا يمكن تسمية اي قفزة كانت، بوصفها تغييرا كيفيا، بالثورة الاجتماعية. واذا اردنا الدقة، فانه لا يمكن تسمية التغيرات القفزية الشكل في بعض جوانب الحياة الاجتماعية بالثورات (الثورة العلمية والتكنيكية، الثورة الثقافية) الا اصطلاحا ومجازا. وفي هذه الاحوال، يشار الى عمق التحول الكيفي في هذا الجانب او ذاك من جوانب الحياة الاجتماعية، ولكنه ليس بمقدور الثورة العلمية والتكنيكية ولا بمقدور الثورة الثقافية ان تحلا محل الثورة الاجتماعية. ولا يمكن اعتبار مفهوم « الثورة » ومفهوم « القفزة » امرا واحدا لسبب آخر ايضا، هو ان التغيرات الكيفية، القفزات، لا ترتدي شكل حركة الى الامام وحسب، بل ترتدي كذلك شكل حركة الى الوراء. فان الانقلابات الاجتماعية المعادية للثورة، مثلا، هي، بلا ريب، قفزات، ولكنها تعرب عن حقبة تقهقر في التطور التاريخي، حقبة عودة الى الوراء.

ومن الاهم كذلك التمييز بدقة، من اجل الممارسة الثورية، بين مفهومي

* لينين. ماركس ـ انجلس ـ الماركسية. دار التقدم، موسكو، ١٩٧٢، ص ٣٣١ (الخلافات في الحركة العمالية الاوروبية).

« التطور البطيء » و « الاصلاح » . وقد سبق وقلنا ان الثورة هي تغيير كيفي لجوهر ومضمون الوحدات (الكليات) الاجتماعية، قفزة من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى اخرى. اما فيما يخص الاصلاح، فانه يجب النظر اليه على صعيدين: فحيال الكل (المجتمع المعني، التشكيلة المعنية) يبرز الاصلاح الاجتماعي كتغير كمي لانه لا يشمل غير قسم واحد او ميدان واحد من الحياة الاجتماعية. ومن الامثلة على ذلك، اصلاحات قوانين الانتخاب، وانظمة التعليم والصحة، ومختلف المؤسسات الاجتماعية، وحيال قسم من الكل، حيال ميدان معين منفرد من ميادين المجتمع، يبرز الاصلاح الاجتماعي كتغير كيفي، مثلا، فصل الدين عن الدولة، فصل المدرسة عن الدين، الاصلاح الزراعي، والخ . . .

ان تزييف او عدم فهم ديالكتيك التطور البطيء والثورة على الصعيد السياسي يؤدي الى عواقب خطيرة جدا. فالنضال من اجل تحقيق الاصلاحات الاقتصادية والسياسية التقدمية يشغل مكانا هاما في اعداد الجماهير للثورات المعادية للامبريالية والثورات الاشتراكية. والنضال الثوري المتواصل من اجل الاصلاحات الاجتماعية يتيح للاحزاب الشيوعية توحيد الجماهير الواسعة من المشتركين في الحركات المعادية للامبريالية والحركات المعادية للاحتكارات، والحركات الديموقراطية، ويعزز مكانة الطبقة العاملة ودورها السياسي. وفي سياق هذا النضال يوطد الشيوعيون على الدوام صلاتهم بالجماهير، ويرفعون مستوى وعيهم السياسي، ويقودون الجماهير الى فهم مهام الثورة الاشتراكية وضرورة القيام بها. وهنا يمكن الفرق الجذري بين الاحزاب الماركسية ـ اللينينة وبين الاصلاحيين الذين يعترفون بالاصلاحات في اطار النظام الرأسمالي بوصفها الهدف النهائي وينكرون ضرورة الثورة الاشتراكية.

وخلافا لهذه الطريقة الثورية والعلمية حقا في طرح المسألة، زعمت الاصلاحية ولا تزال تزعم انه يمكن حل جميع قضايا النضال من اجل

الاشتراكية بواسطة شتى ضروب الاصلاحات التي تؤدي في آخر المطاف، حسب زعمها، الى « التشريك »، الى الاستعاضة تدريجيا عن الملكية الخاصة بالملكية الاجتماعية، الى تغيير طبيعة الرأسمالية تغييرا جذريا. ولكن الممارسة الاجتماعية التي قام ويقوم بها الاشتراكيون ـ الديمقراطيون الاسوجيون والنروجيون والنمساويون والالمان، والعماليون البريطانيون الذين كانوا او لا يزالون احزابا حاكمة، تقدم الدليل المقنع على بطلان نظريتهم بشأن الاشتراكية الاصلاحية.

كذلك يلازم الجوهر الاصلاحي المفاهيم العصرية عن الاشتراكية « الديمقراطية » و « الانسانية » و « الاوروبية » التي يروجها الانتهازيون في صفوف الحركة العمالية والحركة الشيوعية. فهم، اذ ينكرون، ضرورة القفزة الثورية، واقامة ديكتاتورية البروليتاريا، وتحطيم آلة الدولة البرجوازية القديمة، يرون في افضل الاحوال مهام الطبقة العاملة في النضال من اجل التحويلات الاقتصادية والاجتماعية ضمن اطار الكيفية القديمة، اي ضمن اطار الديموقراطية البرجوازية. ان اضفاء صفة الاطلاق على الاصلاحات، على التغييرات الكمية التدريجية للنظم البرجوازية يؤدي في الواقع الى تضليل الجماهير الكادحة، ويقضي في نفوسهم على الايمان الآفاق الثورية، ويخلد الاستثمار. اما الديالكتيك المادي الذي يثبت النسبة والعلاقة الفعلية بين الاصلاح والثورة، فانه يبين البطلان النظري والضرر السياسي الملازمين سواء للاصلاحية والتحريفية ام للفوضوية والمغامرة « اليسارية ».

ان الماركسية ـ اللينينية براء، من حيث جوهرها، من كل مغامرة وفوضوية. فان « الانفجارات الثورية » الاصطناعية، اذا لم تتوفر لها الظروف والشروط الضرورية، اذا لم يهيء لها العمل السابق، الضروري، لا يمكنها الا ان تؤدي الى الهزيمة وان تلحق ضررا كبيرا بالنضال الثوري. ان المغامرين « اليساريين » في الحركة العمالية ينكرون العمل الدائب الدقيق اليومي الذي

يقوم به الحزب بين الجماهير، ينكرون ضرورة اعداد الثورة مع حسبان الحساب لجميع العوامل الموضوعية والذاتية، ينكرون ضرورة التحليل الشامل لظروف النضال الفعلية في كل بلد، في كل حقبة معنية، للتغيرات الكمية والكيفية في المجتمع، متسترين بالجمل الثورية المدوية.

ان تطبيق قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية تطبيقا ملموسا يبين كيف وباية اشكال يستعاض عن الكيفية القديمة بكيفية جديدة، كيف تجري عملية التطور. ان الحاجة وحدة هذه القضية تشتدان على الاخص بالارتباط مع تصاعد العملية الثورية العالمية، وانخراط جملة كاملة من البلدان الجديدة في طريق التحويلات الاجتماعية الجديدة. ففي كل منها تناقضات خاصة متميزة، تحدد مصادر القفزات الثورية ومضمونها وشكلها. وهذه القفزات طرائق عملية مناسبة لاجل القيام بها، طرائق تصوغها الاحزاب الثورية في ظروف نضالها الملموسة.

ان الميل الاشتراكي في العهد المعاصر، بوصفه كيفية اجتماعية جديدة، يشق لنفسه طريقا في مجمل الحركات الديموقراطية الواسعة، ويتحقق من خلال الثورات المعادية للامبريالية والثورات المعادية للاحتكارات، والثورات الاشتراكية عن طريق جملة من القفزات الثورية. لو هذا كان التحليل العلمي للتغيرات الاجتماعية الكمية والكيفية، ولتحول بعضها الى بعض شرطا ضروريا لكي يرسم الشيوعيون خطا صحيحا واصوب طرائق النضال في كل من مراحل تطور الثورة. ان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية والعكس بالعكس يكشف الضرورة التاريخية للانتقالات الثورية من تشكيلة اجتماعية الى اخرى، من المجتمع القديم الى المجتمع الجديد. ولهذا لا يفصح الانتقال الثوري من الرأسمالية الى الاشتراكية عن مجرد رغبة الشيوعيين والشغيلة، بل يفصح عن السنة والضرورة الموضوعية للتطور التاريخي. فان الثورات الاجتماعية انما هي تحولات كيفية قانونية طبيعية في تطور المجتمع، انما

هي عملية طبيعية عادية تاريخيا لحياة وتطور البشرية.

ولكن السبيل الثوري لتطور المجتمع الى الاشتراكية هو في الوقت نفسه ضرورة تاريخية، هو سبيل ينبغي **بالضرورة** ان تمر فيه جميع الشعوب، جميع الدول، فذلك هو قانون التاريخ، ذلك هو الديالكتيك الفعلي الموضوعي للعملية التاريخية الذي ينعكس في القانون العلمي للديالكتيك الماركسي - قانون تحول الكمية الى كيفية. وهذا ما يحتم أهم عامل في نشاط الاحزاب الشيوعية والعمالية: ينبغي لهذه الاحزاب ان تكون احزابا ثورية، احزاب **الثورة الاجتماعية**، لا احزاب الاصلاحات الاجتماعية. «التحويلات» التدريجية للمجتمع الاستثماري الى مجتمع اشتراكي.

وعليه يتحدد الخط الستراتيجي العام للحركة الشيوعية العالمية وسائر القوى الثورية المعاصرة بالفهم العلمي لديالكتيك الانتقال الثوري من المجتمع القديم الى المجتمع الجديد، لديالكتيك تحويل الواقع تحويلا ثوريا.

قانون نفي النفي

ان دراسة قانون وحدة ونضال الاضداد وقانون تحول الكمية الى كيفية والعكس بالعكس تبين فيما يقوم المصدر الداخلي لتطور العالم المادي والتفكير كما تبين اشكال تحول الحالة الكيفية القديمة الى حالة كيفية جديدة. ولكن الصلة بين التشكيلات المادية القديمة والجديدة او بين حالاتها الكيفية، واتجاه التطور ليسا اقل اهمية لاجل النشاط العرفاني والعملي. فان قانون نفي النفي هو احد القوانين الاساسية في الديالكتيك، قانون يكشف الميل الرئيسي والعلاقة بين القديم والجديد في تطور العالم الطبيعي والاجتماعي.

النفي الديالكتيكي بوصفه عامل الصلة والتطور. عند دراسة نواة الديالكتيك، ثبت لنا ان نضال الاضداد في طور حل التناقضات يولد

مواضيع وظاهرات جديدة كيفيا. وهذه المواضيع والظاهرات الجديدة، المتميزة عن القديمة، تبرز بالتالي نفيا لها. والتطور يجري من خلال زوال بعض الصلات او الحالات او المواضيع ذاتها ونشوء صلات وحالات ومواضيع اخرى، جديدة. ومن هنا ينجم أن النفي الديالكتيكي هو نتاج نضال الاضداد. وهو ينبع موضوعيا من وجود ميول في التطور متناقضة ينفي بعضها بعضا.

وينطوي الواقع الفعلي بالذات، اي جميع العمليات والظاهرات، على عامل النفي بوصفه علاقة الكيفية الجديدة بالكيفية القديمة. قال ماركس: « ان كل تطور يمكن تصوره، بصرف النظر عن مضمونه، كجملة من درجات تطور مختلفة مترابطة بعضها ببعض على نحو بحيث ان احداها هي نفي للاخرى. فاذا انتقل الشعب مثلا، في تطوره من الملكية المطلقة الى الملكية الدستورية، فهو ينفي وجوده السياسي السابق. فلا يمكن في اي ميدان كان ان يجري تطور لا ينفي اشكال وجوده السابقة »*.

ان النفي الديالكتيكي لا يعني القضاء البسيط على الموضوع او الظاهرة، بل بالعكس: فهو يبرز بوصفه صلة قانونية بين المرحلة السابقة والمرحلة اللاحقة من التطور. وقد اشار انجلس الى ان النفي في الديالكتيك لا يعني مجرد قول « كلا » او القول ان الشيء غير موجود. ان النفي الديالكتيكي يتميز بكونه لا يفترض القضاء المطلق على القديم، بل يفترض الحفاظ مع ذلك على بعض من جوانبه. فان النفي الديالكتيكي يبقى في العمليات والمواضيع كل ايجابي وقابل للحياة، ويحتفظ بالتالي بالمقدمات للحركة اللاحقة الى الامام وبامكانية نفي جديد.

* ماركس. « النقد الواعظ والوعظ الناقد ». ماركس وانجلس. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ٤، ص ٢٩٦ - ٢٩٧.

ان عامل الصلة بين الجديد وبين كل قيّم وايجابي في المراحل السابقة هو **الاستمرارية في التطور**. ان الاستمرارية هي قانون هام جدا من قوانين التطور ويتسم بطابع عام وواسع جدا. فان تطور العضويات الحية التقدمي، مثلا، يبين استمرارية الصلة بين الانواع البيولوجية. ان المراحل السابقة من التطور لا تزول بلا اثر، بل تترك هذا الخاتم او ذاك على كل عضوية. وكل شكل عضوي يكرر بمقدار معين، في التشكيلات الاستمارية. فان احتياطي المعارف التي اكتسبتها البشرية في المراحل التاريخية السابقة، والنتائج التقدمية لتطور الثقافة الروحية وسائر جوانب الظاهرات الاجتماعية المختلفة تصبح هي ايضا في ظل الاشتراكية ملكا لجميع الشغيلة، في منال جميع الشغيلة. فان للجماهير الشعبية في ظل الاشتراكية مصلحة في صيانة واكثار كل ايجابي كدسته البشرية. ولهذا كانت باطلة موضوعيا في البلدان الاشتراكية، مثلا، النظرات القومية المتطرفة والعدمية التي تنكر الثقافة المادية والروحية الامية تحت ستار « الثورة الثقافية ».

ان الموقف العدمي من التراث الثقافي والعلمي ينبذ جانبا كل قيّم وحقيقي بشكل عامل المعرفة العلمي الانساني العام. فلا يمكن الموافقة، مثلا، على زعم الشخصية الاجتماعية والفيلسوف المكسيكي لومباردو توليدانو القائل « ان الافتراض بالافكار والقواعد والمفاهيم والقوانين الخالدة لاجل الواقع المتغير على الدوام . . . يكون موقفا منطقيا غير مقبول »*.

ان هذه الموضوعة النسبية الغامضة تدفع صاحبها عمليا الى انكار الحقيقة الموضوعية والقوانين الموضوعية العلمية، والمنجزات الثقافية الرفيعة. وهو، مثلا، ينكر بصورة عدمية قوانين الديالكتيك العامة التي اكتشفها الناس وعرفوها والتي هي خالدة بقدر خلود الحركة والتطور.

* ماركس وانجلس. ضد دوهرينغ. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ٢٠، ص ١٤٦

ان الاحزاب الماركسية تقف في ممارستها الثورية ضد الفهم الميتافيزيائي والعدمي للنفي في عمليات التطور. ان الفوضويين وكذلك الثورويين المتطرفين البرجوازيين الصغار المعاصرين، خلافا منهم للماركسية، ينكرون قطعا كل دولة، كل جهاز للادارة، كل تنظيم، وذلك بحجة الدفاع عن «حرية» الفرد «المطلقة». ومن هذه المواقع يبرز المتطرفون اليساريون اخصاما للنظرية الماركسية ـ اللينينية وديكتاتورية البروليتاريا، اذ ينكرون كل سلطة سياسية، وكل تنظيم لنضال الطبقة العاملة السياسي.

والى هذا الاستنتاج يخلص كذلك عمليا المحرفون المعاصرون الذين يزعمون ان ديكتاتورية البروليتاريا في البلدان الاشتراكية تعني نفي الديمقراطية والقضاء عليها. اما في الواقع، فان ديكتاتورية البروليتاريا لا تعني نفي ديمقراطية الاقلية القديمة (لا كل ديموقراطية، بل الديموقراطية البرجوازية على وجه الضبط) وحسب، بل تعني كذلك اقامة وتوطيد ديموقراطية جديدة، بروليتارية، اشتراكية، هي ديموقراطية الاغلبية الساحقة من اعضاء المجتمع.

ان النفي الدياليكتيكي، اذ يشمل عاملي الصلة والتطور، يتحدد دائما بالظروف الملموسة والطبيعة الخاصة للعملية المعنية. وفي هذا الصدد كتب انجلس يقول: «لكل نوع من المواضيع، كما لكل نوع من التصورات والمفاهيم، يوجد بالتالي نوع خاص به النفي، يوجد على وجه الضبط نفي يحصل في ظله التطور».

ومن الواضح ان موضوعة الدياليكتيك المادي القائلة بحتمية النفي الدياليكتيكي الموضوعية لا تطيب للفلاسفة البرجوازيين. فهم يفضلون الاعتراف بالنفي في ميدان المعرفة البشرية فقط. فان التومى الجديد اوغيرمان يعرض في كتابه «الدياليكتيك المادي» حجة تقول ان «الاعتراف بالنفي في علم وجود الكائنات (انطولوفيا) يقتضي الاعتراف بالمصادر الداخلية للمادة ذاتها»، وتؤدى بالتالي الى نفي الله بوصفه مصدرا للحركة العامة. ففي اساس

منطق التوميين الجدد تقوم الحجة القائلة ان مبدأ النفي يناقض مبدأ التطور. اما اساس هذه الحجة، فقوامه الزعم ان تطور «الواقع» مقرر سلفا من قبل الرب الذي هو مبدأ ايجابي اطلاقا. وهذا يعني انه يستحيل تطبيق مبدأ النفي على الرب وخلائقه، لان هذا المبدأ ملازم فقط للفرد، للانسان، المنغمس في الخطايا.

ان بطلان مثل هذه الحجج اللاهوتية الصرف واضح: فان القول العقائدي الجامد بالله بوصفه مبدأ ايجابيا يؤدي الى استبعاد كل نفي فعلي في العالم المحيط. ولكن التطور الفعلي للعالم المادي والروحي يبرهن على الدوام التعاقب المتواصل لنفي القديم من قبل الجديد في جميع العمليات والظاهرات ـ سواء في الطبيعة والمجتمع ام في التفكير والمعرفة.

ومع الاشارة الى عامل الصلة والاستمرارية بين القديم والجديد، ينبغي ان لا يغيب عن البال ان القديم المتبقى في الجديد في بعض العمليات الملموسة ليس بالنسبة للجديد ايجابيا وضروريا. فان الجديد الذي يشق لنفسه طريقا قد تكبحه وتعرقله عناصر القديم المتبقى. مثلا. ان رواسب العلاقات الاقتصادية القديمة (الاقطاعية والبطريركية) تبدى مقاومة جدية في وجه تطور الرأسمالية في بعض البلدان ولاسيما منها التابعة للاحتكارات العالمية. ان مقاومة القوى القديمة ترتدي شكلا بارزا جليا في مراحل القفزات الثورية في التطور الاجتماعي، وخاصة في سياق الثورات الاشتراكية. ان رواسب القديم السلبية، رواسب الرأسمالية في وعي وسلوك بعض الكادحين في المجتمع الاشتراكي تؤثر تأثيراً كابحاً، معرقلاً في تقدم الاشتراكية. وهذا العامل هو احد اسباب العناية الدائبة التي تبديها الاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية فيما يتعلق بتربية الشغيلة بروح الشيوعية، بالنضال ضد تغلغل الايديولوجية البرجوازية، بالنضال من اجل نقاوة المذهب الماركسي ـ اللينيني وتطوره الخلاق.

ومن جهة اخرى، يمكن لنفي العوامل التقدمية في المراحل السابقة من التطور الاجتماعي ان يؤدي عمليا الى انطواء ضيق، انعزالي، الى الانعزال عن الجماهير الشعبية. ففي ذاكرة الشعب، في معيشته وتقاليده، تبقى، مثلا، حقبة طويلة، صور من النضال البطولي من اجل التحرر الوطني والاجتماعي. وان الاحزاب الشيوعية، اذ تتصور بوضوح المحدودية التاريخية لحركات التحرر الوطني الماضية، انما ينبغي عليها في الوقت نفسه ان تربى على امثلتها وصورها الاجيال الجديدة من المناضلين في جميع القارات. ان اسماء الديموقراطيين الثوريين البارزين وابطال النضال التحريري ضد الامبريالية في آسيا وافريقيا قد دخلت عن حق وصواب في التاريخ واصبحت موضع اعتزاز الشعوب. وفي بلدان اميركا اللاتينية، تحظى بواسع الشهرة التقاليد الثورية للنضال التحرري بقيادة سيمون بوليفار والمناضل العظيم ضد الاضطهاد الامبريالي خوسه مارتي. ان منطق النضال التحرري يقرب الديموقراطيين الثوريين المنسجمين المعاصرين من الاشتراكية العلمية. ولهذا يجب على الشيوعيين، مع اعتمادهم على التقاليد الماضية للحركات التحررية، ان يعتمدوا كذلك على الديموقراطية الثورية المعاصرة، المعادية من حيث جوهرها للامبريالية، ولاسيما في البلدان التي ظفرت بالاستقلال السياسي. فان كل مرحلة جديدة في الحركات الثورية التقدمية، مع انها نفي معين للمرحلة السابقة، تواصل في الوقت نفسه خيرة تقاليد نضال الاجيال السابقة والمراحل السابقة من حركة التحرر. ان النفي الديالكتيكي يتسم هنا ايضا بمعنى تاريخي فعلي.

ان عملية التطور المتواصل هي عملية نشوء الجديد وازدهاره وزواله، هي نشوء العناصر الجديدة اللاحقة في الحركة، والخ...، الى ما لا نهاية له. وفي هذه الحركة الفعلية، تشكل كل مرحلة نفيا للمرحلة السابقة، وكل مرحلة معينة تحصل كذلك في الوقت نفسه على نفي في تطورها اللاحق. **نفي النفي**. ان التطور الديالكتيكي لا يقتصر على النفي الاحادي، بل

يبرز دائما بوصفه جملة من عمليات النفي المتبادلة والمترابطة. وحتمية هذه السلسلة من عمليات النفي التي يحل بعضها محل بعض انما يعبر عنها **قانون نفي النفي**.

وفي معرض الكلام عن اهمية هذا القانون، قال انجلس انه « قانون عام جدا ولهذا السبب بالذات واسع الفعالية وهام من قوانين تطور الطبيعة والتاريخ والفكر... قانون... يتجلى في مملكة الحيوان ومملكة النبات، في الجيولوجيا والرياضيات والتاريخ والفلسفة... »*.

ان اهم عنصر في فهم قانون نفي النفي هو واقع ان كل مرحلة جديدة من مراحل التطور تكون اعلى من سابقتها. ومن هنا ينجم ان هذا القانون ليس قانون اي حركة كانت، بل قانون التطور التقدمي، التطور من البسيط الى المعقد، من الادنى الى الاعلى، حسب خط صاعد. وفي عمليات الصعود من الادنى الى الاعلى، يوجد دائما تكرار معين لما تم تجاوزه، ولكنه ليس تكرارا بسيطا، بل تكرار في مرحلة جديدة، اعلى من سابقتها. وقد قال لينين في معرض وصفه لقانون نفي النفي: « ... تطور يبدو كأنه يستنسخ مراحل مقطوعة سابقا ولكن على نحو آخر وعلى قاعدة ارفع... »*.

ان النفي الثاني ليس عودة بسيطة الى القديم، فهو لا يكرر غير بعض سماته العامة بشكل معدل، مؤكدا التطور الجديد كيفيا، والاغنى مضمونا والارفع شكلا.

ان الحركة التاريخية لاشكال الملكية هي مثال جلي على فعل قانون نفي

---

* انجلس. ضد دوهرينغ. ماركس وانجلس. المؤلفات، الطبعة الروسية، المجلد ٢٠ ص ١٤٥.

* لينين. ماركس - انجلس - الماركسية. دار التقدم، موسكو، ١٩٧٢، ص ١٨ (ماركس).

النفي. فان تطور القوى المنتجة، وتغير مستواها وطابعها قد حتما في حينه مصير شكل الملكية المشاعية السائدة. وقد كانت الملكية الخاصة اول نفي لها في ظروف المجتمع الطبقي، وهذه الملكية الخاصة سادت في التشكيلات التناحرية. ولنلاحظ ان اول نفي للملكية من حيث الشكل لم يؤد البتة الى القضاء على القوى المنتجة اي على مضمون الملكية.

ثم ان الملكية الخاصة السائدة في التشكيلات التناحرية تؤدي حتما بدورها، بفضل تقدم القوى المنتجة بلا توقف، الى نفي ثان، الى ظهور الملكية الاجتماعية الاشتراكية. ولكن سيادة الملكية الاجتماعية مع انتصار الاشتراكية لا تعني مجرد القضاء على شكل الملكية الخاص. فان الملكية الاجتماعية الاشتراكية تبرز كتركيب ديالكتيكي للتطور السابق، وهي تبقى بصورة معدلة العنصر الايجابي في نقطة الانطلاق: اولا، الطابع الاجتماعي الملازم للملكية المشاعية، وكذلك عناصر تقدمية معينة من مرحلة التطور السابقة - تنظيم وادارة الانتاج، وطابعه الاجتماعي. ومن هنا ينجم ان العودة الظاهرية الى القديم هي بالفعل تذليل له، تجاوز له، وظهور لجديد كيفيا هو في الوقت نفسه نقطة انطلاق لاجل عملية التطور اللاحقة.

اشكال تجلي قانون نفي النفي. ان التطور الدياليكتيكي يتصف بسمات كالاستمرارية، والارتقاء، والتصاعد، والتكرار. وهذه السمات تحتم تجلي قانون نفي النفي بشكل حلزوني.

ان الشكل الحلزوني يشمل بصورة موفقة السمات والاتجاهات الاساسية في التطور الدياليكتيكي. فان التفافات الحلزونة تربط مختلف درجات التطور (الاستمرارية) وتبين العودة الظاهرية الى القديم (التكرار) واتجاه التطور التصاعدي (الارتقاء). والشكل الحلزوني لا يلازم العمليات الدياليكتيكية الموضوعية وحسب، بل يلازم ايضا حركة المعرفة العلمية. فان المعرفة تبدأ من التصور العام عن موضوع البحث، عن الصفة المادية، ثم تنتقل الى تقسيم

ودراسة اجزائه، الى تحليلها، وبالنتيجة تتعمم وتتركب لمعرفة في فرضيات ونظريات علمية.

ان التحليل العلمي لاشكال تجلى قانون نفي النفي ينطوي ايضا على قضية منهاجية هامة تتعلق بدرجات التطور الدياليكتيكي. فان جوهر عملية التطور ينحصر اجمالا في الحلقة الدياليكتيكية المتكونة من ثلاثة اطوار: نقطة الانطلاق، والنفي الاول (لنقطة الانطلاق)، والنفي الثاني او نفي النفي. ومعلوم ان هيغل هو الذي اكتشف طابع التطور الثلاثي الدرجات، ولكن هيغل حصر في آخر المطاف كل التطور فيما يسمى بالثلاثية Triade. ورغم ان هيغل اكد ان الثلاثية هي الشكل الخارجي لنفي النفي، بنى في الوقت نفسه كل نظامه الفلسفي واقسامه المكونة حسب المبدأ التالي: الموضوعة (الطريحة) - النقيضة - التركيب (الجمعية). وبالنتيجة صارت الثلاثية الهيغلية الرمز التقليدي لحلقة التطور الدياليكتيكية.

خلافا لدياليكتيك هيغل، ينطلق الدياليكتيك المادي من كون الدرجات الثلاث لعملية التطور ليست غير شكل من اشكال تجلى قانون نفي النفي. فان طبيعة هذا الموضع او ذاك، وطابع علاقاته المتبادلة الملموسة وظروفه الملموسة يحددان عدد درجات التطور التي ليست البتة الزاما ثلاث درجات. ومن زمان اصبح من باب التقليد في الفلسفة البرجوازية حصر جوهر طريقة ماركس الدياليكتيكية في ثلاثية هيغل. وقد فضح لينين هذا التزييف البرجوازي في مؤلفه «من هم «اصدقاء الشعب» وكيف يحاربون الاشتراكيين - الديمقوقراطيين؟». واشار الى ان دياليكتيك ماركس هو طريقة علمية في السوسيولوجيا (علم الاجتماع) تعتبر المجتمع عضوية حية في تطور دائم، وينبغي لاجل دراستها استقصاء قوانين عملها وتطورها. وهذه الطريقة تتميز بموقف تاريخي ملموس من جميع ظاهرات، وليس بحصر الواقع بصورة مصطنعة في هذه او تلك المخططات الدياليكتيكية بما فيها الثلاثية. وفي مكان

آخر كتب لينين يقول: « ان المحاكمات في الموضوعة القائلة ان الماركسية ترتبط بالهيغلية بالايمان في الثلاثية، في عقائد جامدة ومخططات مجردة لا يتطلب التثبت بالوقائع . . . هي ثرثرة فارغة.

ان الماركسية ترى معيارها في صياغة النضال الجاري امام عيوننا بين الطبقات الاجتماعية والمصالح الاقتصادية وفي تفسيره نظريا »*.

ومع ذلك، لا يزال مزورو الديالكتيك البرجوازيون يستغلون الثلاثية يتلاعبون بها. وهم يرددون بسرور هذه الحجة المطروقة التي تبدو لهم هامة ولا مردّ لها: « الاشتراكية تولد هي ايضا نقيضتها و. . . ظهور تركيب جديد (نظام اجتماعي جديد) »**. اما في الواقع، فان هذه الحجة واهية باطلة، اولا لانها تحصر التطور الديالكتيكي في الثلاثية الالزامية لانها لا تأخذ بالحسبان خصائص طبيعة الاشتراكية كموضوع اجتماعي.

ففي ظل الاشتراكية، تتجلى، الى جانب القوانين العامة، جملة من خصائص مفعول قانون نفي النفي. وفي عداد هذه الخصائص، يرد في المقام الاول المضمون الاجتماعي الجديد لعملية النفي ذاتها في تطور المجتمع الاشتراكي. فان نفي القديم وتوطيد الجديد في المجتمع الاشتراكي المتطور لا يرافقهما التصادم بين قوى اجتماعية متناحرة، لان التناحرات الاجتماعية والقومية ذاتها قد قضى عليها. وفضلا عن هذا، يحل التأثير الواعي والمنظم من قبل المجتمع في العمليات الموضوعية محل عفوية عملية تجاوز القديم، التي تتميز بها التشكيلات السابقة للاشتراكية. وهذا ما يتيح طرح واداء مهام

---

* لينين. مضمون الشعبية الاقتصادي. المؤلفات الكاملة، الطبعة الخامسة، المجلد الاول، ص ٣٧٤.

** باوولينو اريس سوموسا. المادية التاريخية. سوسيولوجيا الماركسية. دار بوديبا، بوينس ايرس، عام ١٩٧٠، ص ٢١٥.

اجتماعية جديدة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية بقدر تحضير المقدمات المعنية، ويتيح بالتالي تأمين حلول الجديد محل القديم في وقت، مناسب اكثر. واخيرا لا يؤدي حلول الجديد محل القديم في مختلف ميادين احياة الاجتماعية في ظل الاشتراكية الى نفي اسس وجوهر النظام الاجتماعي الجديد. ان النفي في ظل الاشتراكية المتطورة هو لحظة حل لتناقضاتها غير التناحرية، وهو يصون جوهر التشكيلة الشيوعية ويطور ويرقى مضمونها الاجتماعي. وان وحدة طبيعة الاشتراكية والشيوعية بوصفهما طورين معينين من تشكيلة اجتماعية اقتصادية واحدة تحتم استمرارية التطور المتصاعد وتسريع وتائر التقدم الاجتماعي.

وهذا القانون يبين الافضليات التي لا مراء فيها والتي تتفوق بها الاشتراكية على الرأسمالية حيث تتعاقب مراحل النهوض الموقت مع مراحل الهبوط والركود.

وحيث القوانين الموضوعية للرأسمالية تعرقل التقدم الاجتماعي وتشوهه.

ان تزوير الفلاسفة البرجوازيين لقانون نفي النفي يرتبط على الاخص بمسألة التطور التقدمي للمجتمع. فان ايديولوجيي البرجوازية المعاصرة بوصفها طبقة حكم عليها التاريخ بالزوال لا يؤمنون في التقدم الاجتماعي، ويخافونه، ينكرون نظرية التقدم الاجتماعي وينكرون من هذه المواقع القانون الديالكتيكي، نفي النفي. وعوضا عن الاعتراف بالتطور التقدمي للمجتمع، يتقدمون بموضوعية تقول بالتكرارية والحلقية والتقهقر في التطور الاجتماعي. فان اضفاء صفة الاطلاق على التكرارية يقوم، مثلا، في اساس النظرية البرجوازية بشأن الدورات، هذه النظرية التي هي مفهوم ميتافيزيائي نموذجي.

ونظرية كهذه سبق وتقدم بها في فجر الرأسمالية الفيلسوف الايطالي دي فيكو الذي اعتبر تاريخ المجتمع حركة في حلقات مغلقة متكررة (الطفولة، الشباب، الانحدار). ان نظرية الدورات، التي جرى تحديثها في عهد الامبريالية، قد ارتدت طابعا من الجلي انه رجعي. فان احد ايديولوجي

الفاشية الالمانية، اوسفالد شبنغلر في كتابه الذي احدث ضجة في حينه « غروب اوروبا » قد زعم ان لتطور كل مجتمع ثلاث درجات: الولادة والازدهار والانحدار. وقد اعتبر المرحلة الحديثة من تاريخ البشرية غروبا « ينبغي فيه تدمير جميع منجزات الثقافة العصرية ». وبهذه الروح ايضا، يطور المؤرخ الانجليزي ارنولد توينبي فكرة الدورة التاريخية، مصورا كل تاريخ البشرية بصورة حضارات « مغلقة » متعددة تمر كل منها بخمسة اطوار ثم تزول. وبموجب هذا المفهوم، لا يقوم التاريخ اجمالا باي حركة الى الامام.

وقد اكمل السوسيولوجي البريطاني فانسينغتارت وحفيد العالم التطوري العظيم شارلز هالتون داروين نظرية الدورات بالشكل التالي: بترويج حركة المجتمع في خط نازل. وهما يزعمان ان المجتمع يتحرك الى الوراء، الى عهد ناس الكهوف. ويحاول داروين في كتابه « المليون سنة القادمة » ان يصور انحطاط الحياة الاجتماعية في ظل الامبريالية بصورة افق محتم لا مرد له، افق انحطاط البشرية جمعاء. ويتنبأ انصار مثل هذه الآراء الرجعية بهلاك البشرية جمعاء، بانهيار الحضارة العالمية، « بموت » العالم « الكوني ».

وتحت ضغط وقائع التاريخ الفعلي، يضطر قسم آخر من نظريي البرجوازية المعاصرة الى الاعتراف بطابع الحركة الاجتماعية الارتقائي. ومنذ الخمسينيات، اي منذ روج السوسيولوجي الالماني فون فيزه التعبير الحذر والارتيابي « التغيرات الاجتماعية »، اخذوا يستعملون هذا التعبير على نطاق واسع في السوسيولوجيا البرجوازية لوصف التقدم التاريخي. والى جانب المفاهيم السوسيولوجية العديدة في الوقت الحاضر بصدد التغيرات الاجتماعية، تنتشر، بالمعنى نفسه من حيث الجوهر، مفاهيم ما يسمى « المودرنيسم » (العنصرية). وهذه المفاهيم السوسيولوجية البرجوازية تتسم بخاصة مميزة هي القطيعة الميتافيزيائية بين قوانين عمل العضوية الاجتماعية بمجملها او بعض

* * *

ميادين الحياة الاجتماعية وبين قوانين التطور الدياليكتيكي للكل الاجتماعي. ولكن ايديولوجيي الرجعية الامبريالية لا يستطيعون، رغم كل تفننهم ودهائهم وتزويرهم، لا ان يبطلوا، ولا ان يتجنبوا، ولا ان يدحضوا عملية التقدم التاريخي الدياليكتيكية القانونية.

وعليه تبين دراسة قوانين الدياليكتيك المادي الاساسية اهميتها الخارقة سواء في المعرفة العلمية ام في التعليل العلمي، ام في نشاط الناس الثوري التحويلي نفسه. ان قوانين الدياليكتيك الاساسية، اذ تكشف جوهر عمليات التطور ومضمونها، ومصدرها، واشكالها، وقواها المحركة، واتجاهاتها، انما تبين بالتالي الآفاق الفعلية للتقدم الاجتماعي. وتدل على سبيل تحويل الواقع تحويلا ثوريا، ولهذا كانت دراستها دراسة عميقة وتطبيقها بصورة ملموسة خلاقة شرطاً ضرورياً لنشاط الطبقة العاملة والاحزاب الشيوعية العملي الناجح والمثمر. وقد قال نظري وعملي الثورة العظيم فلاديمير ايليتش لينين: « ان القصد من آرائنا النظرية، ان تقودنا في نشاطنا الثوري. وميدان النشاط الكفاحي هو خير مكان للتثبت من صحة آرائنا النظرية. ان التثبت الحقيقي بالنسبة للشيوعي انما هو فهمه كيف واين ومتى يحول ماركسيته الى فعل »*.

* لينين. تسجيل حديث مع وليام بول. المجموعة اللينينية، المجلد ٣٧، ص ٢٤٩.

الفصل الثاني

مقولات المادية الجدلية

ان كل علم ليس عبارة عن نظام من القوانين وحسب، بل عبارة ايضاً عن مقـولات محددة اي اهم المفـاهيم التي تصاغ خلال تطور كل العلم وتشكل اسـاسـه. فهـذه المقـولات في الميكـانيكا مثلا هي الكتلة والطاقة والقوة وفي الاقتصاد السياسي ـ والقيمة والنقود وما اليها. واذا لخصت الفلسفة انجازات العلم ونشاط الناس العلمي فقد كونت نظامها الخاص من المقولات.

والمقـولات الفلسفيـة: مفـاهيم تعكس ما هو عام في الـواقـع من سمات وارتباطات وجوانب وخصائص. ومن هذه المقولات المادة والوعي ـ الحركة ـ والزمان، التناقض والكم والكيف والطفرة والنفي. وهذه درسناها وسندرس في هذا الفصـل مجمـوعـة اخـرى من المقولات هي: الخاص والعام والمضمون والشكل والجوهر والظاهرة، والسبب والنتيجة والضرورة والصدفة والامكانية والواقع.

ان قوانين الجدلية ومقولاتها مترابطة. فالقوانين الاساسية للجدلية الماركسية تمثل من حيث الجوهر الترابط بين المقولات. فقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية مثلا: يعبر عن ترابط معين بين مقولتي الكم والكيف. ومن هنا يستحيل ان نفهم القوانين دون معرفة المقولات. ومن ناحية اخرى فان معرفة القوانين تمكننا من فهم جوهر مقولات الجدلية. فقانون وحدة وصراع الاضداد يمكننا من كشف المعنى الحقيقي لمقولات التناقض مثل المضمون والشكل والضرورة والصدفة.. الخ.

١ ـ اصل مقولات الجدلية وسماتها المشتركة

مقـولات الجـدلية المـاركسية هي نتيجـة وخلاصة لخبرة الناس ونشاطهم العمـلي ومعرفتهم طيلة قرون، ففي مجرى نشاط الانسان العملي واتصالاته بالاشياء والـظواهر في العالم ومعرفته بها افرد ما هو جوهري وعام فيها وثبتت

نتائج هذا الافراد في مقولات ومفاهيم. فالمقولات هي نتاج لنشاط الانسان العملي والعرفاني، وهي درجات في معرفة الانسان للعالم المحيط به. يقول لينين: (ان الانسان يواجه شبكة من الظواهر الطبيعية، والانسان الغريزي، المتوحش لا يميز نفسه عن الطبيعة، امّا الانسان الواعي فيميز، والمقولات هي درجات هذا التميز، اي درجات معرفة العالم).

والمقولات الجدلية المادية باعتبارها نتاج للممارسة والمعرفة، اهمية كبيرة بالنسبة للنشاط العملي والعرفاني. فبحكم كونها درجات للمعرفة تعين الناس على تفهم شبكة الظواهر المعقدة في الطبيعة والمجتمع، وعلى تبيان ترابط الاشياء وتبعيتها المتبادلة والنظام المحدد لتطورها الكمي يتمكنوا بالاستناد الى ذلك من ان يفعلوا بنجاح في النشاط العملي.

وعندما تكشف الجدلية الماركسية عن جوهر المقولات مصادر نشأتها، تؤكد في المقام الاول **طابعها الموضوعي**. ومصدر المقولات هو الاشياء والظواهر الموجودة خارج الانسان والتي تعكس المقولات سماتها الاكثر عمومية واساسية.

وعلى عكس المادية تنكر المثالية الطابع الموضوعي. فالمقولات عند المثاليين الذاتيين مثلا، لا توجد الا في ذهن الانسان ولا تمت بصلة الى الواقع.

فقد اعتقد الفيلسوف الالماني كانط ان الانسان قبل ان يبدأ في معرفة العالم فان ذهنه يحتوي مقولات السببية والضرورة والصدفة.. الخ.

ويزعم المثاليون الذاتيون المعاصرون والوضعيون الجدد بشكل خاص ان المقولات مفاهيم عامة لا ترتبط الا بالمعاناة الحسية المباشرة للذات ولا تمت بصلة الى العالم الموضوعي.

امّا المثالي الموضوعي هيجل فرغم انه يعترف لفظاً بالطابع الموضوعي للمقولات فقد كان في الواقع يعتبرها درجات، لحظات في تطور الفكرة المطلقة ـ الروح الشاملة.

ان آراء المثاليين بصدد منشأ المقولات باطلة تماما. فالنشاط العملي وتطور

العلم وخبرة الناس الشخصية تبين ان الانسان لم يبتدع المقولات بل اكتشفها في الواقع الموضوعي.

والسمة الهامة الاخرى للمقولات وجهة نظر الجدلية الماركسية هي كونها **مترابطة فيما بينها وقابلة للتغير ومتحركة**. وتعكس سمات المقولات هذه وحدة العالم المادي نفسه والترابط الشامل والتفاعل بين اشيائه وظواهره وتطورها. والترابط بين المقولات وثيق الى حد انها يمكن في ظروف معينة ان تتحول من الواحدة الى الاخرى.

فالمقولات ليست مترابطة فقط بل هي قابلة للتغير ومتحركة. وهي اذ تعكس العالم المادي الذي يتطور على الدوام تتغير هي نفسها.

ويشوه مختلف الميتافيزيقيين الطبيعية الجدلية للمقولات. فهم عادة يفصلون بعض المقولات عن بعضها ويتجاهلون دور مقولات معينة ويعطون الاطلاق على مقولات اخرى. الامر الذي يؤدى الى تشويه الواقع والى استنتاجات سياسية رجعية احيانا.

٢ ـ الخاص والعام

ما هو الخاص والعام:

لكل شيء عدد من السمات الخاصة التي تلازمه وحده. مثلا لكل انسان تكوينه الخاص وقدراته واهتماماته وميوله وطريقة سيره وحديثه.. الخ ما يميزه عن مئات الملايين من الناس والانسان المعني والشيء او الظاهرة المفردان في العالم المادي هي بالذات **الفردي او الخاص**.

غير انه لا يوجد شيء خاص، فردي بذاته. بدون ارتباط بغيره من الاشياء والظواهر، فالانسان المعني يعيش على الارض حيث يعيش الكثيرون حوله، ولديه الكثير مما هو مشترك معهم اذ انه يرتبط بهم بآلاف الوشائج. فهو ينتمي

لطبقة محددة وامة محددة. ومن هنا فتلازمه سمات قومية وطبقية معينة. امّا فيما يخص التركيب الفسيولوجي التشريحي، والقدرة على الشعور والتفكير والعمل والكلام الخ. فان هذه السمات ملازمة لجميع الناس. وبالمثل فان لكل شيء الى جانب سماته الخاصة الفردية، سمات مشتركة مع غيره من الاشياء.

والعام هو ما يلازم الكثير من الاشياء المفرده الخاصة. ولئن كانت السمات الفردية تميز الشيء المعني عن غيره، فان العام كأنما يقرب بينه وبين الاشياء الاخرى ويجعلها مترابطة فيما بينها ومنتمية الى صنف معين من الاشياء المتجانسة.

جدلية الفردي والعام

ان الفردي والعام يتواجدان في كل شيء في وحدة جدلية. فمن ناحية ينطوي الفردي على العام، فهو كما يقول لينين (لا يوجد الا في الترابط الذي يؤدي الى العام) والمادية الجدلية اذ تراعي الترابط بين الخاص والعام ووجود العام في الخاص تعتقد ان **كل خاص هو عام بشكل او آخر**.

ومن ناحية اخرى فان العام لا يوجد الا في الخاص او من خلال الخاص.

فليس ثمة صنف نبات مثلا خارج النباتات المفردة. فالصنف كشيء عام بالنسبة للفرد لا يشمل كل سمات الكائنات التي تنتمي اليه، بل السمات الجوهرية فقط، المتكررة، ولهذا وصف لينين كل بانه **جانب او جوهري** للخاص.

وليس الخاص والعام مترابطين فحسب، بل هما يتغيران على الدوام. فالحدود بينهما متحركة. ويحدث خلال التطور في ظروف معينة ان ينتقل الواحد منهما الى الآخر.

اهمية مقولتي الخاص والعام بالنسبة للتطبيق

من المهم للغاية في النشاط العلمي والعملي ان نراعي جدلية الفردي والعام، فمعرفة ترابط جدلية الفردي والعام هي وحدها التي تمكننا من التضلع بالعمليات المعقدة المتنوعة للواقع الموضوعي، ومن تبيان قوانين تطوره والاستفادة منها في النشاط العملي بشكل صائب، كما ان معرفة العام وارتباطه بالخاص تشكل اساس التكهنات العلمية وتمكننا لا من اكتشاف السمات الهامة للاشياء والظواهر الا معرفة وتحديد مسارها الرئيسي واتجاه تطورها فحسب، بل تمكننا كذلك من استنتاج وجود اشياء وعمليات فردية اخرى لم تكن معروفة للانسان.

وللمراعاة الدقيقة بين الخاص والعام كبيرة في الحياة الاجتماعية ولاسيما في الوقت الحالي، حيث تحقق البشرية الانتقال العظيم من الرأسمالية الى الشيوعية، فنجاح هذا الانتقال يتوقف الى حد كبير على درجة صواب حل مسألة التناسب بين القوانين العامة للثورة الاشتراكية وبين المميزات القومية في هذا البلد او ذاك.

فالتحريفيون المعاصرون ينكرون القوانين العامة للتطور الاشتراكي ويعطون صفة الاطلاق على الخاص وهو الظروف الوطنية الملموسة في مختلف البلدان. اما الجامدون عقائديا فينكرون ضرورة مراعاة الظروف التاريخية المحددة للثورة، معتقدين ان الثورات في كل مكان وفقاً لبعض النموذج المعد مقدما مرة والى الابد.

ان الماركسية اللينينية اذ تؤكد كون القوانين العامة للانتقال الى الاشتراكية لا غنى عنها، فانها لا تتجاهل بأي حال الخصائص القومية لهذا البلد او ذاك بل بالعكس انها تدعو الى التطبيق الخلاق لهذه القوانين العامة على الظروف التاريخية المحددة. وعن المهام الاولى للاحزاب الماركسية المراعاة الحكيمة

للخصائص القومية الملازمة لكل بلد على حده والعثور وفقاً لذلك على اشكال واساليب تحقيق القوانين العامة للثورة الاشتراكية فيها.

٣ - المضمون والشكل

ما هو المضمون والشكل:

المضمون: هو مجمل العناصر والعمليات التي تشكل الشيء او الظاهرة المعنية. والشكل هو تركيب وتنظيم المضمون. وهو ليس شيئا خارجيا تجاه المضمون، بل هو كامن فيه.

فالدقائق الاولية والعمليات المرتبطة بحركتها تشكل مضمون الذرة. وترتيبها في الذرة يمثل شكلها. اما عمليات الايض والانفعال والانقراض وغيرها من العمليات. وكذلك الاجهزة والانسجة والخلايا التي تجري فيها هذه العملية تكون مضمون الكائن الحي.

اما شكل الكائن الحي فتمثله الطريقة التي تتحقق بها العمليات الحيوية داخله وتركيب اجهزته وانسجته. كذلك المضمون والشكل يلازمان الظواهر الإجتماعية. فان القوى المنتجة تمثل مضمون اسلوب انتاج محدد تاريخيا. اما علاقات الانتاج فتمثل شكل اسلوب الانتاج.

وتنطلق المادية الجدلية من وحدة المضمون والشكل، من كونهما لا ينفصلان، فكلا من الشكل والمضمون كامن في الشيء المعني، ومن هنا لا يمكن فصل الواحد عن الآخر. فلا مضمون بوجه عام وانما يوجد مضمون متشكل اي مضمون له شكل محدد. وبالمثل لا شكل خالص دون اي مضمون. فللشكل دائما مضمون وهو يفترض مسبقا مضمونا محددا يمثل هذا الشكل بنيته أو تنظيمه.

الاهمية الحاسمة للمضمون والدور النشيط للشكل

المضمون شديد النشاط. وهو بفضل تناقضاته الداخلية يتطور ويتحرك باستمرار. ثم بتغير المضمون يتغير الشكل ايضا. **فالمضمون يحدد الشكل.** فلنتتبع على سبيل المثال تطور الانتاج الاجتماعي ان تطوره يبدأ دائما بالمضمون اي بالقوى المنتجة. ففي سعي الناس لانتاج قدر ممكن من الخيرات المادية يقومون دوما بتحسين ادوات الانتاج ويزيدون مهاراتهم. ويؤدي هذا حتمًا الى تغير في شكل الانتاج الاجتماعي - في علاقات الانتاج.

ولكن رغم ان الشكل وليد المضمون الا انه لا يظل سلبياً حيال مضمونه، بل يؤثر بصورة فعّالة على المضمون فيسهل او يعيق تطوره. فالشكل الجديد الذي يتفق مع مضمونه يسهم في تطور هذا المضمون اما الشكل القديم الذي لم يعد يتفق مع مضمونه فانه يعيق تطور هذا الاخير.

من هنا لا يجوز استصغار دور الشكل واهميته في التطور. ونحن نعلم من تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي ان الانتهازيين سعيا منهم لمنع تأسيس حزب ثوري جديد الطراز انكروا دور الاشكال التنظيمية للحزب زاعمين ان الشكل سلبي ساكن ولا يؤثر في مضمون النضال الثوري اطلاقا.

وقد هزم لينين الانتهازيين واوضح الاهمية الكبيرة للاشكال التنظيمية في كل نشاط الحزب. وصاغ لينين في كتابه «خطوة الى الامام خطوتان الى الوراء» المبادىء التنظيمية التي طبقها الحزب الجديد الطراز الذي اسسه. فان الشكل التنظيمي الجديد للحزب الشيوعي، ذلك الشكل المبني على مبدأ المركزية الديمقراطية قد مكن من ان يحقق بنجاح قيادة النضال الثوري للبروليتاريا وتوجيه البناء الاشتراكي ومن ان يقود الآن بنجاح ايضا بناء الشيوعية.

ان نفس المضمون، تبعاً للظروف يمكن ان يتطور في **اشكال مختلفة**. فالحركة الشيوعية العالمية تعرف من خبرتها أشكال متعددة من دكتاتورية البروليتاريا التي تشكل مضمون فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية.

التناقض بين الشكل والمضمون

وبغية تكوين فكرة اكمل عن العلاقة بين الشكل والمضمون من المهم ادراك الطابع المتناقض لهذه العلاقة. لقد سبق واوضحنا ان الشكل اكثر ثباتاً واقل تحركاً من المضمون، ويصبح قديما ويدخل في تناقض معه. وعادة ما ينتهي التناقض بين الشكل القديم والمضمون الجديد الى طرح الشكل القديم والاستعاضة عنه بشكل جديد، الامر الذي يكسب المضمون مجالا رحباً من اجل التطور اللاحق.

ففي مجرى تطور الانتاج الاجتماعي يتناقض المضمون الجديد (القوى المنتجة) مع الشكل القديم (علاقات الانتاج) ويحل هذا التناقض بازالة علاقات الانتاج البائدة واحلال علاقات اخرى محلها الامر الذي يكفل تطور القوى المنتجة لاحقا. والتناقض بين مضمون الانتاج وشكله في المجتمع الرأسمالي هو تناقض تناحري، ومن هنا تنشأ ضرورة الثورة الاشتراكية المدعوة للاستعاضة عن الشكل القديم الرأسمالي للانتاج بشكل جديد اشتراكي.

٤ ـ الجوهر والظاهرة

ما هو الجوهر والظاهرة:

مفهوم الجوهر قريب من مفهوم المضمون ولكنه لا يتطابق معه. ولئن كان المضمون مجمل جميع العناصر والعمليات التي تشكل الشيء المعني

فان الجوهر هو الجانب الرئيسي الداخلي الثابت نسبياً من الشيء. ويحدد الجوهر طبيعة الشيء، وتنبع منه كل جوانبه الاخرى وسماته.

ان سيطرة الاحتكارات التي حلت محل المزاحمة هي جوهر الامبريالية. ومن سيطرة الاحتكارات تنبع كل السمات الاخرى للامبريالية.

فما هي الظاهرة؟ ان الظاهرة هي التعبير الخارجي المباشر عن الجوهر وشكل تجليه.

ان جوهر الامبريالية يتجلى في شنها الحروب العدوانية (العالمية والمحلية) وفي سياق التسلح وفي الازمة العامة للرأسمالية التي تتفاقم باطراد وفي تشديد استغلال الجماهير الكادحة وفي ازدياد البطالة . . . الخ.

جدلية الجوهر والظاهرة

ان المادية الجدلية اذ تعمم منجزات العلم والنشاط العملي تؤكد على وحدة الجوهر والظاهرة. فالجوهر والظاهرة مترابطان لا ينفصلان. كتب لينين يقول ان الجوهر **يظهر** والظاهرة جوهرية والظاهرة هي الجوهر عينه ولكنه مأخوذ من جانب تجليه في الواقع المباشر. فالجانب الخارجي السطحي من الواقع ومختلف الخصائص والسمات والجوانب من الاشياء انما تشكل الظاهرة هو نفس الظواهر نفس السمات والجوانب المتنوعة ولكنه مأخوذة في شكلها الاكثر ثباتا وعمقا وعمومية.

ويتجلى الجوهر من كل بد في كل ظاهرة، ولكنه يتجلى ليس بكليته بل جزئيا، فالظاهرة لا تستنفذ الجوهر، وانما تعرضه من جانب **واحد فقط**. كما انه ليس ثمة جوهر (خالص) اي جوهر لا يتجلى في شيء. فكل جوهر يعبر عن ذاته في عدد كبير من الظواهر.

وليس الجوهر والظاهرة وحدة فحسب، لكنهما ايضا ضدان لا يتوافقان كليا

ابـدا. والتنـاقض بينهما هو مظهر لكون اشياء الواقع ذاتها متناقضة داخليا.

فالجوهر غير مرئي على السطح، بل هو مخفي وغير قابل للمراقبة المباشرة. ولا يمكن كشفه الا في مجرى الدراسة الشاملة المطلوبة للشيء. قال ماركس انه لو كان شكل تجلي الشيء وجوهره يتوافقان مباشرة لغدا كل علم امرا نافلا. فمهمة العلم . هي بالذات كشف الجوهر.

اهمية مقولتي الجوهر والظاهرة

ان معرفة جدلية الجوهر والظاهرة بالغة الاهمية في الحياة الاجتماعية والعلم والنشاط العملي. فهذه المعرفة تعطي العلماء ثقة في انه مهما كان تعقد عملية معرفة الظواهر التي يدرسونها ومهما كان عمق اختفاء الجوهر خلف هذه الظواهر فان هذا الجوهر سيعرف في آخر المطاف.

وان معرفة الجوهر ضرورية بخاصته لان الظاهرة غالبا ما تعطى فكرة زائفة عن طبيعة عملية ما. فيبدو لنا مثلا ان الشمس تدور حول الارض، في حين اننا نعرف ان الارض في الواقع هي التي تدور حول الشمس وقد يبدو انه ثمة ديمقراطية واسعة في العالم الامبريالي: ففيه يعلن عن الحق الانتخابي العام وحرية الكلام والصحافة وحرية تكوين الاحزاب الخ. لكن الواقع ان الديمقراطية في ظل الامبريالية ليست سوى خدعة فهي ديمقراطية محدودة، ديمقراطية للاغنياء وحدهم.

لذلك فان المعرفة القائمة على الظاهري فقط، على مظاهر الجوهر، عاجزة عن ان تقدم صورة صحيحة للعالم ولا يمكن ان تكون مرشداً للعمل، ويؤدي العجز عن تميز الظاهرة عن الجوهر الى نتائج خطيرة في النظرية والممارسة.

٥ ـ السبب والنتيجة

ما هو السبب والنتيجة:

نلاحظ في العالم الموضوعي التفاعل الدائم بين الظواهر، وكنتيجة لهذا التفاعل تولد بعض الظواهر بعضها الآخر، وتلك بدورها تولد ظواهر اخرى، وهكذا دواليك، فالاحتكاك يولد الحرارة، وحركة التحرر الوطني الجبارة للشعوب المضطهدة تسبب تفسخ النظام الاستعماري للامبريالية.

والظاهرة او مجموعة الظواهر المتفاعلة التي تسبق ظواهر اخرى وتولدها تسمى السبب. اما الظاهرة التي يولدها فعل السبب فتسمى **النتيجة**. والسبب يسبق النتيجة دائما، لكن التتابع الزمني ليس علامة كافية للسبب، فالنهار مثلا يتلو الليل ليس سبب النهار. ويتم تتابع الليل والنهار نتيجة دوران الارض حول محورها. فالعلاقة السببية بين ظاهرتين توجد فقط حين لا تسبق احداهما الاخرى فحسب بل تولدها بالضرورة.

ولا يجوز الخلط بين السبب والدافع. **فالدافع** حدث يسبق مباشرة، لكنه ليس بحد ذاته سببا لها وانما يحفز مفعل السبب.

فالمساعدة المشروعة التي قدمها الاتحاد السوفييتي وكوبا لحليفيهما الطبيعين شعبي انغولا واثيوبيا بناء على طلب حكومتيهما لصد العدوان الخارجي قد اصبحت دافعا لتشديد العمليات العدوانية لبلدان الناتو في القارة الافريقية. فتحت راية انقاذ هذه القارة من « الخطر السوفييتي ـ الكوبي » شنت الامبريالية » حملة صليبية على افريقيا المستقلة.

والسبب الحقيقي لهذه الحملة هو سعي الامبريالية الى وقف وارجاع الحركة المتصاعدة في سبيل التحرر الوطني والاجتماعي في القارة الافريقية وبعث السيطرة الكاملة على مصادر الخامات المعدنية الغنية جداً وعلى موارد الايدي العاملة البخسة بغية استغلالها بضراوة وابتزاز الارباح الفاحشة.

ويجب كذلك التفريق بين السبب وبين **الظروف** التي يفعل فيها. فالعمل المنتج هو سبب كل ثروة اجتماعية. لكي يدر العمل بثروة لابد من توفر موضوع العمل وادوات اللعمل التي تجري معالجة هذا الموضوع بواسطتها. ولا يستطيع موضوع العمل ولا ادوات العمل بذاتها ان تخلق الثروة لكنها شرط ضروري لعمل الانسان.

ان للسببية في العالم المادي طابع شامل، فلا يمكن ان توجد ولا توجد ثمة ظواهر دون سبب، لأن لكل شيء سببه، وكما يقول المثل الشعبي الحكيم «لا دخان بغير نار» وللسببية طابع موضوعي، لم يدخلها الى الواقع عقل الانسان او قوة غيبية خارقة، فالسببية تلازم الواقع، ويكتشفها الانسان في سياق المعرفة والنشاط العملي.

ان المادية الجدلية تعارض الفصل الميتافيزيقي بين السبب والنتيجة، اذ تؤكد انطلاقاً من انجازات العلم والممارسة ان السبب والنتيجة مترابطان **ترابطاً لا ينفصم**. فلا نتيجة دون سبب والعكس بالعكس. وللترابط بين السبب والنتيجة طابع داخلي حتمي، وهو ترابط تتمتع في ظله النتيجة من السبب وتكون نتاجاً لفعله. غير ان النتيجة بعد ان يولدها السبب لا تظل غير مبالية بسببها بل تمارس تأثيراً عكسياً عليه.

وهكذا فان العلاقات الاقتصادية بين الناس في مجرى الانتاج هي مصدر الافكار السياسية والفلسفية وغيرها من الافكار، لكن هذه الافكار بدورها تؤثر على تطوير العلاقات الاقتصادية.

ويتجلى الترابط بين السبب والنتيجة في ان ظاهرة عينها يمكن ان تكون سبباً في حالة ما و نتيجة في حالة أخرى.

الاهمية العلمية والعملية للسببية

ان لمعرفة الترابط السببي بين الظواهر اهمية في النشاط العلمي التطبيقي.

واذ يستطيع الانسان باكتشاف اسباب الظواهر المفيدة ان يحفز مفعولها فانه بذلك يسرع بحدوث الظواهر والعمليات المفيدة الضرورية، كما ان معرفة اسباب الظواهر الضارة تمكن الانسان من ازاحة هذه الاسباب او تضييق مجال فعلها، وبالتالي درء نتائج غير مرغوب فيها.

وان لكشف الاسباب الرئيسية للظاهرة المعنية اهمية كبيرة خاصة في النشاط العملي فان العثور على الاسباب الرئيسية يمكن من تفهم اصل جوهر هذه الظاهرة او تلك ومكانها بين الظواهر الاخرى وادراك قوانينها.

والسبب **الرئيسي** هو ذلك السبب الذي بدونه لا يمكن ان تنشأ الظاهرة المعنية، وهو يحدد السمات الاساسية للظاهرة. والمقدرة على كشف الاسباب الحاسمة الاخرى التي لا تحصى يمكن الحزب من العثور في الواقع على **الحلقة الرئيسية** الخاصة في سلسلة الاحداث التي تتيح حل جميع المهمات التي تواجه الحزب والشعب في هذه المرحلة او تلك. وبين لينين ان فن السياسي يتلخص في اكتشاف الحلقة الرئيسية في سلسلة الظواهر الاجتماعية والامساك بها بقوة وبالتالي تأمين نجاح القضية **بالكامل**.

ان السببية هي اهم الصلات واكثرها شمولا، لكنها لا تستنفد كل تنوع الصلات القائمة في الواقع. فانها ليست سوى جزء من الترابط العالمي كما اشار لينين. فصلات الضرورة والصدفة بدورها بالغة الاهمية في شبكة الصلات السببية في العالم.

٦ ـ الضرورة والصدفة

هل يجب ان تقع جميع الاحداث من كل بد في الظروف المعنية؟ وهل يجب ان تجري جميعا في تلك الظروف بهذا النحو بالذات وليس بنحو آخر؟

اننا جميعا نعرف جيداً انه اذا زرعت بذرة فستنبت اذا ما توفرت الرطوبة

والحرارة، لكن النبتة الصغيرة قد تهلك نتيجة لهطول الامطار الغزيرة، فهل يجب ان يقع هذان الحدثان من كل بد؟

ليس الحدثان معاً واجبي الوقوع. فخبرتنا اليومية على ان استنبات البذرة في ظروف معينة، اي عند توافر الحرارة والرطوبة الملائمتين، ضروري. فتلك هي طبيعة النبات ذاتها. لكن هطول الامطار الغزيرة شيء قد يحدث اولا يحدث، وهو قد يدمر النبات او يلحق الضرر به فقط. وهو لا ينبع اطلاقاً من طبيعة النبات، فهو ليس ضرورياً البتة في الظروف المعنية.

والظاهرة او الحدث الذي يقع من كل بد اذا توفرت ظروف معينة يسمى ضرورة. وتنبع الضرورة من جوهر الظاهرة الجاري تطورها، من طبيعتها الداخلية. وهي دائمية وثابتة بالنسبة للظاهرة المعنية.

وعلى العكس الضرورة فان **الصدفة** هي ليس ما يحدث من كل بد، فهي قد تحدث في الظروف المعنية وقد لا تحدث، وقد تجرى بهذا النحو او ذاك. فالصدفة لا تنبع من طبيعة الشيء المعني، وهي غير ثابتة ومؤقتة، ولكن الصدفة ليست بلا سبب، وسببها لا يكمن في الشيء ذاته، بل يقع خارجه - في الظروف والملابسات الخارجية.

جدلية الضرورة والصدفة

الضرورة والصدفة مترابطان ترابطاً جدلياً. فالحدث ذاته يمكن ان يكون ضرورياً وصدفياً في نفس الوقت - ضروري من ناحية اخرى. فان الامطار بصفتها صدفة بالنسبة لهلاك النبات هي نتيجة ضرورية للاحوال الجوية في المنطقة التي تهطل فيها.

وعلى عكس الجدليين ينكر الميتافيزقيون الترابط بين الضرورة والصدفة، فبعضهم لا يعترفون بالضرورة وينكرون اية صدفة في التطور ومن وجهة نظر

هؤلاء فان كل شيء حتمي وضروري وعليه فان الانسان عاجز عن فعل اي شيء بشأنه، وانما يجب ان ينتظر مكتوف الايدي حدوث المحتوم ومجرى الاحداث الذي لا مندوحة عنه، كما ان الفلاسفة الآخرين لا يعترفون الا بالصدفة، الامر الذي يعني في الواقع التخلي عن العلم، عن الاعتراف بمقدرة الانسان على التنبؤ بمجرى الاحداث وتوجيهه.

ان الضرورة والصدفة يمكن ان تتحولا الى بعضهما بعضا. فما هو صدفة في ظروف معينة هو ضروري في ظروف مغايرة، والعكس بالعكس، ففي المجتمع البدائي مثلا، كان لتبادل البضائع طابع صدفي، اذ كانت العشيرة تستهلك عادة كل ما تنتجه. ومع ظهور وتطور الملكية الخاصة اتسع تبادل البضائع واصبح في ظل الرأسمالية ضرورة موضوعية.

ولا توجد الضرورة والصدفة بشكل « خالص » معزولتين عن بعضهما البعض، ففي هذه العملية او تلك تظهر الضرورة باعتبارها الاتجاه الرئيسي اتجاه التطور، لكن هذا الاتجاه يشق طريقه خلال عديد من الصدف. فالصدفة تكمل الضرورة، وهي شكل **ظهورها**. فوراء الصدف العديدة تتواجد دائما ضرورة موضوعية، والصدفة شكل تظهر فيه الضرورة كذلك التطور الاجتماعي.

اهمية مقولتي الضرورة والصدفة

من المهم جداً في النشاط العلمي والعملي مراعاة الجدلية الموضوعية للضرورة والصدفة، فمهمة العلم هي اكتشاف الترابطات الداخلية الضرورية خلق المظاهر الخارجية والاحداث والصلات الصدفية الكثيرة. ان معرفة القوانين والضرورة الموضوعية تساعد الانسان على ان يخضع العديد من ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية لمصالحه. ويجب على كل علم ان يستهدف

بالدرجة الاولى معرفة الضرورة. فان مهمة علم الاجتماع مثلا هي معرفة الضرورة الموضوعية لتطور المجتمع ومن ثم على اساس هذه الضرورة المدركة تغيير النظم الاجتماعية لصالح الانسان الكادح.

وطالما ان الصدفة شكل لظهور الضرورة فان على العلم الا يتجاهل الصدف. وبما ان الصدف توجد وتمارس تأثيراً على الحياة فان على العلم ان يضع في اعتباره دورها في التطور وان يحمي الانسان من الصدف غير المؤاتية.

وتظهر الضرورة دائماً في ظروف موضوعية محددة. لكن هذه الظروف ذاتها تتغير. ووفقاً لذلك تتغير الضرورة بدورها وتتطور. لكن كل ضرورة جديدة لاتظهر في شكل جاهز مكتمل وانما توجد في البداية كامكانية لا تتحول الى واقع الا في ظروف مؤاتية معينة.

٧ ـ الامكانية والواقع

ان الجديد، اي الذي يتطور هو ضروري، لكنه لا يظهر دفعة واحدة. ففي البدء تنشأ مقدمات عوامل محددة لظهوره، ثم تنضج هذه المقدمات وتتطور ويظهر، بفعل القوانين الموضوعية، الشيء الجديد او الظاهرة الجديدة. وهذه المقدمات اللازمة لظهور الجديد والكامنة في الموجود تسمى **امكانيات**. وهكذا فان كل جنين لديه امكانية التطور، التحول الى كائن بالغ. والكائن البالغ الذي نمى عن هذا الجنين هو الواقع.

فالواقع هو الامكانية المحققة. وتنبع الامكانيات من السنن الموضوعية، وهي وليدة هذه السنن. فان قانون التطور المنهجي المتناسب للمجتمع في ظل الاشتراكية يوفر امكانية التخطيط... الخ.

ولما كانت اشياء العالم وظواهره متناقضة فان الامكانيات بدورها متناقضة ايضا. ويجب ان نفرق بين الامكانيات **التقدمية** (الايجابية) **والرجعية**

(السلبية). فكل ثورة اجتماعية، مثلا، تحوى امكانية ايجابية هي انتصار القوى التقدمية وامكانية سلبية هي انتصار القوى الرجعية. ولكن بحكم مفعول قوانين التاريخ الموضوعية تنتصر الامكانيات التقدمية في آخر المطاف في حين ان انتصار الامكانيات الرجعية وان كان يحدث في بعض الحالات، ليس سوى انتصار مؤقت عابر.

والامكانيات مثلها مثل اي شيء آخر في العالم، تتطور، تتحرك، فبعضها ينمو، بينما يتناقص بعضها الآخر. بعد انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية مباشرة كانت ثمة في الاتحاد السوفييتي، الى جانب امكانية انتصار الاشتراكية، امكانية لعودة الرأسمالية. ومع ازدياد بأس الاتحاد السوفييتي اخذت امكانية انتصار الاشتراكية انتصاراً تاماً تتزايد اكثر فاكثر حتى اصبحت واقعاً. اما امكانية عودة الرأسمالية فكانت تتقلص اكثر فاكثر مع تقدم الاشتراكية حتى لم تعد قائمة عمليا الآن.

وتفرق الجدلية الماركسية بين الامكانية المجردة والامكانية الحقيقية. فالامكانية **المجردة** (الشكلية) هي امكانية لا يمكن تحققها في الظروف التاريخية المعنية. فان وقوع صدام كواكب المجموعة الشمسية مع غيرها من الاجرام الكبيرة، مثلا هي امكانية مجردة اذ ان درجة احتمال تحققها ضئيلة للغاية.

ويجب ان لا نخلط بين الامكانية المجردة الشكلية وبين المستحيل. فالمستحيل لا يمكن تحقيقه اطلاقاً لانه يتعارض مع القوانين الموضوعية، فمن المستحيل مثلا التوفيق بين مصالح البرجوازية ومصالح البروليتاريا. اما الامكانية المجردة فلا تتعارض مع القوانين الموضوعية وهي ممكنة التحقق مبدئياً ولكن عندما تنضج الظروف الملائمة لذلك فحسب.

واما الامكانية الحقيقية التي تتوفر لتحقيقها في الظروف التاريخية المعنية مقدمات ضرورية. فامكانية تحرير **كل** البلدان الواقعة في التبعية الاجنبية

مثلا، امكانية حقيقة. فهذه العملية تجري امام ابصارنا في الوقت الحالي.

والفروق بين الامكانيات المجردة والامكانيات الحقيقية فروق نسبية. فخلال عملية التطور يمكن لامكانية مجردة ان تصبح امكانية حقيقة. فمنذ عقدين كانت امكانية تحليق الانسان الى الكواكب الاخرى امكانية مجردة لان الوسائل التكنيكية لم تكن متوفرة. اما الآن فقد اصبحت هذه الامكانية حقيقة. وقد كان حلم الاشتراكيين الطوباويين الاوائل عن امكانية الانتقال الى الاشتراكية في مطلع القرن التاسع عشر امكانية مجردة. ففي ذلك الحين لم تكن القوة المدعوة لاقامة الاشتراكية قد نضجت بعد، اذ لم تكن هناك بروليتاريا ثورية منظمة كافية.

لكن هذه الامكانية اصبحت في العصر الحالي امكانية حقيقة بل تحولت في جزء كبير من العالم الى واقع.

****

الفصل الثالث

المبادىء المنهجية للمعرفة العلمية والعمل الثوري

الدياليكتيك المادي هو منهج فلسفي حديث

بالاضافة الى تبيان المضمون النظري لمقولات وقوانين علم الدياليكتيك: وجهنا الانظار في الفصول السابقة الى الاهمية المنهجية لهذه المقولات والقوانين. وتهيء المادة التي درسناها الامكانية للانتقال الى التحليل التعميمي للدياليكتيك المادي كمنهج.

ونعيد الى الاذهان ان المقصود **بالمنهج الفلسفي هو طريقة واساليب معينة للمعرفة تتيح الكشف باكمل واشمل واعمق وجه عن سنن عمليات الطبيعة والمجتمع والتفكير والنشاط الاجتماعي وتحديد الاعمال الضرورية المناسبة لبلوغ الاهداف المنشودة.**

ان المنهج العلمي حقاً لا يقتصر على الوصف البسيط لمختلف طرائق البحث، فهو يجب ان يكون دليلاً عاماً في جميع انواع النشاط البشري. وهذا الدليل هو المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية عموما باعتبارها نواة النظرة الى العالم، التي هي في وقت واحد نظرية ومنهج شامل للمعرفة العلمية والعمل. ويكمن الدور الخاص للدياليكتيك باعتباره اهم جانب للاساس الفلسفي للنظرة الى العالم (للعقيدة) في انه تصاغ في المنطق الدياليكتيك اكثر المقولات والقوانين تعميما وكذلك المتطلبات الملموسة ومبادىء المنهج العلمي واستخدامه في جميع انواع نشاط الناس.

ويتسم المنهج الماركسي - اللينيني الدياليكتيكي بخاصتين مميزتين تتلخص احداهما في شموليته، وبالدرجة الاولى في صلاحه لجميع ميادين المعرفة العلمية. ويعتبر المنهج الفلسفي اساسا عاملا شاملا لجميع المناهج التجريبية والنظرية للعلوم الملموسة. ويتكون هذا التناسب لان المنهج الفلسفي، كما اشرنا اعلاه، يدرس الصلات والقوانين العامة للحركة والتطور التي يستحيل بدون معرفتها فهم وتقييم جوهر وخاصية المواضيع الملموسة على نحو صائب.

وتستخدم بعض المناهج العلمية، مثل المناهج الفيزيائية والرياضية والسيبيرنيتيكية، في مختلف ميادين المعرفة، وتتميز بدرجة معينة من التعميم. الا ان هذا التعميم في آخر المطاف محدود اما بمستوى تنظيم المادة (الذري مثلا) واما بجانب معين من الواقع (الكمي مثلا) واما بعلاقة معينة (علاقة الضبط التلقائي مثلا في الانظمة البيولوجية والاجتماعية والسيبيرنيتيكية). ولذلك فبالرغم من الاهمية المتزايدة لمناهج المعرفة العلمية هذه، وبالرغم من فائدة وضرورة استخدامها، نجدها، عاجزة عن ان تحل محل النهج الفلسفي الشامل.

وتتلخص الخاصية الثانية للنهج الماركسي - اللينيني الدياليكتيكي في فاعليته، واتجاهه التحويلي النشيط. ان المناهج العلمية الخاصة تتضمن كذلك هذه العناصر الفعالة او تلك، ولكنها على الاغلب في الميدان المعرفي او التطبيقي، التكنيكي. ان الاتجاه والنتائج والمتانة والاثمار هي خصائص تلازم مختلف المناهج العلمية لهذه الدرجة او تلك. الا ان هذه الخصائص لا تكتسب مضموناً اجتماعياً انسانياً ولا تخدم ولا تستخدم في النشاط الثوري التحويلي للشيوعيين الماديين التطبيقيين الا في الدياليكتيك المادي.

ان هذه الخصائص المذكورة للمنهج الفلسفي الماركسي - اللينيني تحدد اهميته العلمية المعرفية والمنهجية والاجتماعية التطبيقية. ان الفهم العميق والقدرة على استخدام مقولات وقوانين الدياليكتيك وامتلاك ناصية المنهج العلمي والثقافة الفلسفية وفن التحليل العلمي والفعل الهادف - كل ذلك يصبح في وقتنا الحاضر ضرورة ملحة. ويعزى ذلك الى جملة اسباب:

اولا - ان الانقلاب الاجتماعي العظيم في العصر الحاضر، اي الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية والشيوعية على النطاق العالمي يدشن مرحلة جديدة مبدئيا هي اشتداد سلطة الانسان على علاقاته الاجتماعية. وبدون التحليل الدياليكتيكي العلمي لتعقد وتناقض هذه العملية لا يمكن تحقيق التحويل

الثوري للحياة الاجتماعية .

ثانياً - ان التطور العاصف للعلوم الطبيعية والاجتماعية ، ذلك التطور المرتبط بالثورة العلمية التكنيكية ، قد طرح في مكان الصدارة القضايا الملحة لمنطق المعرفة العلمية واتجاه البحوث العلمية والاستخدام الاجدى اجتماعياً لاكتشافات العلم ومنجزات التكنيك وتفسيرها الفلسفي . ولا يمكن حل هذه القضايا الهامة بدون استخدام المنهج الفلسفي العلمي .

ثالثاً - ان تطور العملية الثورية العالمية ومنجزات العلوم الاجتماعية والطبيعية والتقدم العلمي التكنيكي - كل ذلك يوسع ويغني مضمون فلسفة الماركسية ويدقق ويحدد منطلقاتها ومبادئها ومقولاتها وقوانينها ، اي المنهج الفلسفي العلمي الحديث ، ويتطلب دراسته المعقدة وتطويره الخلاق .

رابعاً - تنبع ضرورة امتلاك ناصية المنهج الدياليكتيكي الثوري من عدم التهاون بين الايديولوجية الشيوعية والايديولوجية البرجوازية . فان مختلف اتجاهات الايديولوجية البرجوازية الحديثة التي تتطفل بشكل سافر او خفي على بعض حقائق العلم والتكنيك او الحركة الاجتماعية تزور المضمون الحقيقي للمعرفة العلمية والتطبيق الثوري وآفاق التقدم الاجتماعي . ان فضح البطلان العلمي والمغزى السياسي الرجعي لمذاهب ايديولوجي البرجوازية المعاصرة وكذلك مختلف اشكال الانتهازيين امر غير ممكن الا بالاستخدام الماهر للمنهج العلمي الفلسفي .

ولننظر في اهمية المنهج العلمي الفلسفي طبقاً لمثال موقف الناس من القوانين الموضوعية للطبيعة والمجتمع .

القضية المنهجية لاستخدام القوانين الموضوعية في نشاط الناس . ان موقف الناس من القوانين الموضوعية يعتمد على مضمون هذه القوانين نفسها ونتائج مفعولها واشكال تجليها ، كما على طرح الناس لاهدافهم وتحديد وسائل وطرق بلوغها . وهذه الجوانب تحدد كذلك طرق استخدام القوانين الموضوعية

للطبيعة والمجتمع في العلم والتطبيق الاجتماعي . وتتلخص اهمية القوانين بالنسبة للعلم والتطبيق في انها تعبر عن جوهر واتجاه ووجهة التطور وتشمل كامل تنوع الجوانب والاجزاء الملموسة في العملية المعنية وتخضعها لاساس واحد . ويمكن لطرق استخدام الانسان لقوانين الطبيعة والمجتمع الموضوعية ان تكون متنوعة تبعا لمستوى التطبيق والمعرفة وطابع القوانين نفسها ودرجة مصلحة الناس في نتائج اعمالهم .

وتستخدم بعض قوانين الطبيعة من قبل جميع الناس بغض النظر عن منحدراتهم الطبقية استخداماً مباشراً وبدون اي تحديد لمجال فعلها . فالانسان الذي يعرف مثلا قانون الاستمرارية وقانون الجاذبية العامة وغيرها يراعي هذه القوانين في البناء والصناعة والتقنيات وفي البحوث الكونية وهلمجرا .

ولا يتجلى القانون دائماً الا بوجود الظروف المناسبة التي يقصد بها العوامل الالزامية لظهور وقيام وتطور المواد والعمليات المعنية . ويؤدي تغير الظروف الموضوعية الى تغير طابع تجلي القوانين (تحديد او توسيع ميدان مفعول القانون المعنى وتغير شكل ونتائج مفعوله) . ويساعد التغير الجذري للظروف على حدوث تغير كيفي في طبيعة الشيء نفسه ، مما يؤدي الى استبدال القوانين الموضوعية لوجوده وتطوره .

ويمكن ايضاح هذا الامر اذا تناولنا قانون الحرب النابع من جوهر الامبريالية التوسعي . فقد بينت النظرية الماركسية ، واثبتت الخبرة التاريخية ، ان الحروب بالنسبة للامبريالية رفيق لا مفر منه . فعلام يستند اعتقادنا بامكانية درء الحروب في العصر الحاضر؟ فان طبيعة الامبريالية لم تتغير ، والناس ، كما ذكرنا اعلاه ، لا يستطيعون الغاء القوانين الموضوعية . ان الجواب على هذا السؤال يتلخص في ان النضال الجماهيري الثابت المعزز بالقدرة السياسية والاجتماعية الاقتصادية والعسكرية للاشتراكية العالمية يهيىء ظروفاً اجتماعية

موضوعية جديدة لمفعول قانون الحرب الامبريالية. فقد اصبح واضحا اليوم تضييق مجال مفعول هذا القانون وتغير اشكال فعله، الامر الذي ينعكس في التغيرات الايجابية للعلاقات بين الدول. وهكذا، فالديالكتيك المادي الذي يعترف بموضوعية قوانين الطبيعة والمجتمع يذلل نوعين من التطرف الميتافيزيقي ـ القدرية والارادية اللتين ورد ذكرهما سابقاً.

ان القدرية التي تعتقد بان تطور التاريخ محدد بالقضاء والقدر تنظر الى اية قوانين باعتبارها قوانين ابدية لا تتغير وتنكر امكانية التأثير النشيط من جانب الانسان والطبقات والجماهير الشعبية على الطبيعة والتاريخ الاجتماعي. وتتمسك الارادية بوجهة نظر مغايرة لتلك شكليا، ولكنها هي ايضاً تجعل البشر لعبة بيد الصدف. فهذا الاتجاه الفلسفي المثالي الذاتي ينكر السنة الموضوعية ويضفي الدور الأول في تطور الطبيعة والمجتمع على الارادة البشرية. ويلتزم بالمواقف الارادية السافرة الايديولوجيون الذين يزعمون بانه « لا اية« قوى » او « قوانين » تاريخية او اقتصادية تقف فوق الارادة البشرية ».

بديهي ان بعض الشخصيات والمساهمين في الحركات الثورية غير متخلصين من الآراء القدرية والارادية. وفي هذه الحالة وتلك يعزى ذلك الى التخلي الذاتي عن التحليل العلمي للاحداث وعن التعليل العلمي للنشاط الثوري.

ان لقضية استخدام الانسان للقوانين الموضوعية جوانب عديدة، ونشير هنا الى ان اكتشاف وتدقيق قوانين العلم يتأثران لدرجة كبيرة بالطابع المتناقض لعملية المعرفة نفسها وباشكال البحث وطرقه المختلفة والمواقف الفلسفية، والتطبيق الاجتماعي على الخصوص.

ومفهوم انه اذا كان الناس يعرفون القانون الموضوعي واشكال تجليه والظروف الطبيعية لمفعوله ـ فان ذلك يتسم باهمية عملية كبيرة بالنسبة لهم.

اولا ـ انهم يستطيعون ان يقيموا تقييما صائبا دور الظروف الجديدة لتجلي هذا القانون او ذاك ـ ثانيا ـ يستطيع الناس عن طريق التأثير على الظروف الموضوعية او بواسطة خلق ظروف جديدة ان يؤثروا تأثيراً مركباً على طابع ونتائج مفعول القانون.

وبعد دراسة قوانين الطبيعة ومختلف الظروف التي تتجلى وتفعل فيها هذه القوانين تتهيأ للانسان امكانية التحكم بالعمليات الطبيعية ويعني ذلك انه ينتقي بصورة واعية ظروفاً محددة ملموسة تفتح مجالاً رحباً لمفعول القوانين المعنية بالاتجاه اللازم للانسان. علمًا بانه يجري تحديد مفعول القوانين في الاتجاه غير المرغوب او الاتجاه الضار بالبشر.

واذا كانت معرفة واستخدام قوانين الطبيعة يساعدان الناس في التحكم بالعمليات الطبيعية، فان معرفة واستخدام قوانين تطور المجتمع هما عامل جبار لتحويل جميع جوانب الحياة الاجتماعية. ان ديالكتيك العملية التاريخية يتجلى دائما عبر نشاط الناس. الا ان مفعول قوانين الديالكتيك في مختلف الظروف الاجتماعية له خصائصه ذلك ان قوانين الديالكتيك محددة دائمًا، اي انها تتجلى عبر القوانين الجزئية لتطور الاشياء والعمليات الملموسة. وبذلك تكمن خاصية وفرق هامان يميزان قوانين الديالكتيك عن سائر القوانين الاقل تعميمًا والقوانين الجزئية التي يميزها تناسب وتسلسل آخران.

ان اشكال تجلي قوانين الديالكتيك في مختلف الظروف الاجتماعية لها خصائصها تبعاً لجملة من الملابسات. وهذه الخصائص مشروطة اولا ـ بالمضمون المحدد للمواضيع والعلاقات والعمليات الاجتماعية، ثانياً ـ بالقوانين الموضوعية الملازمة للمواضيع والعمليات الملموسة والتي يسري مفعول قوانين الديالكتيك عن طريقها، ثالثاً ـ بالدور التاريخي للعامل الذاتي والتدخل الواعي من قبل الناس في مجرى العمليات الاجتماعية. الا ان جميع هذه الخصائص لا تلغى ابدا الطابع الشامل لقوانين الديالكتيك ولا تتطلب

وضع دياليكتيك منفصل للطبيعة او دياليكتيك المجتمع، بدله دياليكتيك الرأسمالية او دياليكتيك الاشتراكية.

ان الامر الاهم هو ان الناس عندما يدركون قوانين الحياة الاجتماعية يستطيعون ان يؤثروا على سير الاحداث التاريخية. ويزداد هذا التأثير في ظل الاشتراكية على الخصوص، وذلك لان مفعول.القوانين الاجتماعية في ظروف الاشتراكية، كما اشار انجلس، يقع تحت سيطرة الناس واشرافهم. وان هذه الميزة للنظام الاجتماعي الاشراكي تتحقق فقط لدى توفر المهارة والارادة المنظمة والاستعداد لدى الجماهير لتحويل معرفة القوانين الى فعل اجتماعي اقتصادي هادف. ويجمع الشيوعيون نشاطهم السياسي والتطبيقي بين المراعاة الصارمة لفعل القوانين الموضوعية وبين الاعتراف بالدور التاريخي والطاقة الثورية والابداع لدى الطبقة العاملة وجميع الشغيلة في التحويل الثوري للعالم.

وهكذا يكشف المنهج الماركسي - اللينيني ليس فقط عن طرق المعرفة العلمية، بل هو يوجه النشاط الهادف واستخدام قوانين العلم في التطبيق الثوري. ان هذا التوجيه العلمي والتطبيقي متركز في قوانين الدياليكتيك ومبادىء المنهج الدياليكتيكي المادي.

لقد بينا سابقاً ان المبادىء الفلسفية هي مجمل اكثر المقدمات والمنطلقات تعميمًا والافكار القيادية الاساسية التي تميز تفهم العالم وموقف الانسان منه في المستوى المعني للمعرفة والتطبيق الاجتماعي التاريخي. وقد درسنا سابقاً من بين مبادىء المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية مبادىء مادية العالم وحزبية الفلسفة ووحدة النظرية والتطبيق وغيرها.

وتنبع مبادىء الدياليكتيك المادي من مضمونه كعلم، منهج الشامل للمعرفة. وتشمل هذه المبادىء وتجسد وحدة الدياليكتيك الموضوعي للطبيعة والمجتمع ودياليكتيك المعرفة والتفكير، وكذلك دياليكتيك نشاط الناس الذاتي.

ولقد صاغ لينين خصيصا في « الدفاتر الفلسفية » وفي مؤلفه « مرة اخرى عن النقابات . . . » عددا من اهم المبادىء الدياليكتيكية لمنطق التفكير والفعل الاجتماعي. وتتميز باهمية خاصة بينها للتطبيق الثوري مبادىء موضوعية دراسة الاشياء والعمليات والصلة الشاملة والتطور والاسلوب التاريخي الملموس في معالجة الظواهر والحلقة الاساسية في سلسلة الاحداث التاريخية.

اهم مبادىء المنهج الدياليكتيكي بالنسبة للتطبيق الثوري

مبدأ الصلة الشاملة. يشغل المفهوم المادي الدياليكتيكي للصلة العالمية الشاملة مكانة هامة جدا في المنهج الدياليكتيكي. وفي معرض تحليل اهمية هذا المبدأ وصفه لينين بانه القاعدة الاساسية الاولى للبحث العلمي عموما ودياليكتيك ماركس خصوصا.

ان المفهوم المادي الدياليكتيكي للصلة الشاملة يلزمنا بالنظر في مجمل العلاقات المختلفة لهذا الشيء مع الاشياء الاخرى، بمراعاة حقيقة ان الصلات والعلاقات في العالم الواقعي تتميز بالحركة والتغير. فان اي شيء واية ظاهرة لها عدد لانهائي من الخصائص والكيفيات والعلاقات المتبادلة مع العالم الباقي اجمع. ويتطلب الدياليكتيك، كما اكد لينين، مراعاة شاملة لهذه العلاقات المتبادلة: فبغية معرفة الشيء بالفعل ينبغي الاحاطة به ودراسة جميع جوانبه وجميع ارتباطاته.

ان مطلب الشمولية في دراسة الاشياء والظواهر هو واحد من المتطلبات الاساسية في المنطق الدياليكتيكي. وقد حذر لينين من انه من المستحيل عمليا المراعاة التامة لجميع الاشكال المتنوعة المعقدة للترابط. الا ان السعي الى

مراعاتها الشاملة يحمي العلم والتطبيق من الاخطاء والجمود والمعالجة الوحيدة الجانب.

وبهذا الخصوص يقف منهج الدياليكتيك المادي على طرفي نقيض من كل معالجة وحيدة الجانب ومن كل اصطفائية وسفسطة. **فالاصطفائية تسمح** بجمع لامبدئي غير منطقي لآراء متنافرة ومتناقضة في الغالب. وهي تستبدل التحليل الدياليكتيكي للارتباطات بمخطط شكلي « للصلات على العموم » وبربط ميكانيكي لمختلف العناصر. اما السفسطة فيه عبارة عن استنتاج مبنى على الباطل ومستند الى حجج مضللة تحتمل معنيين وهي تتجاهل اكثر الامور جوهرية في الظواهر وتتشبث بجوانب وصلات منفصلة وتنسبها الى الظواهر الاخرى، فتعرقل بالتالي ايضاح جوهرها الحتمي.

وقد اكد لينين في كراس « الثورة البروليتارية والمرتد كاوتسكي » على التعارض بين الدياليكتيك وبين الاصطفائية والسفسطة وكتب ان الدياليكتيك ملموس وثوري، بينما تعمل اصطفائية وسفسطة انتهازيي الاممية الثانية على مسح كل ما هو ملموس دقيق في الصراع الطبقي لصالح البرجوازية. ويخص ذلك كليا الاشتراكيين الاصلاحيين المعاصرين الذين يحاولون الجمع ما بين مصالح البروليتاريا والبرجوازية، حيث يجمعون في مبادئهم ميكانيكيا بين الظواهر المتباينة، بل وحتى المتناقضة، او يفصلون بصورة اصطناعية ويشوهون الصلات الفعلية والعلاقات الحتمية.

فالمذاهب الانتهازية، مثلا، تعتبر رأسمالية الدولة الاحتكارية بمثابة تشكيلة جديدة تتكون فيها، على حد زعم هذه المبادىء، عناصر الاشتراكية في علاقات الانتاج، وبمثابة مجتمع جديد مدعو الى الحلول محل الرأسمالية القديمة والاشتراكية القائمة. وهذا هو معزى « الانعطافات الكبير للاشتراكية » الذي ابتدعه الانتهازي الفرنسي غارودي الذي يتشبث بالافكار الاصلاحية القديمة بشأن « الاشتراكية الاوروبية »، « الديمقراطية ».

ويتلاعب الانتهازي النمساوي فيشر بافكار « تجرد الطبقة العاملة من البروليتاريا » (وينسب الى الطبقة العاملة جميع الذين يستلمون الاجور والرواتب) فينكر فكرة دكتاتورية البروليتاريا ورسالتها التاريخية ويضفي طابعاً مطلقاً على الدور الاجتماعي للمثقفين والطلبة والفئات الوسطى ويدعو الى مذهب « الثورة الديمقراطية السلمية ».

وواضح ان هذا النوع من المذاهب الاصلاحية الانتهازية لا يمت باية صلة للارتباطات والعلاقات الطبقية حقا، ولدياليكتيك النضال ضد الامبريالية ولدياليكتيك الثورة في البلدان المتطورة صناعيا.

مبدأ التطور الدياليكتيكي. لقد اشار لينين في « الدفاتر الفلسفية » الى ان « الجميع » في القرن العشرين « موافقون » على مبدأ التطور. ويضطرهم على هذه الموافقة العلم والتطبيق الثوري. الا ان مجرد الاعتراف بهذه الحقيقة لا يعني التفهم العلمي الصائب للتطور.

وهناك اسلوبان ومذهبان اساسيان للتطور - **ميتافيزيقي ودياليكتيكي.** وقد كشف لينين بصورة شاملة عن تناقضهما المبدئي في قسم « حول مسألة الدياليكتيك ». ونعيد الى الاذهان انه لا يمكن من وجهة النظر الميتافيزيقية بشأن التطور كتغير بسيط وكحركة في حلقة بدون تصارع الأضداد - لا يمكن بصورة صائبة تفسيركيف يظهرالجديد وكيف يجري التطور الفعلي، بله تحديد مكانة ودور الانسان وشكل ومنهج الفعل الاجتماعي.

وخلافا للتفسير الميتافيزيقي للتطور يعتبر المذهب الدياليكتيكي مفتاحا لفهم عمليات تحطيم القديم وظهور الجديد. ويعتبر هذا المذهب التطور بانه عملية ثورية بصورة طفرات، عملية تسير ليس بشكل حلقة ولا بخط مستقيم، بل بشكل حلزوني مع تحول الكيفية الى كمية وفاصل التدرج. وان الامر الرئيسي في الدياليكتيك هو كونه يكشف عن المصدر الداخلي للحركة والتطور، وينظر الى هذا المصدر في جوهر العمليات والظواهر، في صراع

الاضداد الملازمة لها. وان المذهب الديالكتيكي الذي يعتبر التطور عملية حتمية صارمة هو موجه صائب للمعرفة العلمية والنشاط الاجتماعي.

ان للطبقة العاملة مصلحة حيوية في التفسير العلمي الدقيق للواقع وفي الكشف عن القوانين الموضوعية للتطور التقدمي الذي يسير بالمجتمع حتما الى نظام جديد ارقى. فان المصالح والاهداف الجذرية للطبقة العاملة والشغيلة جميعا تتفق ونتائج التطور الاجتماعي الضرورية تاريخيا. وبالعكس، فان الطبقات الاجتماعية، طبقات الاستغلاليين، المحكوم عليها بالفناء تسعى وسط الرعب والخوف على مصيرها ومستقبلها الى تمويه الواقع بكل الوسائل وتشويه قوانينه وحجب جميع تناقضات المجتمع الاستغلالي، حيث تشوه بالدرجة الاولى طابع تطوره. وهذا ما يحدد، في آخر المطاف، الطابع المتباين لتفسير عمليات التطور في الفلسفة الماركسية - اللينينة والفلسفة البرجوازية.

وتتجلى في التطور التاريخي بكل سطوع واحدة من سماته المميزة له، نعني عدم قهر الجديد. ان التصاعد من الواطىء الى الراقي هو عملية معقدة متناقضة ديالكتيكيا. ويمكن تعقد التطور هذا قبل كل شيء في امكانية التراجع والانحراف الى جانب والطفرات بالاتجاه المعاكس والاخلال الموقت في السير التقدمي. ولكنه مهما كان التراجع والانحراف الى جانب فان الاتجاه العام للتطور يبين ان الجديد التقدمي الارقى كيفيا لابد وان ينتصر ويحتل محل القديم.

ولدى تعريف الجديد ينبغي ان نأخذ بعين الاعتبار ان الجديد يعني النتيجة الضرورية للاتجاه التقدمي للتطور، تلك النتيجة النابعة من الطبيعة الداخلية لهذه العملية او تلك. والشيء الجديد فعلا هو ما يكون المستقبل حليفه. فالجديد يحقق النصر على القديم البالي ان عاجلا او آجلا. ولذلك يعلمنا الديالكتيك المادي ان نتجه نحو الجديد وننظر الى الامام ونعمل باتجاه التطور التقدمي.

ان مبدأ الديالكتيك المادي لرؤية ودعم الجديد في التطور الاجتماعي يكتسب اهمية كبيرة خاصة في العصر الثوري الراهن حيث ارتسم خطان للعملية الاجتماعية العالمية. والاتجاه القيادي للتطور التاريخي للبشرية حاليا هو السير نحو الاشتراكية والشيوعية وان الاشتراكية العالمية هي عامل يحدد بصورة متزايدة طابع وآفاق التطور التاريخي وهي عبارة عن الشيء الجديد في تطور المجتمع الحديث. والخط الثاني للعملية الاجتماعية في ايامنا هذه هو الامبريالية التي تجسد الاتجاه المحافظ الرجعي الهابط في التاريخ العالمي. ان ديالكتيك التاريخ يبين انه في فترات الثورات والهزات الاجتماعية العاصفة خصوصا يسير في منعرجات حيث يقترن هجوم قوى التقدم وانتصاراتها في قطاع معين باخفاقات جزئية، وحتى بهزائم جزئية في قطاع آخر. الا ان بعض اخفاقات القوى التقدمية لايمكن ان تحد سير التاريخ الى الامام لامد طويل.

ان نضال الشغيلة الهادف الواعي وتنظيم هذا النضال وتعبئة القوى التقدمية والطاقة الاجتماعية للجماهير- كل ذلك يؤمن التعجيل بانتصار الجديد على القديم البالي. ان طاقة ونشاط القوى الثورية الثورية تحت قيادة الطليعة الشيوعية يمكن ان يحولا دون هجوم الرجعية ويعجلا التحويلات التاريخية التقدمية. اذن، فان مبدأ التطور، والاتجاه خصوصا نحو الجديد، يصونان العلم والتطبيق الثوري من التشاؤم والركود والسلبية.

مبدأ موضوعية دراسة الاشياء والعمليات. ينبع مطلب الديالكتيك المادي هذا من واقع ان الاشياء والاجسام والعمليات والعلاقات بينها موجودة موضوعيا خارج الذات المدركة لها. ولذلك فان تصورات ومفاهيم الانسان واعماله يجب ان تنسق مع الطبيعة الموضوعية للاشياء والعمليات ومع ترابطها الديالكتيكي وحركتها وتطورها. ويكمن في مبدأ موضوعية دراسة العالم الفرق الجذري بين منهج الديالكتيك المادي وبين **الذاتية والارادية** من جهة **والموضوعية البرجوازية** من جهة اخرى.

وينبغي التأكيد على ان الاستهانة بمبدأ الموضوعية لدى تحليل الواقع وتقييم نتائج النشاط الذاتي تؤدي الى اخطاء فاحشة. في ميدان النظرية يؤدي اضفاء الطابع المطلق على دور الوعي وافعال الفرد والجماعات الى النزعة الذاتية والارادية والى تجاهل الظروف والقوانين الموضوعية. وفي الفعل الاجتماعي والتطبيق تجري في هذه الحالة مبالغة وافراط في نشاط الفرد والجماعة وتظهر حلول وطرق ذاتية تؤدي حتما الى اخطاء فاحشة.

ان الذاتية والارادية اللتين رسختهما الظروف الاجتماعية في المجتمع الاستغلالي هما، بشكل النزعة الفردية، طريقة للتفكير، وطراز للعمل والسلوك لدى ممثلي الطبقات الاستغلالية. وعلى العكس، فان الوضع الاجتماعي في المجتمع الاشتراكي موجه من حيث الجوهر ضد الذاتية والارادية. فالاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية اذ تشجب في وثائقها القرارات الارادية، اي النزعتين الذاتية والارادية، تؤكد دائما على ضرورة الجمع الماهر والمراعاة لدور العامل الذاتي مع التحليل الواعي واستخدام القوانين الاقتصادية والسوسيولوجية الموضوعية للمجتمع الاشتراكي.

وفي ظروف البناء الحتمي الواعي للاشتراكية والشيوعية يكتسب مبدأ الموضوعية اهمية خاصة. وخلافا للتطور العفوي للتشكيلات ما قبل الاشتراكية يبنى المجتمع الجديد على اساس علمي مع تزايد دور العامل الذاتي. وهذا التزايد هو نتيجة للمعرفة العميقة ولاستخدام قوانين الطبيعة والمجتمع الموضوعية وتراكم خبرة تنظيم الجماهير. وفي هذه الظروف يساعد مبدأ الموضوعية على التخلص من اوهام « الحرية الكاملة »، اي استقلال نشاط الناس والجماعات الاجتماعية والطبقات عن الظروف والقوانين الموضوعية. ويستنتج من ذلك ان المطلب الدياليكتيكي حول موضوعية دراسة الاشياء والعمليات يتسم ليس باهمية نظرية فقط. فهو من الناحية التطبيقية يبدو بشكل واحد من الاصول العلمية للنشاط، ويرتبط، كمبدأ للسلوك،

بالاصول الاخلاقية للروح الجماعية. ان استخدام مبدأ الموضوعية يعني التحليل العلمي للواقع ومراعاة الظواهر الاجتماعية المتنوعة بما فيها مكانة ودور نشاط الناس انفسهم.

ولا يتلائم مبدأ الموضوعية المادي الدياليكتيكي كذلك مع الموضوعية البرجوازية. وتتجلى الموضوعية البرجوازية بوضوح ليس فقط في الادبيات المزورة المنافية للشيوعية وفي الدعاية البرجوازية اليومية من الاذاعة والتلفزيون وفي الصحف والمجلات، بل وغالبا جدا ما تتجلى في البحوث التي تدعى الالتزام العلمي. وتكتفي الموضوعية البرجوازية، كقاعدة عامة، بذكر حقائق معينة وجوانب واحداث مختلفة تعوم على سطح الحياة الاجتماعية. ويرفض انصار هذه الموضوعية التحليل الطبقي النظري والتمعن في الطبيعة الداخلية للظواهر والاستنتاجات الثورية التطبيقية وبذلك يبررون الظلم الاجتماعي القائم. ويعنى ذلك ان مبدأ الموضوعية البرجوازية غير علمي، بل ويمكن ان يصبح، كما حذر لينين، مصدرا لارتكاب « خطيئة الوقوع في الانتهازية من الماركسية ».

وبالفعل، فان المرء يصادف اليوم بعض اعضاء الاحزاب الشيوعية الذين يدعون بموقف « الماركسية الانتقادية » فيفقدون الاسلوب الطبقي في تقييم الظواهر الاجتماعية وينحدرون الى الموضوعية البرجوازية. ان هؤلاء الناس الذين يتاجرون بصعوبات البناء الاشتراكي والشيوعي ويضفون طابعا مطلقا على النواقص الجزئية والجوانب الخاطئة في الاشتراكية، تلك النواقص الناجمة عن درجة نضوجها التاريخي، او الاخطاء والهفوات في نشاط الاحزاب الشيوعية الاخرى، ينحدرون، كقاعدة عامة، الى مواقف العداء للاتحاد السوفييتي والاشتراكية والشيوعية. وهكذا، يمكن ان تؤدي الاستهانة بمبدأ الموضوعية الى الارتداد السياسي ايضا.

وعلى النقيض من الموضوعية البرجوازية يصل الدياليكتيك المادي بالبحوث

العلمية الى معرفة الطبيعة الداخلية للظواهر وايضاح كامل تناقض الوقائع الظاهرية والكشف عن المنطق الفعلي وآفاق تطور هذه العمليات او تلك، وبالتالي يعلل الاستنتاجات والافعال الثورية والتطبيقية.

مبدأ الاسلوب التاريخي الملموس في معالجة الظواهر. يتلخص المطلب التالي للديالكتيك المادي في ضرورة التمسك بالاسلوب التاريخي الملموس لدى النظر في ظواهر الطبيعة والمجتمع وتحليلها تبعا للظروف المحددة مع مراعاة المكان والزمان ومرحلة التطور.

ولقد طرح لينين التحليل الملموس للموقف الملموس بمثابة شرط لازم للاسلوب الديالكتيكي في معالجة ظواهر الواقع. وكتب لينين يقول: « ان كامل روح الماركسية، وكامل نظامها يتطلبان ان تدرس كل حالة (أ) تاريخيا و (ب) بالارتباط مع الحالات الاخرى و (ج) بالارتباط مع خبرة التاريخ المعينة »*. وتؤكد هذه الملاحظة اللينينية تعارض الديالكتيك المادي مع التجريدات المثالية الجوفاء المعزولة عن الحياة ومع الاسلوب الميتافيزيقي المنافي للتاريخ في معالجة الواقع.

ان التجريدات الخاوية والمنافية للتاريخ تلازم الكثيرين من الايديولوجيين البرجوازيين السافرين، وغالبا ما تبدو بمثابة اساس منهجي للآراء المنافية للماركسية لدى الانتهازيين المعاصرين ايضا. وزعم الصهيوني الفرنسي أ. هارون في المحاضرات التي القاها في جامعات البرازيل ودعا اثناءها لمذهب ما يسمى « بالمجتمع الصناعي » ان « المخطط الماركسي لا يناسب احداث القرن العشرين ». وجاء هذا الزعم خلافا لخبرة التاريخ ودروسه. ولا يراعي الانتهازيون اليمينيون المحدثون في نظرياتهم ما فوق الطبقية والمنافية للتاريخ بصدد « الاشتراكية الانسانية »، كما في الانتقاد الذي لا يستند على اساس

* لينين، رسالة الى ارمانه، المؤلفات. المجلد ٣٥، ص ٢٠٠.

ضد ممارسة الاشتراكية ـ لا يراعون ابدا الظروف الملموسة ومكان وزمان ومرحلة وآفاق تطور الظواهر الاجتماعية. فهم عندما يرفضون المبدأ الثوري للاسلوب التاريخي الملموس ينحدرون الى انكار ضرورة الثورة الاشتراكية وديكتاتورية البروليتاريا، ويؤدون بذلك دور مروجي الايديولوجية البرجوازية الاصلاحية في الحركة الشيوعية.

ويلازم خرق مبدأ الاسلوب التاريخي الملموس كذلك الجمود العقائدي و « الانتهازية اليسارية ». فذوو الجمود العقائدي والانعزاليون لا يرون ولا يدرسون التغيرات الملموسة في تناسب القوى على الصعيد الدولي لصالح الاشتراكية، وهم يفضلون عدم رؤية التحويل الجذري للبنية الطبقية للمجتمع الاشتراكي ويتشدقون بالصراع الطبقي في الاتحاد السوفييتي ويعتبرون تحسن الرفاه المادي للشغيلة ليس كنتيجة للنضال الطبقي والتقدم الاجتماعي، بل كارتداد برجوازي وهلمجرا. ان ذوى الجمود العقائدي عندما يعارضون احكام الماركسية الخلاقة التي تعمم فيها الظروف التاريخية الملموسة للنضال الطبقي انما يصبحون في الواقع تحريفيين « يساريين ».

وفي التطبيق يؤدي خرق ذوى الجمود العقائدي والانعزاليين لمبدأ الاسلوب التاريخي الملموس في معالجة الواقع اما الى الانتظار السلبي واما الى اعمال تشكل خطرا خاصا الآن حين ترتبط بمظهر القومية والشوفينية ونزعة الزعامة.

ان التشويهات الانعزالية اليسارية المتطرفة للنظرية الماركسية اللينينية، شأنها شأن المبادىء الثورية المتطرفة المزينة بالماركسية قولا (مثل حركة « اليساريين الجدد »)، تعرقل التطوير الخلاق لمبادىء الماركسية ـ اللينينية وتطبيق هذه المبادىء العظمى، واغناءها باحكام جديدة تجسد الخصائص التاريخية الملموسة للعملية الثورية العالمية.

مبـدأ الحلقـة الاسـاسيـة في سلسلة الاحـداث التـاريخية . ان حكم الديالكتيك المادي بشأن الحلقة الاساسية في سلسلة الاحداث التاريخية ينبع من الصلة الشاملة وتطور الظواهر الاجتماعية . ويقصد بالحلقة الاساسية في سلسلة الاحداث التاريخية اكبر مهمة اساسية للمرحلة المعنية من نشاط الناس التحويلي ثورياً في ميدان معين من الحياة الاجتماعية .

ويعني اجلاء الحلقة الاساسية :

أ) فرز الصلة الداخلية التي تؤمن سير الاحداث في اتجاه معين من بين الصلات الموضوعية العديدة .

ب) تحديد درجة اتفاق سير الاحداث مع اهداف الناس التحويلية ثوريا .

ج) تكوين الحلقة الاساسية باعتبارها المهمة الرئيسية للعمل الثوري في الميدان المعنى من الحياة الاجتماعية .

وكان لينين قد قال في مؤلفه « ما العمل؟ » ان كامل فن السياسة يتلخص في العثور على حلقة في السلسلة هي اقل الجميع افلاتا من الايدي ، وهي اهم الجميع في اللحظة المعنية واكثر الجميع ضمانة لامتلاك السلسلة كلها ، وفي التشبث بهذه الحلقة بالذات تشبثا شديدا للغاية . وقد عرف لينين باروع شكل في الاعداد النظري والسياسي والتنظيمي لثورة اكتوبر القدرة على ايجاد وتحديد اكبر مهمات الساعة في مختلف المراحل وتركيز وتنظيم القوى الثورية لتنفيذ هذه المهمة .

ان الموضوعة اللينينية بشأن الحلقة الاساسية في سلسلة الاحداث التاريخية هي مبدأ هام في نشاط الاحزاب الشيوعية . فظروف النضال الملموسة تولد حلقاتها الاساسية واكبر مهمات الساعة للحزب على العموم ، وللميادين المعنية من نشاطه . وبالنسبة لبعض الاحزاب يمكن ان تصبح هذه الحلقة الاساسية هي جوانب معينة من العمل التنظيمي : تأسيس او اعادة تشكيل المنظمات

الحزبية الاولية ، والنمو الكمي للحزب والتغييرات في قوامه الاجتماعي واعداد الكوادر الحزبية من مختلف المستويات وزيادة التأثير على منظمات الشغيلة الجماهيرية وهلمجرا . وفي حالات اخرى يمكن ان تصبح ملحة قضايا النشاط النظري للحزب ووضع وتعليل البرامج والوثائق السياسية وتحليل حالة وآفاق التطور الاجتماعي الاقتصادي والسياسي للبلاد في المستقبل وهلمجرا .

وتدل خبرة الحركة الشيوعية لاكثر من مائة عام ان الاحزاب الماركسية اثبتت قدرتها على قيادة الجماهير الشعبية سياسيا . ان الثبات المنطقي والوضوح والتحديد في المهمات الاساسية التي تطرحها الاحزاب الماركسية تؤمن للبروليتاريا وحلفائها النجاحات القصوى في النضال ضد الاستغلاليين .

ان القدرة على ابراز الحلقة الاساسية والمهمة الاكبر في المرحلة المعنية تتسم باهمية كبيرة كذلك في نشاط الحزب الشيوعي السوفييتي في الظروف الراهنة . ان الحلقة الحاسمة في السلسلة التاريخية للمهامات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية الداخلية لتطوير الاتحاد السوفييت في المرحلة الراهنة هي انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية . ويؤمن حل هذه المهمة الرئيسية تنفيد طائفة كاملة من اكبر مهمات البناء الشيوعي ، وفي مقدمتها تطوير واستكمال علاقات الانتاج الاشتراكية وتربية خصال الفرد المتطور بتناسق في المجتمع الشيوعي .

وواضح ان الحلقات الاساسية في سلسلة الاحداث التاريخية تظهر ليس فقط في نشاط احزاب شيوعية معينة ، بل وكذلك في اطار الحركة الشيوعية والعمالية جمعاء ، وفي العملية الثورية العالمية ككل . وتصاغ هذه الحلقات وتحدد من قبل المؤتمرات العالمية للاحزاب الشيوعية والعمالية وفي الوثائق الحزبية التي تتضمن اكبر مهمات الساعة والمرحلة المعنية للنضال الثوري في الميادين النظري والسياسي الفكري والتنظيمي .

وهكـذا فان امتـلاك ناصية الـدياليكتيك المادي ومعـرفة مبادئه ومقولاته وقـوانينـه يساعدان في تكوني فكرة عن لوحة العالم ككل، وفي تكوين النظرة العلمية الى العالم وفي النضال الناجح ضد الايديولوجية المعادية. ان مبادىء ومقـولات الـدياليكتيك المادي هي الاسـاس المنهجي للمعرفة العلمية حقاً لجميع ميادين العـالم المـوضـوعي. وهي تسلح الاحزاب الماركسية ـ اللينينة وجماهير الشغيلة الواسعة بالمنهج العلمي للتحويل الثوري [illegible]

* * *

الفصل الرابع

الدولة والثورة ودكتاتورية البروليتاريا

تطور الدولة الاشتراكية

١ - الدولة في التشكيلات الطبقية المتناقضة

نشوء الدولة وجوهرها

لقد كتب عن الدولة كثيراً، حتى صار من المتعذر الالمام بكل ما كتب عنها. وان علوماً كاملة - تاريخ الدولة والحق، نظرية الدولة والحق - تختص ببحثها وبدراستها. لكن هذا لا يعني ان السؤال عن الدولة صار واضحاً وليس بحاجة الى بيان اكثر. فلسنا نكاد نجد - كما اكد لينين - مسألة تعقدت، عفواً او قصداً، من قبل ممثلي العلم والفلسفة والقانون والاقتصاد السياسي والصحافة البورجوازية كما تعقدت قضية الدولة. وليس هذا من قبيل الصدفة طالما ان هذا الحل او ذاك يمس مباشرة المصالح الجذرية للطبقات والفئات المختلفة من الناس. ان السؤال عن حقيقة الدولة ودورها هو موضوع النضال الايديولوجي العنيف ولذا كان من الخطأ الفادح الا نهتم بتقويمه.

ان المادية التاريخية هي التي تحل السؤال المتعلق بنشوء الدولة، وجوهرها، ووظائفها، ومراحل تطورها، وتضع نظرية علمية واضحة عنها.

وكما سبق ان اوضحنا، ان تطور الانتاج المادي يؤدي حتماً الى استبدال الملكية الجماعية القبلية بالملكية الخاصة، والى انقسام المجتمع، على هذا الاساس، الى طبقات ذات مصالح مختلفة ومتناقضة.

ان ظهور الملكية الخاصة والطبقات يؤدي الى تبدلات اجتماعية هامة. فيتغير، اولاً، طابع الانتاج، والبناء الاجتماعي بصورة جذرية، وكذلك بنية ومحتوى الوعي الاجتماعي. وتنشأ مجالات جديدة وظواهر جديدة في الحياة الاجتماعية ويتميز من بينها خاصة مجال العلاقات والمؤسسات والمنظمات الاجتماعية.

ان ظهور الانتاج القائم على الملكية الخاصة يعني استبدال انتاج الجماعات العشائرية، الاجتماعي، بالاستثمارة الفردية الصغيرة او الكبيرة من مالكي وسائل الانتاج. ان الملكية الخاصة تفرق ما بين الناس وتدفعهم الى التناقض والنزاع. لكي أيعني هذا ان الملكية الخاصة تقضي، من حيث العموم، على اي لون من الوان الجماعية الاقتصادية؟ كلا بالطبع. ان الانتاج يبقى انتاجاً اجتماعياً ويتحقق بشكل علاقات انتاجية اجتماعية معينة. ومن هنا ينتج ان الافراد الذين يؤلفون مختلف الطبقات يرتبطون فيما بينهم بعلاقات اقتصادية في الانتاج، بحيث ان وجود طبقة واحدة يستدعي وجود طبقة اخرى. كما ان الافراد الذين ينتسبون الى طبقة واحدة، يتحدون فيما بينهم بقدر ما تتوفر مصلحة عامة لهم في الابقاء او تغيير هذا الشكل من المكلية الملائم لوضع الطبقة السائدة او الطبقة المستغلة. فالرأسماليون مثلاً، رغم انهم فيما بينهم، في الوقت ذاته، علاقات اخوة ماسونية تتطلبها مقاومتهم للبروليتاريا، والمحافظة على ملكيتهم منها.

وكما ان الملكية الخاصة لا تقضي على الروابط الاقتصادية بين الناس، فان انقسام المجتمع الى طبقات لا يقضي على وحدة المجتمع وتكامله، وانما هو يعطي تلك الوحدة طابعاً جديداً. فلم تعد اساس تلك الوحدة علاقات التعاون والمساعدة المتبادلة بين اعضاء الخلية الانتاجية الواحدة، بل اصبحت علاقات السيطرة والخضوع، علاقات الطبقات المتناقضة والمتنازعة. ومن الواضح ان غائية المجتمع يمكن ان تحفظ هنا نتيجة لنضال الطبقات، نتيجة لانتصار طبقة على اخرى واخضاعها لها. وهذا يعني انه يظهر، مع ظهور الطبقات، ميدان خاص للحياة الاجتماعية، ميدان العلاقات السياسية الاجتماعية، اي ميدان نضال الطبقات من اجل ادارة المجتمع كله. ان العلاقات السياسية ليست علاقة بين افراد من الناس وانما هي علاقات بين جماهير كبيرة - بين طبقات. ان للسياسة شأنها مع الملايين من الناس وليس مع

افراد. ويتجلى الدور المحدد للاقتصاد، بالنسبة الى هذا المجال الجديد، في ان الطبقة المسيطرة في الاقتصاد قادرة مادياً على الزام المجتمع كله بما تشاء، واخضاعه الى تنظيمها الاداري المسيطر.

ان العلاقات السياسية ـ بخلاف العلاقات الاقتصادية المادية التي لا تنشأ من خلال وعي الناس ـ تنشأ وفقاً لوعي الناس الذي يتكون على اساس النضال الطبقي ومن خلال سيره، ووفقاً للايديولوجية السياسية كذلك. ان العلاقات السياسية هي علاقات ايديولوجية تؤلف البنيان الفوقي للعلاقات المادية والاقتصادية. ولقد حدد لينين خصائص التأثير المتبادل بين السياسة والاقتصاد في قوله المعروف: «السياسة هي التعبير الأكثر تركيزاً عن الاقتصاد»، «وان السياسة تتمتع بالأولوية على الاقتصاد»[1].

القول الأول يحكي عن نشوء السياسة، اما الثاني فيحكي عن دورها في حياة المجتمع.

ان العلاقات الاقتصادية تنعكس على الصعيد السياسي مباشرة. وهذا يعني ان كل قاعدة اقتصادية، يتخللها التناقض بين الطبقات، تنشيء منظمة سياسية معينة ملائمة لها. وان الطبقة التي تشغل المكان القيادي المسيطر في الاقتصاد تسيطر في السياسة ايضا، اي انها ترتفع الى قوة تدير المجتمع بكامله. هكذا كانت الحال في مجتمع عهد الرق والمجتمع الاقطاعي، وهكذا هي الحال بالنسبة للمجتمعات الرأسمالية. ان المصلح الطبقية الرئيسية تحدد طابع العلاقات السياسية بين الطبقات: وبتعبير آخر، ان السياسة هي التعبير الأكثر تركيزاً عن المصالح الاقتصادية للطبقات. فالولايات المتحدة الامريكية، مثلاً، تنتهج في وقتنا الراهن، سياسة سحق الحريات الديموقراطية في الداخل، ومساندة نظم الحكم الرجعية في جزيرة تايوان، وفي

(1) لينين. المؤلفات. الجزء ٣٢ ص ٦٢.

كوريا الجنوبية، وفيتنام الجنوبية وغيرها. ان هذه السياسة تنشأ عن المصالح الاقتصادية الأساسية للاحتكاريين الأمريكيين الذين يسعون الى ابقاء سيطرتهم، وتثبيت دعائم الرأسمالية، ووقف مد الحركات الاشتراكية والديموقراطية الجبار.

ولقد اكدنا سابقاً ان الملكية الخاصة تفرق بين الناس. وان طبقة الملاكين تتوصل الى ادارة المجتمع كله عندما تكون منظمة ومتماسكة. فالطبقة تنظم ككل، ثم يوحدها وعي المصالح الطبقية العامة في نضالها مع طبقة اخرى. وفي النضال بالذات تولد المنظمة التي بمساعدتها يراص افراد الطبقة المسيطرة في كل واحد، ويُلزمون الطبقة المستثمرة والمجتمع، ككل، بمشيئتهم. هذه المنظمة هي الدولة. فالدولة هي لجنة لتسيير قضايا الطبقة المسيطرة في الاقتصاد، وتساعدها في تثبيت وتوطيد سيطرتها وادارة المجتمع بكامله. ان الدولة هي نتاج نزاع الطبقات وانعكاس له. انها نشأت من الحاجة الى تسليم زمام التناقض القائم بين الطبقات وتوجيهه لمصلحة طبقة دون اخرى. وحيث لم توجد طبقات لم تكن بالتالي دولة.

ان الماركسية، اذ ربطت نظرية الطبقات والنضال الطبقي بنظرية الدولة، بددت ذلك الضباب المحيط بقضية الدولة الذي حاكه الفلاسفة وعلماء الاجتماع. ومن جهة اخرى، فان نظرية الطبقات والنضال الطبقي تبدو ناقصة بدون الدراسة العلمية لمسألة الدولة.

ان الدولة هي مؤسسة طبقية وأداة للنضال الطبقي والسيطرة الطبقية. وهي دائماً، في جوهرها، دكتاتورية طبقة معينة. وبمساعدة الدولة ترتفع الطبقة. المسيطرة اقتصادياً الى السيطرة السياسية. فالدولة ضرورية لها كجهاز قمع وكآلة لسحق، واستثمار، واخضاع الطبقة المستغلة، وبدونها لا تستطيع أية طبقة مسيطرة ان تثبت سيطرتها لأن الطبقات المستغِلة تؤلف في المجتمع الاقلية المالكة لوسائل الانتاج الرئيسية وللثروات الهائلة، وهي تحوز، بهذا الشكل أو

ذاك، على العمل الفائض للجماهير المضطهدة. ومن أجل أن يُبقي المستغِلون على ملكيتهم وثرواتهم، ومن أجل المحافظة على وجودهم في قمة الهرم الاجتماعي كان لزاماً عليهم أن يوجدوا جهازاً خاصاً للقمع، يدعى الدولة.

ولدى دراسة قيام الدولة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار ان الدولة توحد الناس على أساس الأرض بالمقارنة، مع المنظمة العشائرية السابقة القائمة على وحدة دم القربى. ولقد لاحظ انجلس أن هذا التقسيم ـ رغم أنه يبدو طبيعياً ـ قد كلف نضالا طويلا ضد التنظيم القديم القائم على الجنس والعشيرة.

ان نشوء الدولة يعني ابراز تلك الفئات الاجتماعية من الناس التي تشتغل بالسياسة وبالايديولوجية السياسية وغيرهما، أي ابراز السياسيين والايديولوجيين.

وينعكس جوهر الدولة في وظائفها ونشاطها. ان استخدام الدولة من أجل تثبيت سيطرة طبقة على أخرى، ومن أجل القضاء على مقاومة الطبقات المضطهَدةَ يؤلف الوظيفة الداخلية الرئيسية للدولة. والى جانب ذلك ينشأ مجال الروابط والعلاقات الدولية، وعلى هذا، فان وظيفة الدولة الخارجية هي في حماية حدود الدولة من العدوان الخارجي، واقامة علاقات معينة بين البلدان. وهاتان هما الوظيفتان الرئيسيتان لكل دولة والجزءان المؤلفان لسياستها.

ولابد للدولة، من أجل القيام بوظيفتها، من أدوات السلطة، وأدوات القمع: كالجيش، والشرطة، والأجهزة القضائية، وملحقاتها الأخرى من سجون وغيرها. ومع نشوء الدولة يشكل جهاز القمع المنفصل عن المجتمع. واذا كان أفراد العشيرة يدافعون عن مصالحهم العامة بصورة جماعية قبل نشوء المجتمع الطبقي، ولم يكن لديهم قوة مسلحة خاصة منفصلة عن المجتمع، فان هذه القوة المستقلة قائمة الآن ولا يمكن للدولة أن تستغني عنها. ان هذه السلطة الكبيرة الخاصة ضرورية لأنه منذ انقسام المجتمع الى الطبقات أصبح التنظيم المسلح للسكان مستحيلا.

ولابد، من أجل انشاء جهاز للقمع، وشن الحروب، وغيرها، من أموال تجمع بشكل ضرائب من السكان. فليس في وسع أية دولة أن تستغني عن الجهاز المالي والموظفين المدنيين. إن الطبقات المستغِلة لا تضطهد الجماهير الشعبية وحسب، وانما ترغمها على تأمين متطلبات هذا الجهاز. ان عبء الضرائب لا ينفك يثقل كواهل الجماهير الكادحة، وكلما كبر جهاز القمع واتسع، اشتد عبء الضرائب على الطبقات الشعبية، وكثرت النفقات على الجيش والتسلح. ان الدول الامبريالية الحديثة تؤكد بمجموعها وجود هذا الارتباط. ولقد استطاع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ترومان خلال ثمانية أعوام، أن يحصل من ضرائب ما ينوف على مجموع الضرائب التي حصلها الرؤساء السابقون خلال قرن ونصف من الزمن. ولا تزال زيادة الضرائب في الولايات المتحدة قائمة الآن على قدم وساق. وهو أمر مرتبط بالركض وراء التسلح وبسياسة « الحرب الباردة » المناسبة للامبرياليين.

ثم ان الدولة، بالاضافة الى وظيفتيها الرئيسيتين الداخلية والخارجية، تقوم ببعض الوظائف الأخرى كالنضال ضد عناصر الاجرام، وببعض الوظائف الادارية الاجتماعية الأخرى. لكن مثل هذه الوظيفة لا تؤلف جوهر الدولة فمن قبل، حينما لم تكن الطبقات قد ظهرت الى الوجود، بعد، كان الناس يحافظون على النظام في المجتمع ويعاقبون كل من يخرق ذلك النظام دون الاستعانه بأي شكل للدولة، ولهذافان الحاجة الى حفظ النظام الاجتماعي لم يكن في وسعها أن تكون، وحدها، سبباً لنشوء الدولة.

وتقوم الدولة كذلك ببعض الوظائف الاقتصادية. فهي تنتهج سياسة اقتصادية معينة (سياسة التجارة الحرة مثلا)، وهي تمتلك أحياناً جزءاً من وسائل الانتاج الرئيسية ووسائل المواصلات، وتنظم بناء منشآت الري ومدّ السكك الحديدية، وتقوم بسن المراسيم والقوانين الناظمة للنشاط الزراعي والصناعي . . . الخ. ان تقويم محتوى ومدى هذه الوظيفة يرتبط بالشروط

المادية الموضوعية. فهي أحياناً تقوم بدور تقدمي، وأحياناً أخرى ـ بدور رجعي، كما ان مدى النشاط الاقتصادي للدولة يمكن أن يكون كبيراً أو صغيراً. لكننا تجدر الاشارة الى أن الوظيفة الاقتصادية للدولة ليست ضرورية وحتمية بالنسبة للدولة المستغِلة ولا تدخل في عداد وظائفها الرئيسية. فالوسائل الاقتصادية الرئيسية تكون في أيدي المالكين لوسائل الانتاج، والدولة تعبر عن مصالح الطبقية العامة الاقتصادية، والسياسية، وتقوم بحمايتها. ان الوظيفة التنظيمية الاقتصادية لا تكون وظيفة أساسية الا بالنسبة للدولة الاشتراكية. وبما أن وسائل الانتاج تنتقل الى أيدي المجتمع كله فان تنظيم الاقتصاد الاشتراكي يصبح مسألة مهمة للدولة الممثلة لمصالح بناة المجتمع الاشتراكي.

وهكذا، فان دولة أية دولة كانت هي، في جوهرها، منظمة طبقية سياسية للطبقة المسيطرة، وان أي كلام عن استقلال الدولة وسموّها فوق الطبقات هو اما خطأ أو خداع. والى جانب هذا فالدولة هي منظمة المجتمع الطبقي. ويعرِّف البورجوازيون الدولة بأنها منظمة تقف فوق الطبقات، وتلزمها بحدود النظام، وتوفق فيما بينها. ومهما تعددت تعريفاتهم للدولة فهم، جميعا، يلتقون في أمر جوهري هو وضع الدولة فوق الطبقات. ويأخذ بهذه الفكرة الانتهازيون والتحريفيون المعاصرون.

الدولة والنظم الحقوقية

الحق هو التعبير عن العلاقات الانتاجية التي تهتم بوجودها الطبقة السائدة وتوطيدها. وهو ينظم العلاقات بين الناس بمساعدة القوانين والاعراف ذات الطابع الالزامي. لكن النظام الحقوقي لم يكن موجوداً في كل مراحل التاريخ: فقد كان معدوما في المراحل التاريخية الأولى (في نظام المشاعة البدائية مثلا). وكانت الأعراف والعادات التي تعبر عن مصالح أفراد المجمع كلهم هي التي

تقوم بتنظيم سلوك الناس. وكان يقوم على تنفيذها كل من العادات وزعماء القبيلة وشخصية الجماعة. يقول انجلس: «لم يكن الفارق قد ظهر، بعد بين الحقوق والواجبات في النظام القبلي؛ فلم يكن الهندي يعرف مسألة الثأر أو دفع دية القتل أحق هي أم واجب، بل ولم تكن معرفة ذلك تشكل سؤالا بالنسبة له، ان هذا السؤال أشبه بالسؤال الدائر حول معرفة ما اذا كان الطعام أو النوم أو الصيد حقاً أم واجباً»

واذا كانت سلطة زعماء القبائل وشيوخ العشائر، قبل ظهور المجتمع الطبقي، تقوم على التقاليد وتعتمد على قوة شخصية الجماعة والزعيم ذاته، فان السلطة، في الدولة، تعتمد على القمع، وان قوة الشخصية انقلبت هنا الى شخصية القوة.

وبما ان العادات والاخلاق وقوة الشخصية لا تستطيع حماية الملكية الخاصة، والنفوذ، وسيادة الاقلية، ولا إرغام الأكثرية المستغَلة على تحمل الظلم والاضطهاد، لهذا يحل جهاز القمع ـ الدولة ـ محل المنظمة العشائرية، ويقوم النظام الحقوقي مقام العادات، كنظام لقواعد السلوك التي تضعها الدولة وتقوم على حمايتها. ان مهمة النظام الحقوقي هي في تقوية علاقة الملكية الخاصة واعتبار كل اعتداء عليها اعتداء على قوانين الدولة. ولهذا فان الحق ينشأ عندما يظهر التمايز الاجتماعي، وتنشأ الطبقات ذات المصالح المتناقضة، وتنشأ، بهذا كله، الشروط التي لا تتمكن فيها الأقلية المستغِلة من حماية سيطرتها الاقتصادية والسياسية اذا لم تفرض ارادتها على المجتمع كله. فالحق ـ كما عرفه ماركس وانجلس ـ ليس الا ارادة الطبقة السائدة، المحوَّلة الى قانون.

ان العلاقات الحقوقية هي، في جوهرها، علاقات بين الطبقات ـ ولا تنعكس في النظام الحقوقي المصلحة الفردية وانما المصلحة العامة للطبقة المسيطرة. وفي المجتمع الطبقي المتناقض يقوم التنظيم الحقوقي بحماية مصالح

الملكية الخاصة. ولو لم يكن الزواج والارث وغيرهما مرتبطين بعلاقات الملكية لما تناولها التنظيم الحقوقي الاعرضاً، وكذلك الحال بالنسبة للحب وللصداقة وغيرهما.

فالنظام الحقوقي يظهر كنظام للقواعد الالزامية، لسلوك الناس بقدر ما يكون معبراً عن ارادة الدولة. فبم تحدد ارادة الدولة؟ يقول انجلس: « . . ان كل متطلبات المجتمع لابد من ان تمر عبر ارادة الدولة حتى تحصل تحت شكل القانون، على قوتها الالزامية . . . لكننا نتساءل: ما هو محتوى هذه الارادة الشكلية ـ سيان اكانت ارادة شخص ما ام ارادة الدولة كلها ـ، ومن اين لها مثل هذا المحتوى، ولماذا تريد الدولة هذا الامر دون غيره؟ وعندما نجيب عن هذا السؤال نجد ان ارداة الدولة تتحدد عموماً بمطالب المجتمع المتغيرة، وبسيطرة هذه الطبقة او تلك، وبتطور قوى الانتاج وعلاقات التبادل »[1].

هذا هو الجوهر الفعلي للنظام الحقوقي. ولكنه ينعكس في الايديولوجية البورجوازية بصورة شوهاء.

ويتبدى القانون في ظاهر الاشياء كشيء ما، فوق الطبقات، يعبر عن ارادة المجتمع كله، هذا المجتمع الذي يحتاج الى نظام وتنظيم معين. وهم، اذ يثبتون هذا القول، يحاولون تأكيد الفكرة القائلة بأن المجتمع ينشأ ويتوطد بالقوانين. لكن هذا محض وهم قانوني. فقد قال ماركس: « . . . ان المجتمع لا يقوم على القانون كما يتوهم رجال القانون، وانما، على العكس، ينبغي ان يقوم القانون على اسس المجتمع، ويكون تعبيراً عن مصالحه ومطالبه العامة المنبثقة عن اسلوب مادي معين في الانتاج »[2].

---

(١) ماركس وانجلس. مؤلفات مختارة الجزء ٦ ص ٣٧٥.

(٢) ماركس وانجلس. المؤلفات. الجزء ٦ ص ٣٥٩.

ان التنظيم الحقوقي الذي يحمي مصالح الطبقة المسيطرة اقتصادياً يقوم في كل تشكيلة اجتماعية كنظام وحيد للحقوق، بل كنظام سائد. ولا يمكن ان يقوم في المجتمع نظامان حقوقيان، لأن الحق لا يعتبر الا اذا وضعته الدولة وحمته وثبتته بقوتها الالزامية. فكما انه ليس من المعقول ان تكون ثمة دولتان في المجتمع فليس يعقل ايضاً ان توجد سلطتان تشريعيتان ونظامان للحقوق.

نموذج وشكل الدولة والنظام الحقوقي

اذا كان مفهوم جوهر الدولة يفسر طبيعتها العامة خلال فترة وجود المجتمع الطبقي كلها، فان الماركسية تقدم مفهومي نموذج وشكل الدولة من أجل تحليلها ودراسة تطورها. ويتحدد نموذج الدولة بمعرفة الطبقة التي تحقق السيطرة السياسية، ودكتاتورية اية طبقة تمثل هذه الدولة. ويتعلق نموذج الدولة بالقاعدة الاقتصادية للمجتمع. لقد كان لكل تشكيلة من التشكيلات الطبقية الثلاث نموذجها الخاص؛ الرقي، والاقطاعي، والبورجوازي. وان دكتاتورية البروليتاريا هي نموذج جديد للدولة لأن العنف هنا موجه ضد الأقلية المستغلة ومن اجل القضاء على الطبقية.

وعلاوة على ذلك، ففي فترات معينة من التاريخ يمكن ان تقوم دول ذات نموذج انتقالي. ويحدث هذا عندما تتسلم القيادة طبقات تريد اجراء تحويلات اجتماعية اعمق مما يسمح به طابع الثورة. ان الدول الانتقالية هي ذلك الشكل الذي تتحقق فيه وحدة القوى المهتمة بتطوير الثورة، وتأمين الدور القيادي لتلك القوى في حياة المجتمع.

والى هذا النموذج الانتقالي للدولة تعود: دكتاتورية البروليتاريا الديمقراطية الثورية. فهي تقوم في شروط تطور الثورة ذات الطابع البورجوازي، عندما تتسلم الدور القيادي طبقة البروليتاريا المناضلة في اتحادها مع الفلاحين،

والمهتمة بتطوير الثورة ودفعها الى امام .

وفي الظروف الراهنة تتوفر، في كثير من البلدان المتحررة من التبعية الاستعمارية، وفي سير النضال الوطني التحرري ضد الامبريالية، المنطلقات لقيام دولة الديمقراطية الوطنية بقيادة اتحاد القوى الديمقراطية والتي تسلك سبيل التطور اللارأسمالي. ان شعار الديمقراطية الوطنية الذي طرح في البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية عام ١٩٦٠ ذو اهمية بالغة من اجل تصفية القوى الرجعية المتحالفة مع الامبريالية، ومن اجل النضال ضد العناصر الطامحة الى اقامة نظم الحكم الدكتاتورية والاستبدادية، ومن أجل رص صفوف كل القوى الديمقراطية وتجنيدها للنضال من اجل مصلحة الشعب الكبرى.

ان هذا النموذج للدولة او ذاك يمكن ان يظهر في اشكال مختلفة. ويتحدد شكل الدولة بطريقة الحكم (الجمهوري، الاستبدادي، المطلق، الدستوري) وبتركيب الدولة (متحدة، اتحادية). ثم ان شكل الدولة في هذا النموذج يرتبط بالشروط التاريخية الموضوعية، وبالعلاقات الموضوعية القائمة بين القوى الطبقية، وبالخصائص التاريخية لتطور هذا البلد او ذاك. ان الدول البورجوازية مثلا، تكون، من حيث شكلها، جمهوريات ديموقراطية برلمانية او دستورية او غيرها. وان نموذج وشكل الدولة يتعززان بالحقوق المسيطرة.

وقد عرف التاريخ نماذج الحقوق التالية: الرقي، والاقطاعي، والرأسمالي، والاشتراكي. ففي مجتمع عهد الرق لم يكن الأرقاء يمثلون الذات بالنسبة الى الحق، وإنما الحق كان يُبقي على الرق كملكية لسيد الرق، شأنه شأن كل موضوع للملكية. وفي الحق الاقطاعي تنعكس التغييرات الجارية في العلاقات الاقتصادية لدى الانتقال من شكل الاستثمار الرقي الى الشكل الاقطاعي. وفيه تتوطد ملكية الاقطاعيين للأرض والأشكال الاخرى لتبعية المنتجين المباشرين. ان حق القنانة او اقسى شكل من اشكال التبعية الاقطاعية. ان

الحق الاقطاعي، من وجهة النظر الحقوقية، يقوي عدم التساوي، امام القانون، بين مختلف الفئات الاجتماعية، واضعاً الفئات السائدة (الاقطاعيين ورجال الدين) في وضع امتيازي، لكن الحق في المجتمعات الأكثر تطوراً - في المجتمعات البورجوازية - يقر المساواة الشكلية بين المواطنين جميعاً امام القانون. لكنه لم يحدث قط في اي زمان او مكان مثل هذا الانفصام العنيف بين شكل الحق ومحتواه كما حدث في المجتمع الرأسمالي. فالحق هنا لا يبدو، من حيث الشكل، كارادة للطبقة المسيطرة، بل كتنظيم للعلاقات وتحديد دقيق للحقوق والواجبات يجمع بين مصالح المجتمع، ككل، والمصالح الشخصية للأفراد وللمنظمات المختلفة التي يسمح بها القانون. لكن المساواة الشكلية امام القانون تغلف هنا عدم المساوة الاجتماعية، والاستغلال المجحف للكادحين - والتبعية الاقتصادية التي تربط العامل المأجور بالرأسمالي - الملك لوسائل الانتاج. ان الجماهير الكادحة ترتبط بهذا الحق من خلال اجهزة الدولة - الجيش والشرطة والقضاء والسجون وغيرها.

اما الحق الاشتراكي فيتعارض مع كل الحقوق في المجتمعات الاستغلالية، وهو ينشأ وفقاً للوعي الحقوقي الذي تتمتع به الطبقات العاملة وجماهير الكادحين المهتمين بحماية الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وعلاقات التعاون المتبادل بين جميع افراد المجتمع الاشتراكي. وهنا بالذات يظهر الحق، لأول مرة، من حيث الشكل والمحتوى معاً، كتعبير واقعي عن ارادة الشعب بأسره.

ان التفريق بين نموذج الدولة وشكلها لذو اهمية بالغة. فاذا كان نموذج الدولة يحدد طبيعتها الطبقية، فان شكلها يحدد تلك الطرق التنظيمية والوسائل السياسية التي تحقق بمساعدتها دكتاتورية الطبقة. ففي الدول الفاشستية تتجلى دكتاتورية البورجوازية في الأشكال الارهابية السافرة. وفي دول الديمقراطية البورجوازية تكون دكتاتورية الطبقة المسيطرة مغلّفة بأقنعة من المؤسسات الديموقراطية المختلفة التي تخلق وهم الترفع عن الروح الطبقية.

وينتج عن هذا انه لا يجوز وضع الدكتاتورية والديموقراطية على طرفي نقيض، لأن الديموقراطية، في المجتمع الطبقي المتناقض، تعني دائماً دكتاتورية هذه الطبقة او تلك. وان الايديولوجيين البورجوازيين والانتهازيين، اذ يطمسون الطبيعة الطبقية للدولة الرأسمالية، يلحقون بها صفة الديموقراطية. وهم يعتبرون الديموقراطية شيئاً ما «فوق الطبقات» كالديموقراطية الخالصة»، ويضعونها في طرف مناقض للدكتاتورية. فاذاكان ثمة ديموقراطية تنعدم الدكتاتورية، في زعمهم، والعكس أيضاً صحيح. لكن مثل هذه الديمقراطية التي «تسمو» على الطبقات لاتعرفها الطبيعة، فالديموقرطية هي الوسيلة التي يمكن استخدامها لحماية الملكية الخاصة الرأسمالية، وهي آنذاك ديموقراطية بورجوازية. ويمكن للديموقراطية أن تستخدم من أجل النضال ضد الملكية الخاصة ومن أجل بناء الاشتراكية ـ وآنئذ تكون ديموقراطية البروليتاريا.

وهكذا، فان الديموقراطية لاتؤدي الى اخضاع الأقلية للأكثرية وحماية حقوق تلك الأقلية، في آن معاً، كما يزعم الايديولوجيون البرجوازيون. ان الديموقراطية هي تحديد لشكل الدولة وذات طابع طبقي.

الديموقراطية البورجوازية

ان الديموقراطية في ظروف الرأسمالية هي أحد أشكال ظهور دكتاتورية البرجوازية؛ فهي ديموقراطية الأقلية واضطهاد حقيقي لمصالح الأكثرية.

لماذا لاتعتبر الديموقراطية البورجوازية ديموقراطية للشعب؟ لأن البورجوازية هي التي تحقق عملياً السيادة فيها، ولأنها ديموقراطية شكلية للأكثرية ليس غير. وفي دول الديموقراطية البورجوازية ترتفع بالفعل شعارات الحقوق والحريات المختلفة و «تكافؤ الفرص». لكن عن أية مساواة وعن أي تكافؤ فرص بين العامل والرأسمالي يمكننا الحديث، إذا كان أحدهما يملك كل

شيء والآخر لاشيء؟. فعند تكافؤ الفرص يستطيع استخدام تلك الفرص فقط من يملك الوسائل اللازمة لذلك، وتسيطر الطبقة التي تمتلك في قبضتها الثروات، أي البورجوازية. وهي تؤثر على الحكومة والبرلمان بطرق مختلفة، وان مصالحها، بالذات، هي التي تحدد سياسة الدولة. يقول لينين: «ان التعابير العامة حول الحرية والمساواة والديموقراطية هي كالتكرار الأعمى للمفاهيم التي تقنع، علاقات الانتاج السلعي... ومن وجهة نظر البروليتاريا يوضع السؤال هكذا: التحرر من ظلم أية طبقة؟ مساواة أية طبقة مع أية طبقة؟ الديموقراطية على صعيد الملكية الخاصة أم على أساس النضال من أجل القضاء على الملكية الخاصة؟... الخ.»[١].

ان خيانة الانتهازيين للماركسية هي، قبل كل شيء، في نظرتهم الى الدولة والديموقراطية كشيء ما فوق الطبقات. فالاشتراكيون النمساويون، مثلا، يعلنون في برنامجهم: بما أن الطبقة العاملة النمساوية تمكنت أخيراً من تحقيق مساواتها مع البورجوازية فان «دولة الرخاء الاجتماعي» النمساوية لاتمثل البرجوازية وحسب، بل ومصالح البروليتاريا أيضاً. ولهذا فان الحركة نحو الاشتراكية ممكنة في اطار هذه الدولة وينبغي ان تحمل الطابع «الديموقراطي» بدون أية «دكتاتورية». ثم يأتي دور التحريفيين المعاصرين اذ يعلنون: ان الدولة لاتراقب من قبل البورجوازية في البلدان الرأسمالية وانما الأمر على العكس، أي أن الدولة تقف فوق الطبقات. ان هاتين النظرتين تتناقضان مع الوضع الواقعي للأمور. ان عملية الشراء السافر لموظفي الدولة، واتحاد الحكومة البورجوازيين، وارتباط جهاز الدولة بالاحتكارات، والتدابير المختلفة في زمن الانتخابات، والنفاق والدجل والديماغوجية... الخ كل هذا، الى جانب الوسائل المشابهة الأخرى، يستخدم من قبل البورجوازية من أجل

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٣٦٥

ممارسة دكتاتوريتها. وعندما لاتعود هذه الوسائل مجدية فان البورجوازية لاتتورع عن اللجوء الى العنف الصريح أو الى التهديد به. وعلاوة على هذا، فان الديموقراطية البورجوازية لم تكن لتمثل، في يوم من الأيام، حتى « تكافؤ الفرص » الشكلي للجميع، اذ تقوم بتحديد حق الانتخاب العام وتضييقه مما يسمح بتنحية القسم الأكبر من الكادحين عن المساهمة بالانتخابات. ففي كثير من الدول البورجوازية يجري التلاعب بأشكال كثيرة بقوانين الانتخابات التي تسمح باشتراك ممثلي الأحزاب الديموقراطية اليسارية في الجهاز التشريعي للدولة. ان المتسلطين الحقيقيين في الجمهورية الديموقراطية ـ ملوك الفحم والنفط والفولاذ، وأصحاب معامل الأسلحة والبنوك وغيرهم ـ يقفون خلف ظهر البرلمان والحكومة. وطالما أنهم يشعرون بمتانة وضعهم فانه من الخير لهم أن يجعلوا دكتاتوريتهم مقنعةً بغلالة من « الحرية والديموقراطية ».

«ان الجمهورية الديمقراطية هي افضل قناع سياسي للرأسمالية ولهذا فان رأس المال، اذ يلبس هذا القناع، يؤسس سلطته بقوة وأمان بحيث يصبح تغيير الأشخاص أو المؤسسات أو الأحزاب في جمهورية الديموقراطية ـ البورجوازية لايؤثر على سلطته »[1].

ولهذا، فان الماركسيين يعتبرون الديموقراطية البورجوازية شكلية بالنسبة للأكثرية، وحقيقيةً بالنسبة للأقلية المستغلة، وكشكل لدكتاتورية البورجوازية الملتوية والمقنعة بتمثيل الجميع وبالحرية الشخصية.

لكن النقد الماركسي للديموقراطية البورجوازية لايعني رفض استخدامها لصالح البروليتاريا. ان الديموقراطية البورجوازية، أكثر تقدمية بمقارنتها مع القرون الوسطى، أو أشكال الدكتاتورية الارهابية السافرة. وفي ظروف الديموقراطية البورجوازية تنشأ الامكانيات من أجل النشاط الرسمي لمنظمات

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٣٠ ص ٩٦.

البروليتاريا السياسية، ومن أجل تنويرها للدفاع عن حقوقها. واذا كانت الديموقراطية البورجوازية قبلة صلوات الانتهازيين، فان الماركسيين ينظرون اليها من وجهة نظر أخرى تماماً.

ان البروليتاريا هي المناضل العنيد من أجل الديموقراطية. وان كثيراً من الحريات والمكتسبات الاجتماعية التي يزعم الدعاة البورجوازيون بأنها ثمرة ديموقراطيتهم، هي في الواقع مكتسبات انتزعتها البروليتاريا من البورجوازية في نضالها العنيف، وعليها أن توطدها وتحافظ عليها وتوسعها من فترة الى أخرى. ان النضال من أجل المطالب الديموقراطية الواسعة للكادحين هو مرحلة في الطريق الى الاشتراكية، وخطوة تقدمية في النضال من أجل الشكل الأعلى للديموقراطية ـ الديموقراطية الاشتراكية لكل الكادحين. وفي عصرنا الراهن ازدادت قوى الاشتراكية والديموقراطية الى درجة صار من الممكن معها الانتقال سلمياً الى الاشتراكية، لكنه ليس عبر الطريق الذي يرسمه الانتهازيون. وان الطبقة العاملة، اذ تعقد لواء النضال الطبقي الثوري الحاسم، وتستقطب حولها الجماهير الكادحة، تتمكن في شروط معينة، من احراز الأغلبية في البرلمان، وتحويله من أداة للدكتاتورية البورجوازية الى برلمان شعبي، والانتقال الى التحويلات الاشتراكية. وان مثل هذا الطريق تضعه بعض الأحزاب الشيوعية في برامجها كالحزب الشيوعي الايطالي، والحزب الشيوعي الانكليزي، وغيرهما من الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى.

ولقد أشار المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي، في الاتحاد السوفييتي، الى امكانية سلوك هذا الطريق في ظروف التعايش السلمي. وكذلك مؤتمرا الأحزاب الشيوعية والعمالية المنعقدان عام ١٩٥٧ وعام ١٩٦٠.

ازمة الديموقراطية والبورجوازية

عنـدمـا تعجـز الديموقراطية عن حماية النظام الرأسمالي فان البورجوازية ترميها بعيداً وتنتقل الى طرق الدكتاتورية الارهابية السافرة. ان الاحتكارات الـرأسـمالية، هي على العمـوم، تناصب الديموقراطية ـ حتى الديموقراطية البـورجوازية ـ العداء. ومع تطور الرأسمالية الاحتكارية، ومع الانتقال الى الامـبريالية يتم عزوف وتحـول البـورجـوازية عن الديموقراطية الى الرجعية السياسية كما بين ذلـك لينـين. وفي مرحلة الامـبريالية تدخل الديموقراطية البورجوازية حقل الأزمات. وينعكس هذا، قبل كل شيء، في نزعة الدول البورجوازية الى الفاشية. فقد انتصرت الفاشية في ايطاليا في العقد الثاني، وفي المانيا في العقد الثالث من هذا القرن. ولم تتمكن الطبقة العاملة من ان تسد الطريق على الفاشية هناك لأنها كانت منشقة على نفسها بفعل سياسة الأحزاب الانتهازية الخائنة. لكن رفض بورجوازية ذينك البلدين، من جهة اخرى، للديمـوقراطية واختيارها الفاشية كان لا يدل على قوة تلك الطبقة وانما على ضعفهـا وعـلى خوفهـا من الحركة العمالية الثورية. ان تدمير تينك الدولتين الفـاشيتين في الحرب العالمية الثانية لم يكن يعني افلاس الفاشية العسكري وحسب، بل وافـلاسهـا السياسي والأخلاقي ايضاً. ان النزعة الى الرجعية السياسية قائمة في البلدان الرأسمالية، وهناك ثمة فوارق تحاول بعثها في شكل جديد. والرأسماليون لا يتورعون عن تحطيم الديموقراطية البورجوازية اذا ما وجدوا في ذلك مكسباً. ان المكارثية في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحركات الفاشستية العسكرية التي تساندها الاحتكارات في فرنسا، وخنق الديموقراطية في اليونان، وحظر الحزب الشيوعي في المانيا الغربية ـ كل هذه ظواهر مختلفة لنظام واحد. لكن الأمر صار اكثر صعوبة من السابق بالنسبة للرجعيين، لأن

القوى التي تقف من اجل الديموقراطية والاشتراكية نمت نمواً كبيراً في الأعوام الأخـيرة. ولهـذا فهـم يجدون انفسهم مضـطرين لتقنيع هجـومهم على الديموقراطية بشعارات «الدفاع» عن الديموقراطية. ان خطر انتشار الفاشية وبعثهـا هو في كونها مرتبـطة ارتبـاطـاً وثيقاً بالتحضير لشن حروب امبريالية عدوانية، وفي بعثها الروح العسكرية والركض وراء التسلح، وفي تضخيمها لجهاز القمع في الدول البورجوازية. ولهذا فان نضال الجماهير الكادحة، في الـظروف الـراهنـة، من اجـل الحريات الديموقراطية لا تنفصل عن قضية النضال من اجل السلام. واذا كانت شعوب البلدان الرأسمالية لا تريد ان تصبح اداة لسياسة الرأسمال الاحتكاري التي تخفي تهديداً جدياً باشعال حرب عالمية نووية تقضي على الانسانية، فان عليها ان تناضل بعناد من اجل شل حركة تلك السياسة. ان بلدان المعسكر الاشتراكي الصديق الجبار تقف الى جانبها في هذا النضال.

وهكـذا، فان الـدول البورجوازية. اياً كان شكلها، هي منظمة الطبقة المسيطرة التي تعمل من اجل توطيد النظام الرأسمالي وسحق اعداء البرجوازية الطبقيين. وليس من المفيد دائماً للبورجوازية ان تمارس دكتاتوريتها بشكل صريح، ولهـذا فهي تلجـأ الى تقنيعهـا وتمـويههـا بطرق مختلفـة. ولا تهتم البورجوازية مطلقاً بتأمين الحقوق الواسعة للكادحين كيلا يستخدموها، فيما بعـد، في النضـال ضدهـا. ولهـذا فهي تلجـأ الى المنـاورة، وتجري بعض التنازلات، لكنه اذا ما كفّت الأشكال الديموقراطية عن خدمتها فانها لا تتردد في ازاحتهـا وتحـطيم شرعيتهـا التي اوجـدتها هي ذاتها، والانتقال الى طرق الارهـاب السـافرة. وفي فترة المعارك الطبقية العنيفة تتجلى الطبيعة الطبقية للدولـة بدقة ووضوح. وبهذا يمكن تفسير تلك الحقيقة القائلة بأن الصراع الصريح المكشوف بين الطبقات يُنمي، بسرعة، وعي الجماهير السياسي.

ولقـد برهنت الماركسية ان على الدولة، اذ تنشأ مع نشوء الطبقات، ان

تختفي مع اختفائها. فالدولة ليست خالدة، ومع القضاء على الطبقات تزول الدولة حتمًا؛ وهذا ما تنفرد به الدولة الاشتراكية وحدها في مرحلتها العليا.

٢ ـ نظرية الثورة الاجتماعية

ان النظرية الماركسية ـ اللينينية عن الثورة تدرس شروط وقوانين الانتقال من تشكيلة اقتصادية اجتماعية الى اخرى في عملية التطور التقدمي للمجتمع.

الاساس الاقتصادي وطابع الثورة

ان الانعطافات الثورية في علاقات الناس الاجتماعية، في المجتمع الطبقي، مشروطة بالقوانين الموضوعية لتطور اسلوب الانتاج. وكما اوضحنا آنفاً (في القسم الأول، الفصل الثاني) فان ضرورة الانتقال من اسلوب انتاج الى آخر تنبع من فعل قانون ملاءمة علاقات الانتاج لطابع القوى المنتجة.

فالأساس الاقتصادي للثورة هو النزاع المتفاقم بين القوى الانتاجية الجديدة وعلاقات الانتاج القديمة، ومهمتها حل ذلك النزاع. ان الثورة الاجتماعية من شأنها أن تقوم بتنفيذ مهمتها التاريخية الناضجة في القضاء على علاقات الانتاج القديمة، وهي بهذا تمهد الطريق من اجل قيام علاقات انتاجية جديدة تتلاءم مع مستوى وطابع قوى الانتاج. يقول ماركس مكتشف هذا القانون:

« ان القوى الانتاجية المادية للمجتمع، عندما تبلغ درجة معينة من تطورها، تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الراهن، أو مع علاقات الملكية التي كانت قوى الانتاج ذاتها في نطاقها. وان هذه العلاقات تتحول من أشكال

لتطور القوى المنتجة الى قيود لها وعوائق. وعندئذ تبدأ مرحلة الثورة الاجتماعية »(١).

ومن هذا ينتج ما يلي:

١. ان الثورة ليست « خرقا » لسير المجتمع « الطبيعي » كما يؤكد اعداء الماركسية، وانما هي شكل ضروري للانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية الى أخرى في عملية تطور المجتمع الطبقي.

٢. ان الثورات لا تقوم على « ارادة » او « رغبة » أناس معينين أو فئات أو طبقات معينة، وانما تقوم فقط عندما تنضج لذلك الشروط المادية المناسبة.

٣. ان لكل ثورة محتواها الموضوعي الاقتصادي المعين والمستقل عن ارادة ووعي الانسان.

ونحن اذ نطبق هذه الموضوعات على تحليل الواقع، بدقة علمية طبيعيه من تحديد المحتوى الموضوعي الاقتصادي والاجتماعي لأية ثورة كانت، ومن معرفة طابعها.

ان طابع الثورة يتعلق بمعرفة تلك العلاقات الانتاجية التي تحطمها الثورة والعلاقات التي ستكون بديلا لها. ان الثورة التي تقوض العلاقات الانتاجية الاقطاعية وتثبت دعائم العلاقات الرأسمالية هي ثورات ذات طابع بورجوازي. وتتميز الثورات الاشتراكية عن تلك الثورات، فهي تحطم التناقض الرئيسي للرأسمالية بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج والأسلوب الرأسمالي الخاص في حيازة المنتوج، وذلك عن طريق القضاء على الرأسمالية واقامة علاقات الانتاج الاشتراكية.

---

(١) ماركس وانجلس. المؤلفات. الجزء ١٣ ص ٧.

المحتوى الرئيسي للثورة وقواها المحركة

لابد من أجل حل مسألة الثورة والقضاء على علاقات الانتاج القديمة من القضاء على مقاومة الطبقات المسيطرة في المجتمع القديم والتي تتمسك بزمام الدولة الحامية لتلك العلاقات. ومن أجل هذا لا بدَّ من قوة اجتماعية قادرة على النضال من أجل انتصار الثورة. وفي الطرف المقابل لقوة الطبقة المسيطرة المنظمة في الدولة، ينبغي أن تنشأ قوة تنظيمية للطبقات المكافحة من اجل قلب تلك السيطرة. ان القوة الثورية لاتتمكن من احراز النصر الجديد على القديم الّا اذا تمكنت من انتـزاع السلطة من بين الطبقة المسيطرة ومن القضاء على مقـاومتهـا. ولهـذا فالقضية الأساسية للثورة هي قضية السلطة. وان الثورة بمعنـاها الحرفي تعني انتقال سلطة الدولة من طبقة الى أخرى. وان القوى الاجتماعية التقدمية، اذ تنشىء سلطة ثورية جديدة، تستخدم هذه السلطة من أجل التحولات الناضجة في اقتصاد المجتمع.

وبـما أن مقـاومـة الـطبقة المسيطِرة تصفّى بنضال الطبقات العاملة ضد سيطرتها، المنظم، فان عمل هذه الطبقات يدفع بالثورة خطوات الى الامام، أي ان تلك الطبقات هي القوى المحركة للثورة. ولدراسة الثورة، من حيث قواها المحركة، أهمية بالغة في تقويم جوهرها وخصائصها.

يتهيأ الانفجار الثوري بسير النضال الطبقي في المجتمع القديم. والثورة هي ذروة هذا النضال، وهي تجيب على سؤال: أية طبقة ستنتصر؟ وأعني أية قوة ستضع يدها على سلطة الدولة، وتصبح القوة المسيطرة سياسياً في المجتمع.

ان ثورات الماضي جميعاً كانت تحمل في داخلها تناقضاً جذرياً.

لقد كان نضال الطبقات المستَغلة في المجتمعين الرقي والاقطاعي ما يزال قائماً خلال تاريخ ذينك المجتمعين كله. وكانت الطبقات المضطهَدة في كل

ثورات الماضي الكبرى القوة الضاربة الرئيسية والمحركة للثورة. لكنها لم تكن هي التي تجني ثمار ثوراتهـا وانما كانت تتلقفها طبقات مستغِلة أخرى حاملة للعلاقات الانتاجية الجديدة.

ولهذا، فان ثورات الماضي جميعاً كانت ثورات الأغلبية المضطهَدة لمصلحة أقلية مستغلة، ثوراتٍ ضد شكل معين للملكية الخاصة لصالح شكل آخر لها؛ كان المستغلون يتغيرون ويبقى الاستغلال.

والثورة الاشتراكية هي وحدها الخالصة من هذا التناقض. ان قوى الثورة الاشتراكية المحركة، هي الجماهير الكادحة المستغلة من قبل الامبريالية، وتقف في طليعتها الطبقة العاملة التي تندمج مصالحها مع مصالح الأغلبية الساحقة للمجتمـع، لأن ثورة الـبروليتـاريا تقـوم من أجـل القضاء على شتى أنواع الاستغلال. وفي هذه الثورة تجني ثمار النصر تلك الطبقات التي تؤلف القوة المحركة لها. ان الثورة الاشتراكية هي ثورة الأغلبية لصالح الأغلبية.

ان قضية القوى المحركة للثورة، وقضية محتواها الاجتماعي والاقتصادي مرتبطان فيما بينهما ارتباطاً وثيقاً. فيبيِّن طابع الثورة من هم الاعداء الذين توجه نارها اليهم، كما يبين المهمات التي عليها أن تحلها وبالتالي يحدد تلك الطبقات الاجتماعية المهتمة بقيامها والتي تؤلف القوة المحركة لها ويميزها عن الطبقات المعادية لها. ان طريقة التحليل الطبقي تسمح لنا، موضوعياً، بمعرفة القوى المحركة للثورة في أي ظروف موضوعي كان.

وتـرى الماركسية ـ اللينينية، خلافاً لما يعلنه الانتهازيون، أن الثورة تقوم بدور تقدمي رائع في التاريخ. وفي فترات الثورات نجد أن التاريخ يسير قدماً الى الأمام خلال فترة جد وجيزة من الزمن بالمقارنة مع الفترات الزمنية الأخرى.

وفي عصر الثـورات تقـوم الـطبقـات الاجتماعية المناضلة بتحطيم البناء الاقتصـادي الهـرم في صراعها السافر الصريح مع الطبقات المسيطرة، وان

النصر الذي تحرزه القوى الثورية التقدمية يفتح الطريق أمام التطور الصاعد للتاريخ .

يقول ماركس : « ان الثورات هي القوى المحركة للتاريخ » ولا يمكن أن تقوم ثورة ما بدون عنف ونضال وبطولة وتضحيات . « ان العنف الثوري هو تلك الأداة التي تمهد الحركةُ الاجتماعيةُ بواسطتها الرق، والفأس التي تهدم بها الأشكالُ السياسية البالية المتحجرة »[1] .

ويعتبر الماركسيون، دائماً أن نظام الثورة هو افضل « نظام » في المجتمع الطبقي، عندما تفجر الطاقة الثورية لجماهير الشعب الواسعة التي ترزح فوق كاهلها قرون كاملة من الفقر والألم والاضطهاد .

« ان الثورة هي عيد المضطهَدين والمستغلين »[2] .

ومن أجل أن تقوم الثورة التي نضجت ضرورتها الاقتصادية لا بد من وجود شروط ومنطلقات موضوعية وذاتية معينة .

ان مجموع الشروط الموضوعية اللازمة لقيام الثورة تدعى بالوضع الثوري . وأهم دلائله ـ كما يرى لينين ـ هي : أولا، سياسة الطبقة المسيطرة التي تنعكس في عدم امكانية بقاء وجود السيطرة كما هي، وعدم امكانية العيش والحكم بالأسلوب القديم . وهذا الظرف من شأنه ان يفتّ في عضد الحكومة ويجعل سياستها مائعة قانطة مما يسهل عملية قلبها .

وثانياً، « تفاقم الفقر والعوز في صفوف الطبقات المضطهَدة » التي لم تعد تطيق العيش على هذا المنوال . وان هذا من شأنه أن يدفع الجماهير الى الحركة الثورية العلنية الجريئة .

ويستطيع الحزب القائد لنضال البروليتاريا الثوري أن يجعل الاستيلاء على

(١) انجلس . « أنتي ـ دهرينغ » ص ١٧٣ .
(٢) لينين . المؤلفات . الجزء ٢١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠

الدولة مهمته المباشرة عندما يتوفر الوضع الثوري فقط، والاّ فان الحزب يقحم نفسه والجماهير في مغامرة، ويحكم على نفسه بالفشل الذريع .

بيد أن وضع ثوري كان لا يؤدي وحده الى الثورة؛ فلقد وجد الوضع الثوري في روسيا مثلا بين ١٨٥٩ ـ ١٨٩١، لكن الثورة لم تتم آنذاك، وكذلك الأمر بالنسبة لألمانيا في بداية العقد الثاني من هذا القرن . ان نار الثورة تشب وتتأجج بنجاح، فقط، عندما ينضم العامل الذاتي الى الشروط الموضوعية الضرورية .

ويتعلق بالعامل الذاتي وعي الطبقة الثورية لضرورة الثورة، وقدرتها على العمل الجماهيري المنظم الحاسم، واستعداد للمضي حتى النهاية وللموت في سبيل النضال .

ان قانون الثورة هو الجمع بين الشروط الموضوعية والذاتية، وان الحزب الماركسي اللينيني يعتمد على هذا القانون في تحضيره للقيام بالثورة الاشتراكية . وتنضج الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية بصورة مستقلة عن ارادة ووعي الطبقات والأحزاب . لكنه لدى توفر الشروط الموضوعية الملائمة يتعلق نجاح الثورة بالعامل الذاتي الذي يتعلق تكوينه الى حد كبير بالعمل التنظيمي والتثقيفي لحزب البروليتاريا . ان وعي الجماهير وتنظيمها، ووجود الحزب الثوري المقاتل المتمتع بنفوذ عاصف في أوساط الجماهير، والقادر على قيادة وتوجيه النضال، أمور تتمتع بأهمية بالغة من أجل نجاح الثورة الاشتراكية .

ان الحزب الماركسي اللينيني هو المؤهل لقيادة الثورة البروليتارية . وكما تبين لنا تجربة ثورة أوكتوبر، وتجربة الثورات الاشتراكية في بلدان الديموقراطية الشعبية، فان وجود الحزب الشيوعي هو شرط ضروري لنجاح النضال الثوري للبروليتاريا .

ولقد أبان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي كيف ينبغي تحضير الطبقة العاملة والفلاحين وتهيئهم للثورة حتى في أحلك الظروف وأشدها صعوبة .

كما أنه ضرب أمثلة أخرى في قيادة نضال الجماهير الكادحة الروسية من أجل قلب سلطة الاقطاعيين والرأسماليين في فترة الثورة ذاتها. وان لتجربة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي أهمية عالمية.

تلك هي الموضوعات الرئيسية لنظرية الثورة الاجتماعية.

الثورات البورجوازية.

ان مرحلة سقوط الاقطاعية وتثبيت دعائم سيطرة أسلوب الانتاج الرأسمالي هي عصر الثورات البورجوازية.

ان الأساس الاقتصادي للثورة البورجوازية هو التناقض بين العلاقات الاقطاعية للملكية وقوى الانتاج الجديدة التي ظهرت في حضن المجتمع الاقطاعي ومعها علاقات الانتاج الرأسمالية الملائمة لها. وان السمة المميزة للثورة البورجوازية هي أنها تبدأ عادة عند وجود شكل القطاع الرأسمالي الذي يتطور في قلب الاقطاعية: ولهذا ففي الثورة البورجوازية تقوم، الى جانب الفلاحين ـ الطبقة المستغلة الرئيسية في المجتمع الاقطاعي، ـ وفئات اجتماعية جديدة مرتبطة بظهور أسلوب الانتاج الرأسمالي: البورجوازية، البورجوازية الصغيرة، البروليتاريا الوليدة. لكن درجة مساهمة هذه الطبقات المختلفة في الثورة متباينة هي أيضاً ومتعلقة بالشروط الحسية الموضوعية.

وقد عرف التاريخ ما يسمىٌ بالثورات الفوقية، عندما كانت البورجوازية تناضل، اماً لوحدها من أجل السلطة، أو مع مساهمة الجماهير الشعبية مساهمة تكاد لا تذكر. ان هذه الثورات هي ثورات بورجوازية لا بمحتواها الاقتصادي الاجتماعي وحسب، وانما بقواها المحركة أيضاً. وان كلا من الثورة البرتغالية (١٩١٠) والثورة التركية (١٩٠٨) تخدم كمثل على ذلك.

ان مثل هذه الثورات البورجوازية ليست ذات قيمة عظيمة لأن الجماهير

لاتشترك فيها اشتراكا فعليا فلا تؤدي الثورة هنا إلا الى تغير فئة حاكمة بأخرى وتكون هذه الثورات، عادة عرجاء أي أنها تبقى كثيرا من سمات النظام القديم دون أي مساس بها.

ومن بين الثورات البورجوازية كلها التي كانت تتمتع بأهمية تاريخية تلك الثورات التي ساهمت فيها الجماهير الشعبية، والتي كان الكادحون في القرية والمدينة هم الذين يؤلفون قواها المحركة، بالرغم من أن البورجوازية هي التي كانت تتسلم منصب القيادة فيها. ان تلك الثورات البورجوازية بالذات التي قامت مابين القرنين السابع عشر والتاسع عشر كانت تلعب الدور الحاسم في قضية تثبيت سيادة العلاقات الرأسمالية. ان الثورات البورجوازية التي تساهم فيها الجماهير الكادحة مساهمة فعالة، بموجب مطالبها الخاصة، وتترك هذه المطالب طابعها فيها خلال سير الثورة كله، هي ثورات ديموقراطية بورجوازية.

وفي سير الثورة البورجوازية تسلك كل طبقة من الطبقات طريق أهدافها الخاصة. فالفلاحون يناضلون من أجل القضاء على جرائم الأقطاعية وظلمها وضرائبها التي تثقل كواهلهم بعبء لا طاقة لهم، ومن أجل الأرض. وتسعى الطبقات المستغلة في المدينة الى تحسين وضعها المادي. وتهتم البورجوازية بتوفير حرية نشاطها وبحماية ملكيتها. ويكون العدو المشترك لكل هذه الفئات الاجتماعية متمثلا في النظام الاقطاعي بحواجزه وتقسيماته الاقطاعية وأرستقراطيته، وفي الحكم المطلق المعتمد على الزعماء الاقطاعيين. وهكذا تتجه الطاقة الثورية لباقي طبقات المجتمع ضد النظام الاقطاعي؛ وتتحد الجماهير الكادحة مع البورجوازية في النضال ضد العدو المشترك.

لكن البورجوازية لم تكن لتعلن في يوم من الأيام عن مصالحها الخاصة ذات الطابع الجشع، وانما كانت تقنعها بعبارات عن الحرية والمساواة والنضال ضد «الشر» ومن اجل تحقيق «الخير» و «العدالة»... وغيرها. وكانت تظهر

مصالحها الخاصة على أنها مصالح المجتمع كله.

وقد كان لهذا الوهم أساسه الموضوعي، لأن النظام الاقطاعي كان بالفعل عدواً للشعب كله. لكن مصالح البورجوازية الخاصه ما لبثت أن ظهرت في تناقض مع مصالح الجماهير الكادحة فور تسلم البورجوازية السلطة.

« ان المهمة الرئيسية للجماهير الكادحة في الثورات البورجوازية تنحصر في تنفيذ العمل السلبي الهدام، عمل القضاء على الاقطاعية والحكم المطلق وأوضاع القرون الوسطى، بينما يبقى العمل الايجابي، أو البناء المنحصر في تنظيم المجتمع الجديد، يبقى من اختصاص الأقلية البورجوازية المالكة والمتنفذة »[1].

كانت هذه الأقلية عادة تخشى أي عمل ثوري يقوم به الشعب، فكانت تتحد معه بفعل الضرورة والى حين. فما إن تتوصل البورجوازية الى السلطة، أو حتى ما إن تحصل على « اذن » بتسلمها، وما أن تشعر بأن سيطرتها صارت مضمونة أو شبه مضمونة حتى تعلن انتهاء الثورة وتصبح مستعدة للقيام بثورة مضادة، وللتفاهم مع الحكم المطلق والاقطاع من أجل عرقلة سير تطور الثورة المقبل. وهنا في سير الثورة البورجوازية يبدأ الصراع المرير بين البورجوازية وأحزابها من جهة، وبين الجماهير الكادحة الثورية التي تبدى لها أن الثورة لم تلب، الى هذا الحد أو ذاك، مطالبها، من جهة أخرى. فتصب هذه الجماهير جام غضبها على الأغنياء والملاكين الكبار محاولة صدّ البورجوازية عن عرقلة سير تطور الثورة التالي، وعامله، بذلك، على اقتلاع الاقطاعية من جذورها في القرية والمدينة.

ان اكثر الثورات البورجوازية جذرية في عصر الرأسمالية الناهضة هي الثورة البورجوازية الفرنسية (١٧٨٩ - ١٨٩٤).

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٧ ص ٢١٠.

من الواضح أن القانونية العاملة للثورات البورجوازية تتجلى، حسب الأوضاع المتباينة، في أشكال متباينة؛ وينبغي أن نحسب لهذا الأمر حسابه عند دراسة ثورات معينة في بلدان مختلفة. ان الأهمية التاريخية لكل الثورات البورجوازية؛ في عصر الرأسمالية الناهضة، هي في أنها قضت على علاقات الانتاج الاقطاعية، ومهدت الطريق امام قيام العلاقات الرأسمالية القادرة آنذاك على تطوير قوى الانتاج.

ونحن سنتناول الثورات البورجوازية الديموقراطية التي قامت في عصر الامبريالية في أحاديثنا المقبلة.

٣ - الثورة الاشتراكية

الحتمية التاريخية والمحتوى الاساسي للثورة الاشتراكية

ان التناقض الذي يحدد الضرورة التاريخية للثورة الاشتراكية ينشأ ويتطور مع الرأسمالية. انه التناقض بين الطابع الاجتماعي لعملية الانتاج وبين شكل الحيازة الرأسمالية الخاصة. ولقد تحدثنا عن هذا من قبل. ان الثورة الاشتراكية مدعوة لحل هذا التناقض عن طريق القضاء على الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج واقامة علاقات انتاجية قائمة على الملكية الجماعية. ان هذا الانعطاف يحرر الطبقة العاملة والمجتمع كله من الاستغلال، ويقضي على عدم المساواة الاجتماعية وعلى التناقضات الاجتماعية.

ان القوة المحركة للثورة الاشتراكية هي الطبقة العاملة ومعها الجماهير الكادحة في الريف والمدينة - وبالدرجة الأولى الفلاحون - الذين ينضوون تحت قيادتها. وان النضال من أجل تحقيق سلطة الكادحين، واقامة دكتاتورية البروليتاريا هو المحتوى الأساسي للثورة الاشتراكية. وهذا يعني:

١ ـ أن البروليتاريا تقلب، في سير الثورة، سلطة البورجوازية، وتحرمها من سيطرتها السياسية، وتنتزع أدوات السلطة من بين يديها، ممهدة الطريق بهذا لدكتاتوريتها.

٢ ـ وأن البروليتاريا تحطم، في سير الثورة، آلة الدولة البورجوازية وكل الجهاز العسكري، وجهاز الأمن، وجهاز موظفيها، ممهدة الطريق بذلك لخلق جهاز الدولة البروليتارية.

٣ ـ وأن الطبقة العاملة تأخذ السلطة في سير الثورة، وتقيم دولة جديدة، هي دكتاتورية البروليتاريا الثورية، وتستخدمها من اجل تحقيق أهداف ومهمات الثورة البروليتارية في بناء الاشتراكية.

ان الانتهازيين والتحريفيين يدحضون فكرة ضرورة الثورة الاشتراكية. فهم يزعمون بأن الطبقة العاملة التي تحدث عنها ماركس وانجلس لا وجود لها اليوم. فقد ارتفعت أجورها التي كانت جد متدنية في الماضي، وصارت الآن تتمتع بجميع حقوقها، وتقف على قدم المساواة مع البورجوازية في اطار « الديموقراطية ». لذا يقضي الواجب بعدم النضال ضد « دولة الخير الاجتماعي » بل الاعتماد عليها من أجل خلق « الاشتراكية الديموقراطية » التي ينبغي تحقيقها عن طريق الاصلاحات البطيئة المستترة دون الحاق أي أذى بمصالح البرجوازية.

ان هذه الأفكار تجعل من الانتهازيين حماة للنظام الرأسمالي. الواقع ان الطبقة العاملة، استطاعت بنضالها العنيد، أن ترغم البورجوازية على اجراء التنازلات فيما يتعلق بمستوى الأجور والتشريعات الاجتماعية وغيرها. لكنه من المعروف حقاً أن نضال الطقة العاملة، في ظروف الرأسمالية، يتعارض مع نزعة الرأسمالية الى افقار الجماهير. واذن، فجميع هذه المكتسبات ليست وطيدة، وانما هي مهددة بانقضاض البورجوازية عليها، بين فترة وأخرى، حينما تسمح الظروف بذلك. والطبقة العاملة، في الواقع، غارقة في البؤس

والبطالة. وبالاضافة الى ذلك فالرأسمالية كانت أعجز من أن تخلص الانسانية من الجوع والفقر، حتى إن في بعض البلدان مناطق كاملة لا يزال فيها مستوى المعيشة على درجة سحيقة من اللانخفاض.

ثم ان المساواة السياسية بين العمال والرأسماليين ذات طابع شكلي محض. ولهذا فان الطبقة العاملة لا تتساوى مع البورجوازية سواء في العلاقات الاقتصادية أو السياسية.

ولقد حدثت تغيرات جوهرية، بالفعل، في وضع الطبقة العاملة بالمقارنة مع وضعها في القرن الماضي. لكن هذا لايبطل فعل القوانين الأساسية للرأسمالية وضرورة ثورة البروليتاريا التي أكدها ماركس في « رأس المال ». وان هذه التغيرات ـ كما سنرى ـ تُغيّرظروف النضال، لكنها لا تحمل الشك الى مسألة النضال ذاته.

ان استبدال دكتاتورية البورجوازية بدكتاتورية البروليتاريا ـ كما هي الحال مع أية ثورة سياسية ـ يتضمن احتمال العنف، بل وضرورة استعماله أحياناً ان الايديولجيين البورجوازيين يتهمون الشيوعين، بانهم اذ يقرون ضرورة الثورة والدكتاتورية الثورية، أنصار للعنف، بينما الانتهازيون أعداء له. وليست هذه التهمة كاذبة وحسب، وانما تنضح بالنفاق.

فالشيوعيون يرون أنه، طالما توجد الطبقات والنضال الطبقي والدولة، فان العزوف عن مبدأ العنف لامبرر له، لأن الدولة نفسها هي أداة للعنف. ولهذا فالسؤال ينبغي أن يطرح بشكل آخر: الى جانب أي عنف يقف هذا الحزب أو ذاك؟، وأي عنف ذاك الذي يلجأ اليه ـ رجعي أم ثوري؟ ان الشيوعيين، اذ يدحضون ويشجبون العنف الرجعي، يعتبرون استخدام العنف لمصلحة التقدم التاريخي مبرَّراً، أي العنف الثوري.

والتاريخ يعرف حركات قامت تحت راية النفي المبدئي لأي عنف كان. لكن تلك الحركات لم تستطع، في يوم من الأيام، ارغام الطبقات الرجعية على

وفض تطبيق العنف لمصلحتها. وعلاوة على ذلك، فان الامبريالية لاتخلق عنفاً وحسب، وانما تطبق عنفاً أسطورياً متوحشاً لامثيل له. فقد تسبب الامبرياليون في اشعال نار حربين عالميتين راح ضحيتهما عشرات الملايين من الناس. وان الفاشية، بايديولوجيتها الوحشية، وعبادتها للقوة المتوحشة، هي البنت البارة للامبريالية. والامبرياليون يستعدون لاضرام نار حرب عالمية جديدة يحترق في أتونها مئات الملايين من الناس. ولقد قاموا، ومايزالون، بحروب استعمارية ساحقين، تحت أقدامهم، أماني الشعوب المشروعة في التحرر الوطني. ان الرأسماليين لايتورعون عن استخدام أقسى أنواع وسائل العنف ضد الطبقة العاملة عندما تشعر البورجوازية بالخطر منها على مصالحها. وبعد هذا كله فان الايديولوجيين البورجوازيين الانتهازيين - خدام الرأسمالية - يجرؤون على التصريح بأنهم أنصار الاساليب الانسانية التي تنفي العنف. فلماذا اذن يدافعون عن النظام الذي يولد أشد أنواع العنف ضراوة ووحشية؟!

ان الشيوعيين السائرين على النهج الماركسي - اللينيني يقرون الدور التقدمي للعنف الثوري في التاريخ، لكنهم ليسوا أنصاراً لحتمية استخدامه مطلقاً. فهم يناضلون من أجل المجتمع الجديد الذي ينسجم ومطامع الشعوب. ويعتبرون أنه اذا لم يكن ثمة داع لاستخدام العنف فينبغي ألا يقوم بأية حال من الأحوال. فالعنف وسيلة وليس هدفاً بذاته. وتتحدد درجة استخدامه بدرجة مقاومة الطبقات الرجعية الهرمة. فكلما كانت هذه المقاومة عنيدة وجادة اضطرت القوى التقدمية الى استخدام هذا الشكل من العنف أو ذاك. وان تاريخ الحركة العمالية الثورية يؤكد ذلك. ان ثوار كومونة باريس كانوا مضطرين للذهاب الى القلاع لمقاومة ضغط الفيرساليين. لكنهم لم يفلحوا، وأغرقت الكومونة بدماء العمال. وان رجال الحرس الأبيض هم الذين أشعلوا نار الحرب الأهلية في روسيا معتمدين على مساعدة الامبرياليين الأجانب. وهذا مااضطر الطبقة العاملة والفلاحين الى الدفاع عن مكتسبات

الثورة بالسلاح. وان صيحات تشان كاي شيك عقدت لواء الحرب الأهلية في الصين بالرغم من الاقتراحات السلمية التي قدمها الحزب الشيوعي هناك. وفي بلدان الديموقراطية الشعبية الأخرى، حيث لم يكن في وسع أعداء الثورة اشعال نار الحرب الأهلية، عَبَرَتْ الثورةُ الطريقَ السلمي دون أن تقوم أعمال العنف الا بالحد الأدنى مما يكن أن يكون.

وهكذا، فان انتزاع البروليتاريا للسلطة في سير الثورة الاشتراكية يتضمن، حتماً، عنصر العنف. لكن مقدار ودرجة هذا العنف يتعلقان بقوة مقاومة الطبقات التي يطاح بها.

الامبريالية هي عشية الثورة الاشتراكية

بالرغم من أن المقدمات المادية للثورة الاشتراكية، في بعض البلدان الرأسمالية المتطورة، بدأت تنضج في القرن التاسع عشر، فان التشكيلة الرأسمالية كانت لاتزال تتطور في خط صاعد.

لقد ذكرنا آنفاً أن مهمة الرأسمالية التاريخية كانت في إضفاء الصفة الاجتماعية على عملية الانتاج، وتتم عملية الانتاج الاجتماعي عندما تخلق الصناعة، الضخمة لنفسها قاعدة تكنيكية جبارة هي صناعة الآلات للآلات. ففي البلدان الرأسمالية الكبرى وجد الانتاج الآلي الضخم قبيل العقد السابع من القرن الماضي، وعند ذلك أيضاً كانت الرأسمالية ماتزال تتطور. وقامت البلدان الرأسمالية الكبرى بالسيطرة على المستعمرات، ومناطق النفوذ، وأسواق التصدير، ومنابع المواد الأولية. ونتيجة لذلك تضخمت الحاجة الى السلع الصناعية، وظهرت الدوافع الكامنة لنمو الانتاج الصناعي. وبالاضافة الى ذلك، فان البلدان التي سلكت طريق التطور الرأسمالي، مؤخراً، لم تستنفد كل احتياطاتها الداخلية للتطور. لكن تلك الاحتياجات نفذت في بداية القرن

العشرين، وتفاقم التناقض الرئيسي في المجتمع الرأسمالي واحتدم حتى النهاية، وصار بقاء العلاقات الرأسمالية أقوى عائق لتطور الانتاج، ودخل النظام الرأسمالي العالمي مرحلة الغروب. لقد دخلت الرأسمالية عصراً جديداً، وظهر في اقتصادها وفي سياستها كثير من الظواهر الجديدة التي لابد من دراستها دراسة علمية.

ولقد قام لينين بهذا العمل. فهو، اذ اعتمد على موضوعات ماركس في «رأس المال» وأبدع أفكاراً جديدة كثيرة، توصل الى القول بأن الرأسمالية دخلت، في بداية القرن العشرين، مرحلة عليا جديدة من تطورها، هي مرحلة الامبريالية، المعبرة عن تفسخ الرأسمالية. ان الأساس الذي قام عليه هذا الاستخلاص هو أنه، نتيجة لعملية تمركز رأس المال، صارت الاتحادات الرأسمالية الكبرى - الاحتكارات - هي التي تقوم بالدور الاساسي في الاقتصاد، اذ تفرض رقابتها على كل فروع الصناعة برمتها، وتملك في أيديها الثورات الهائلة. وان استبدال المزاحمة الحرة بالاحتكارات كان يعني ظهور النزعة الى الجمود في الاقتصاد.

ثم ان مايميز الرأسمالية أيضاً هو الاندماج بين الرأسمال المصرفي والرأسمال الصناعي وظهور الرأسمال المالي والطغمة المالية - القلة القليلة لأقطاب رأس المال التي تستغل جبروتها الاقتصادي في اخضاع جهاز الدولة ووسائل التأثير الايديولوجي المختلفة الأخرى الضرورية لتوطيد سيطرتها. ان مصالح الاحتكارات تتناقض مع مصالح الشعب تناقضاً كلياً.

ثم ان الحدود القومية تضيق بالاحتكارات. ولهذا فهي، في سعيها خلف الربح، تستغل مستعمراتها استغلالاً فاحشاً حيث تكون المواد الأولية رخيصة، وكذلك اليد العاملة، وتقوم بامتصاص ثروات تلك البلدان، وتسبب نقمة شعوبها المستَغلة المضطهدة. وأخيراً فان لينين يشير الى بعض السمات الهامة للامبريالية: كتقسيم العالم الى مناطق نفوذ بين الاحتكارات

الرأسمالية الكبرى. وقد كانت تلك السمات بمجموعها تدل على التفاقم الحاد لكل تناقضات الرأسمالية، ونمو الدور الطفيلي للطبقات المسيطرة.

وينبغي أن ندرس الانتقال الى الامبريالية كظهور المرحلة الذي ينضج فيه النظام الرأسمالي من اجل الثورة الاشتراكية. لقد توصل لينين الى هذه النتيجة أيضاً، مُبيناً أن بين رأسمالية احتكارية الدولة وبين الاشتراكية لا توجد أية درجات انتقالية أخرى في سلم التطور التاريخي. وان الأساس المادي لقيام الثورة الاشتراكية يتم في غضون مرحلة الامبريالية.

والى جانب هذا، ففي عهد الرأسمالية تنمو القوى الثورية نمواً ملحوظاً. ان عملية استغلال الطبقة العاملة تزيد من احتدام التناقض بين البروليتارية والبورجوازية. وتزداد عند الطبقة العاملة النقمة على الرأسمالية، ويزداد وعي البروليتاريا. ان الامبريالية هي التي تدفع الطبقة العاملة الى الثورة. لكن الامبريالية لا تحاول خنق الطبقة العاملة وسحقها بكل وحشية وحسب، وانما هي تضطهد أيضاً الفلاحين، والبورجوازية الصغيرة في المدينة والمثقفين. ان الطبقة العاملة تستطيع أن تجد حلفاء لها مخلصين بين تلك الفئات الاجتماعية.

ثم ان الاحتياط الضخم الآخر للبروليتاريا تشكله شعوب المستعمرات والبلدان التابعة للنفوذ الاستعماري. ففي المستعمرات يتخذ الظلم الاستعماري أشكالا وحشية لا مثيل لها، ويكون الكره والنقمة على الامبريالية وعلى الأجانب الدخلاء المضطهدين على أشدها. ان المستعمرات هي القوة الرئيسية للنضال ضد الامبريالية ومن أجل التحرر الوطني وحليف الثورة البروليتارية.

وهكذا، ففي عهد الامبريالية تتسع القاعدة الاجتماعية للنضال ضد طاغوت رأس المال. فيتحول الفلاحون من حليف للبرجوازية الى حليف للبروليتاريا. وتتحول شعوب المستعمرات، نتيجة لتطور نضالها الوطني التحرري، من قوة احتياطية للامبريالية الى قوة احتياطية للثورة الاشتراكية البروليتارية. وكل تلك

القوى المعادية للاستعمار ينبغي أن تنقاد في نضالها للطبقة العاملة ـ القوة الثورية الرئيسية في عصرنا الراهن ـ من أجل توجيهها جميعاً ضد النظام الرأسمالي. ان نمو القوى الثورية المعادية للامبريالية من شأنه أن يسهل انتصار البروليتاريا على البورجوازية.

هذه هي النتيجة الثانية التي استنبطها لينين من تحليله للمرحلة الجديدة في تطور الرأسمالية.

وأخيراً فقد أبان لينين، لدى تحليله للشروط التاريخية الجديدة، كيف أنه بفعل قانون التوازن في التطور السياسي والاقتصادي للرأسمالية، وفي ظروف تقسيم العالم الى مناطق نفوذ، تتفاقم التناقضات الامبريالية الداخلية بين البلدان الرأسمالية المختلفة. وان هذه التناقضات تؤدي الى صراع من أجل إعادة تقسيم العالم والى الحروب الامبريالية.

وهكذا، فان انتقال الرأسمالية الى مرحلة تطورها العليا يعني أن النظام الرأسمالي للاقتصاد صار غير ملائم أبداً لمتطلبات تطور قوى الانتاج، وأن الابقاء على الرأسمالية يشكل خطراً عظيماً على الانسانية، ويؤدي الى تدمير الانتاج في فترات الأزمات والحروب التي تقضي على جماهير البشر وعلى الثروات المادية معاً.

والى جانب هذا فان الامبريالية، اذ تهيء المقدمات المادية لقيام الثورة الاشتراكية، وتزيد من تفاقم جميع تناقضات الرأسمالية، توجد الشروط التاريخية الجديدة لتطور الثورة الاشتراكية.

تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية

ان تحليل الثورات البورجوازية المبكرة يبين كيف أن الجماهير الشعبية كانت تسير في أعمالها الثورية الى أبعد مما تريده البورجوازية، وهي ذاتها التي كانت تسير بالاصلاحات البورجوازية حتى النهاية بالرغم من مقاومة البورجوازية لها

في بعض الأحيان.

ومن جهة أخرى فقد كانت البورجوازية تتسلم قيادة الثورة، وتجمع السلطة بين يديها، وتصفي حسابها لا مع قوى المجتمع القديم وانما مع حليفتها في النضال ضد الاقطاعية ـ مع الجماهير الشعبية. ان ضعف البروليتاريا، وعدم تنظيم الجماهير الكادحة كانا يتيحان للبورجوازية احراز النصر على الشعب.

إن نسبة القوى الطبقية في الثورة الديموقراطية البورجوازية القائمة في ظروف الامبريالية تختلف عن غيرها من النسبة السابقة.

ففي فترة الامبريالية يكون باستطاعة البروليتاريا أن تقود الثورة الديموقراطية البورجوازية شريطة أن تكون درجة جيدة من التطور والتنظيم، وأن يكون لها حزبها السياسي المستقل القادر على شل حركة البورجوازية، وتسلم قيادة الحركة. ان الثورة الروسية، عام ١٩٠٥، كانت أول ثورة ديموقراطية بورجوازية في عصر الامبريالية.

كانت تتوفر في روسيا طبقة البروليتاريا الواسعة الكبيرة ومعها حزبها السياسي. ولم تكن البورجوازية قوة ثورية، لأنها كانت تخشى الأعمال الثورية للعمال.

هذا التبدل في الظروف مكن الطبقة العاملة من تسلم قيادة الثورة الديموقراطية البورجوازية من أجل القضاء على كل مخلفات الاقطاعية قضاء مبرماً. وكانت الطبقة العاملة تطمح من أعماقها الى احراز النصر التام على القيصرية. ولقد أشار لينين الى أنه في استطاعة الطبقة العاملة القيام بهذه المهمة فتتسلم زمام قيادة الثورة، وتتقدم الفلاحين، وتشل قدرة البورجوازية على الحركة، وتجمع كل القوى الثورية في سيل عارم هادر يجرف في طريقه القيصرية.

ان الفلاحين هم حلفاء البروليباريا في الانعطاف الديموقراطي البورجوازي اذ يهمهم جميعاً القضاء التام على ملكية الاقطاعيين للأراضي.

يقول لينين: ان انتصار الثورة يتطلب تشكيل حكومة ثورية مؤقتة ـ حكومة دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين، الديمقراطية الثورية ـ وهي مدعوه لسحق مقاومة اعداء الثورة وتوطيد مكتسباتها.

لقد صيغ تكتيك البلشفيك هذا من أجل الاستمرار في الثورة وتحويلها من ثورة ديموقراطية بورجوازية الى ثورة اشتراكية.

لقد أبان لينين « أن النضال البروليتاريا من أجل الحرية والجمهورية الديموقراطية، في المجتمع البورجوازي، هو احد المراحل الضرورية في النضال من أجل الثورة الاجتماعية التي من شأنها أن تقلب النظام البورجوازية »[١].

ولقد تحدّدت امكانية تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية بذلك الظرف الذي تنسجم بموجبه مصالح الاقطاعيين والقيصرية مع مصالح الامبريالية.

ان الشرط اللازم لنجاح تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية هو تسلم البروليتاريا زمام قيادة الثورة، وهذا يبقى مستحيلا ما لم يوجد حزبها الماركسي اللينيني الثوري الذي ينتهج سياسة مبدئية مستقلة ممثلة لمصالح البروليتاريا في سير الحركة كلها، إنه حزب البلشفيك اللينيني المجيد؛ وتلك هي الموضوعات الأساسية للنظرية اللينينية حول تحول الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية.

ان البروليتاريا تسير الى الثورة الاشتراكية متحدة مع الفلاحين الفقراء والعناصر شبه البروليتارية في المدينة والريف.

هذه هي أسس النظرية اللينينية لتحويل الثورة البرجوازية الديموقراطية الى ثورة اشتراكية.

---

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٨ ص ٨.

ولقد انعكست في طريقة وضع لينين لمسألة دور البروليتاريا في الثورة الديموقراطية البورجوازية قوة الدياليكتيك الماركسي الذي يتطلب فهماً صحيحاً للماركسية والقدرة على دراسة نسبة القوى بين الطبقات دراسة دقيقة شاملة.

« ان الثورات البورجوازية ترينا الألوان العديدة من التحالفات بين الفئات والعناصر وكذلك بين أوساط البرجوازية والطبقة العاملة » وان « اعتصار » الجواب على المواضيع الحسية للثورة البورجوازية الروسية التي قامت في العقد الأول من القرن العشرين استناداً الى « مفهوم الثورة البرجوازية العام »، بمعنى الكلمة الضيق، هو عملية انحطاط بالماركسية الى مستوى الليبرالية[١]

لقد أثبتت النظرية اللينينية حول تحويل الثورة الديموقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية امكانية تقريب الأجل بين هاتين الثورتين في عصر الامبريالية. وحطمت الموضوعة، الانتهازية لقادة الأممية الثانية عن حتمية وجود الفترة الزمنية الطويلة بين الثورة الديموقراطية البورجوازية والثورة الاشتراكية.

ان أفكار لينين عن هيمنة البروليتاريا على الثورة الديمقراطية البورجوازية وعن دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين، الديمقراطية الثورية، وعن تحول الثورة الديمقراطية البورجوازية الى ثورة اشتراكية، وعن اتحاد البروليتاريا مع العناصر نصف ـ البروليتارية في الثورة الاشتراكية تنير درب نضال البروليتاريا ضد الامبريالية ومن أجل انتصار الاشتراكية.

ولقد زادت امكانية تقريب الحركة الديمقراطية من النضال في سبيل الاشتراكية في وقتنا الحاضر. وسبب هذا: أولا، ظهور المعسكر الاشتراكي

---

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ١٧ ص ٣٦٨.

الجبار الذي أضحى العامل الحاسم في التطور العالمي ؛ وثانياً، تغير المحتوى الاجتماعي للحركة الديموقراطية ذاتها ؛ وثالثاً، اتساع قاعدة النضال الاجتماعية من أجل الاشستراكية.

فاذا كانت الحركة الديموقراطية موجهة في الماضي (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن االعشرين) ضد الاقطاعية ومخلفاتها فان للحركة الديموقراطية المعاصرة خصمها الرئيسي ـ الرأسمال الاحتكاري. ولايعني هذا، بالطبع، حذف قضايا النضال ضد الاقطاعية من برنامج اليوم. إن مثل هذه القضايا لاتزال قائمة في كثير من البلدان، لكنها تؤلف جزءاً من النضال ضد الامبريالية ـ سالبة حريات الشعوب وعدوها الرئيسي.

وبما أن المنطلقات الداخلية والخارجية للاشتراكية في عصرنا الراهن صارت أكثر ملاءمة مما كانت عليه قبلا، فانه حتى في البلدان المتخلفة التي تحررت من نير الاستعمار ثمة مجال واسع للتطور في الطريق اللا رأسمالي وعلى أساس اقامة دولة الديموقراطية الوطنية. وصار في استطاعة أية دولة ـ بصرف النظر عن مستوى تطورها ـ أن تقف على الطريق المؤدي الى الاشتراكية »[1].

لقد بين لينين أن جماهير الريف والمدينة ـ أنصاف البروليتاريين ـ يمكن أن يصبحوا، في ظروف الامبريالية، حلفاء مخلصين للبروليتاريا في الثورة الاشتراكية. وهم يشكلون، الى جانب البروليتاريا، غالبية السكان، ولهذا فليس ثمة داع لتأجيل عمل الثورة الاشتراكية إلى أجل آخر. فقد سارت الطبقة العاملة، في بلدان الديموقرطية الشعبية، في طريق التحويلات الاشتراكية وذلك باتحادها مع الفلاحين. وتزداد خيبة أمل الفئات المثقفة الواسعة بالرأسمالية كلما تكشف لها تفسخها وطابعها اللاانساني. لكن هذا لايعني أنها ستقف فوراً ودونما تردد تحت راية الاشتراكية. إن قسماً منها سوف

(١) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ص ١٠٤ ـ ١٠٥

يتردد كثيراً. لكنه سوف تنشأ امكانية جذبهم الى صفوف النضال من أجل الاشتراكية. ان اتساع القاعدة الاجتماعية يسهل النضال من أجل الاشتراكية، ويتيح فرصة الانتقال من المرحلة الديموقراطية الى المرحلة الاشتراكية بدون احداث تبديل جوهري في اعادة توزيع القوى، عن طريق التطور السلمي للثورة الاشتراكية، كما حدث في بلدان الديموقراطية الشعبية.

ان الانتقال الى الاشتراكية هو المطلب العام في عصرنا الراهن، . وتزداد ضرورته يوماً بعد اليوم. وان الانتاج والعلم والمشاعر الديموقراطية والانسانية للجماهير، وحاجه البلدان المتخلفة الى التطور، وأخيراً، مجالات وجود الانسانية وتطورها ـ كل هذه دخلت في تناقض صارخ مع الرأسمالية ومع علاقاتها الانتاجية. ولهذا فان الحركات الديموقراطية المعاصرة جميعها يمكن أن تشترك اشتراكاً فعلياً وحاسماً في النضال من أجل الاشتراكية دون أن تفقد، بهذا أهميتها التاريخية الخاصة.

ولقد بينت النظرية اللينينية كيف تتفتح أمام حزب البروليتاريا، في عصر الامبريالية، امكانية وضرورة الحركة الشعبية الواسعة ضد الاضطهاد الامبريالي والاضطهاد القومي ونصف الاقطاعي، ثم توجيهها الى خط النضال من أجل الثورة الاشتراكية ودكتاتورية البروليتاريا.

« ان العالم يعيش عصر الثورات. ان الثورات الاشتراكية، والثورات الوطنية التحررية ضد الامبريالية، والثورات الديموقراطية الشعبية والحركات الفلاحية الواسعة، ونضال الجماهير الشعبية من أجل قلب أنظمة الحكم الفاشية والاستبدادية الاخرى، والحركات الديموقراطية العامة ضد الاضطهاد القومي ـ كل هذه تندمج في عملية ثورية عالمية واحدة من أجل نسف دعائم الرأسماليةوتحطيمها[1].

(١) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي.

تطور الثورة الاشتراكية

ان لينين، اذ طور نظرية الثورة الاشتراكية، حددَّ طرق تطورها في عصر الامبريالية.

لقد عاش ماركس وانجلس في فترة رأسمالية ماقبل الاحتكار، عندما كانت الرأسمالية ماتزال تتطور في خط صاعد، ولم يكن نظامها قد نضج بعد من أجل قيام الثـورة، وعندما كانت الشروط المادية للثورة قد بلغت درجة معينة من النضوج في بعض بلدان أوربا وأمريكا الأكثر تطوراً فقط. ولقد رأى ماركس وانجلس ان الثورة البروليتارية يمكن أن تنتصر فقط عن طريق توحيد جهود البروليتاريا في البلدان الرأسمالية التقدمية في البلدان الرأسمالية المتطورة جميعها في الوقت ذاته، وأن انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد يستحيل في مثل تلك الظروف. هكذا كتب انجلس في « مبادىء الشيوعية »: « ان الثورة الشيوعية لن تكون على الصعيد القومي وحسب، وانما ستقوم في كل البلدان المتطورة في آن واحد، أي في انكلترا وأمريكا وفرنسا وألمانيا على الاقل ». ولقد أكد ماركس وانجلس ان الثورة الاشتراكية ليست عملا قصير الأجل، وانما هي عصر كامل من المعارك العالمية التي تقوم بها البروليتاريا ضد أعدائها الطبقيين. لقد كانت هذه الموضوعة القائلة أنه من أجل انتصار الثورة الاشتراكية ينبغي أن تقوم الثورة في كل بلدان الرأسمالية المتطورة في زمن واحد، كانت موضوعة صحيحة بالنسبة لفترة رأسمالية ماقبل الاحتكار، وتنسجم مع الشروط التاريخية لذلك العصر. لكن الظروف تغيرت في عصر الامبريالية. ففي عصر الامبريالية اصبح القانون اللينيني عن التطور الاقتصادي والسياسي غير المتكافىء صاحب التأثير الحاسم على تطور الثورة الاشتراكية.

فلقد برهن لينين، بعد ان درس الاسباب الاقتصادية والسياسية للحرب العالمية الاولى، على أن تلك الحرب كانت حرباً بين الامبرياليين من أجل

اعادة تقسيم العالم، وقامت كنتيجة لاختلاف نسبة القوى في أعقاب التباين في التطور الاقتصادي. فبفضل التطور الهائل لتكنيك الانتاج في البلدان الرأسمالية الكبرى صار في امكان بعض تلك البلدان، خلال فترة وجيزة نسبياً من الزمن، اللحاق بالبلدان الاخرى الاكثر تطوراً، وذلك بعد أن حققت وتيرات أعلى في التطور الاقتصادي. وبذلك يختل توازن القوى السابق، ويبدأ الصراع من أجل اعادة تقسيم العالم حسب شريعة الغاب الرأسمالية، وتحتدم تناقضات الرأسمالية الى درجة التفاقم. ان التباين في التطور الاقتصادي، وما ينشأ عنه من تناقضات في الرأسمالية الاحتكارية، كانا سبب اندلاع الحربين العالميتين الاولى والثانية.

ان التباين في التطور الاقتصادي، اذ يزيد من تفاقم تناقضات الرأسمالية، يضعف جبهة الامبريالية ويمكن من قطع السلسلة الامبريالية في أضعف حلقاتها.

ويمثل الحلقة الضعيفة في سلسلة الامبريالية ذلك البلد الذي توجد فيه طبقة قوية واعية ثورية منظمة لها حلفاؤها الجديون، وحيث تكون الطغمة الحاكمة فريسة الضعف والعزلة، وحيث تكون كل تناقضات النظام الرأسمالي متطورة ومتفاقمة.

وهكذا، ينجم عن تباين التطور الاقتصادي، في بلدان مختلفة، تباين في نضج الثورات فيها، أي تباين في التطور السياسي، وفي امكانية البلد الذي حقق ثورته في الثبات امام حصار الدول الامبريالية له. وبتعبير أكثر ايجازاً، ينتج عن قانون تباين التطور الاقتصادي والسياسي في عصر الامبريالية عدم امكانية قيام الثورة الاشتراكية العالمية وانتصارها في كل البلدان، بل على العكس، تظهر امكانية انتصار الثورة في بعض البلدان أو حتى في أحدها. لقد توصل لينين الى هذه النتيجة في عام ١٩١٥.

ان النظرية اللينينية حول امكانية انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد

كانت بمثابة نبوءة علمية عبقرية رائعة معتمدة على تحليل الوضع الدولي لنضال البروليتاريا الطبقي. ولقد شجعت هذا النظرية صفوف البروليتاريا في كل البلدان لان تبادر الى النضال ضد « بورجوازياتها ».

لقد كانت روسيا تمثل الحلقة الضعيفة في سلسلة الامبريالية، في بداية القرن العشرين. ولقد استطاعت الطبقة العاملة الروسية، باتجادها مع الفلاحين، أن تحقق، لاول مرة في التاريخ، انتصار الثورة الاشتراكية في بلد واحد. وقد برهن التطبيق العملي، بصورة رائعة، على صحة النظرية اللينينية.

ثم ان التطور التالي للثورة الاشتراكية يحدث أيضاً بشكل متباين، عن طريق نضوج الثورة في بعض البلدان وفصلها من سلسلة الامبريالية وتوحيدها في معسكر اشتراكي واحد. لكنه صار في استطاعة الثورات المقبلة أن تعتمد على مساعدة وتأييد البلدان الاشتراكية. ولقد كان تأييد الاتحاد السوفياتي ـ أول بلد حقق الثورة الاشتراكية ـ أحد العوامل الحاسمة في انتصار الثورة في بلدان الديموقراطية الشعبية.

ان ظهور وتعزيز النظام الاشتراكي من شأنه أن يحدث تغييرات مهمة في الوضع الدولي. فاذا كان اضعاف جبهة الامبريالية في الماضي ـ في الربع الاول من القرن الحالي ـ يرتبط باحتدام التناقضات الداخلية، فان اضعاف جبهة الامبريالية العامة الآن، هو نتيجة لانقسام العالم الى نظامين ولتطور وتعزيز النظام العالمي للاشتراكية. وبهذا ترتبط زيادة امكانية ضرب سلسلة الامبريالية في حلقاتها الضعيفة في الظروف العالمية بدون الحروب الامبريالية والاهلية.

إن الحرب لم تكن في يوم من الايام سبباً للثورة، لكنها، اذ تعجل في احتدام التناقضات جميعاً، تعجل في نشوء الوضع الثوري وتدفع بالانفجار الثوري خطوات الى الامام. ولهذا كانت ثورة اوكتوبر الروسية وكذلك الثورات في بلدان اوربا الشرقية وآسيا، كانت نتيجة لاحتدام التناقضات الذي عجلت به

الحربان العالميتان. ولكنه من الخطأ الاستنتاج هنا أن الثورة لايمكن أن تقوم بدون حرب. ان الامر على العكس من ذلك في وقتنا الحاضر، حين تنشأ الظروف الملائمة لقيام الوضع الثوري بدون حروب. لكنه اذا ما أفلح الامبرياليون في اشعال نار حرب عالمية جديدة فانها ستنتهي حتماً بافلاس النظام الرأسمالي افلاساً تاماً والى الابد.

أزمة الرأسمالية العامة

ان انهيار وتفسخ وهلاك الرأسمالية من جهة، وقيام وتطور وانتصار الاشتراكية ـ من جهة أخرى، يؤلفان الخطين الاساسيين التاريخيين لعصرنا الحاضر الذي يؤلف الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية، محتواه الاساسي.

لقد دلَّ انتقال الرأسمالية الى الامبريالية على أن تطور التشكيلة الرأسمالية بدأ ينحدر في خطه النازل. ولقد كانت الحرب العالمية الاولى ـ التي ابتلعت ملايين الناس ومقادير هائلة من القيم المادية ـ الصورة المظلمة لبدء سقوط النظام العالمي للرأسمالية. فلقد كشفت الحرب عن التناقضات العنيفة التي كانت تنخر جسم الرأسمالية. ولقد وُجد المخرج الحقيقي من هذه التناقضات على أيدي العمال والفلاحين الروس الذين قاموا بثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى بقيادة حزب البلشفيك اللينيني عام ١٩١٧. وبالرغم من أن محاولات الكادحين في كثير من البلدان الاخرى، للتخلص من نير الامبريالية كانت تمنى بالفشل فان قيام الحرب العالمية الاولى كان ضربة قاصمة للامبريالية غير متوقعة. فقد اضطر الامبرياليون الى التراجع أمام التصميم البطولي للشعب الروسي. وكان هذا أول فشل تاريخي عالمي تمنى به الامبريالية ويعبر بوضوح عن بدء الأزمة العامة للنظام الرأسمالي كله. ولقد تم تعميق الأزمة العامة

للرأسمالية عن طريق تطور الثورة الاشتراكية العالمية. إن الرأسمالية أصبحت عاجزة عن اتقاء هذه العملية مما يؤكد ضعفها. وان محاولة الامبريالية العالمية، بمساعدة المانيا الفاشية، خنق أول دولة اشتراكية في العالم أدت الى فشل ذريع جديد للامبريالية، والى موجة جديدة من الثورات الاشتراكية في كثير من البلدان، والى خروج الاشتراكية من نطاق البلد الواحد، والى ظهور المعسكر الاشتراكي والنظام العالمي للاشتراكية.

ان فقدان الرأسمالية لكثير من البلدان، وظهور وتطور النظام الاشتراكي العالمي يدل على وجود تشكيلتين اجتماعيتين اقتصاديتين في الوقت الحاضر: الرأسمالية والاشتراكية، وعلى حدوث الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية صاحبة المستقبل. ان فترة تطور الثورة الاشتراكية العالمية هي، الى جانب ذلك، فترة الأزمة العامة للنظام الرأسمالي التي يعبر عنها انقسام العالم الى نظامين أحسن تعبير.

والبادرة الثانية المهمة في ضعف الامبريالية هي في أزمة النظام الاستعماري وانهياره. ان هذه العملية التي هيأ لها تطور الاقتصاد تجد تعبيرها المباشر في حركة التحرر الوطني التي لايمكن أن تنجح بدون ايديولوجية معينة. ومن جهة أخرى فان تحقيق الاستقلال السياسي يوجد المقدمات لتطور الاقتصاد الوطني والثقافة، ويجري تغييرات جوهرية في نمط المعيشة والتفكير بالنسبة لتلك البلدان المستعبدة وذلك بما يثيره من القضايا حول أولوية هذه الطبقة أو تلك، البروليتاريا أو البورجوازية - في قيادة الحركة.

لقد عالجنا أهم البوادر في الأزمة العامة للرأسمالية. لكن عملية تفسخها تنعكس في بعض الخصائص الأخرى.

ان الأزمة العسه للرأسمالية، في حقل الاقتصاد، تعني ان قواها الانتاجية تحولت الى عائق كبير في طريق تطور قوى الانتاج المعاصرة. فحسب تقديرات الأكاديمي «فارغ» تضاعف الانتاج الصناعي عام ١٩٦٠ في البلدان

الرأسمالية ٥ مرات بالمقارنة مع الانتاج في بداية القرن الحالي. ولو لم تكن قيود العلاقات الرأسمالية موجودة لتضاعف خلال هذه الفترة ٢٠ - ٣٠ مرة. ان هذا المثال يبيِّن مدى العرقلة الهائلة لتطور القوى الانتاجية المعاصرة، ولاستخدام كل امكانياتها، الذي تسببه العلاقات الانتاجية الرأسمالية. ان الخاصة المميزة للأزمة العامة للرأسمالية هي عدم تشغيل المؤسسات حسب طاقتها، بصورة مزمنة، وتحول الجيش الاحتياطي من العاطلين عن العمل الى جيش هائل دائم. وهذا يعني أن الرأسمالية لاتقدر على استخدام كل القوى المنتجة المتوفرة لديها - سواء في التكنيك أو في اليد العاملة.

ثم ان النتيجة الأخيرة لتطور الانتاج الرأسمالي في ظروف الأزمة العامة هي تفاقم وتعميق تناقضاته الداخلية والخارجية التي لايمكن حلها ضمن حدود التشكيلة الرأسمالية ذاتها.

وفي حقل السياسة تنعكس الأزمة العامة للرأسمالية في التقوية الهائلة لدور الجهاز الحكومي في حماية النظم الرأسمالية، وفي اخضاع الدولة مباشرة لسيطرة الاحتكارات، وفي النزعة الى الدولة البورجوازية الفاشية. ان البورجوازية الاحتكارية لاتزال تقدر على حماية وجودها بمساعدة جهاز الدولة ووسائل السياسة الاخرى.

ان الدفاع عن مصالح البرجوازية الطبقية، في ظروف الأزمة العامة للرأسمالية، يظهر في أشكال مختلفة لسياسة الدول الامبريالية الخارجية. واذا كانت مصالح تأمين الربح للطبقة المسيطرة هي الدافع الرئيسي في السياسة الخارجية للدول البورجوازية سابقاً. فانه، بعد انقسام العالم الى معسكرين كبيرين وخاصة بعد ظهور النظام الاشتراكي العالمي، صارت العناية بالحفاظ على النظام الرأسمالي واحدة من أهم قضايا السياسة العالمية للدول الامبريالية.

ان الامبرياليين يتجمعون في اتحادات سياسية، ويقيمون التكتلات العسكرية لمحاربة بلدان المعسكر الاشتراكي، ولسحق الحركة العمالية وحركات التحرر

الوطني. ان الامبرياليين الأمريكيين هم قلعة الرجعية الدولية، وهم يسعون تحت راية مكافحة الشيوعية، لفرض ارادتهم على البلدان الرأسمالية الاخرى ويجعلونها تابعة لهم سياساً واقتصادياً.

إن التناقضات الاقتصادية، وعمل القوانين الاقتصادية للمرحلة الامبريالية من تطور الرأسمالية تؤدي الى الحروب. كانت الحروب، حتى ذلك الزمن، عندما لم تكن ثمة قوى حقيقية قادرة على شل سياسة الحروب، حتميةً لايمكن تجنب اندلاعها لأنها، في عصر الامبريالية، تتخذ الطابع العالمي. لكنه في وقتنا الحاضر، وبفضل ظهور النظام العالمي للاشتراكية، ظهرت قوة جديدة على الصعيد الدولي قادرة على ردع الامبرياليين والتصدي لمساعيهم العدوانية.

ان المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، في الاتحاد السوفييتي بانطلاقه من هذه الظروف. الجديدة توصل الى النتيجة القائلة بأنه صار من الممكن، في وقتنا الحاضر، منع نشوب حرب عالمية ولم تعد حتميتها واردة البتة.

ويؤكد برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، بقوة، على أن قضية الحرب والسلم هي قضية العصر الأساسية الملحة، قضية حياة أو موت بالنسبة الى مئات الملايين من البشر. « ان القضية الرئيسية هي الحؤول دون اندلاع نار حرب نووية. وان هذا الجيل لقادر على ذلك ».

وتتجلى الأزمة العامة للرأسمالية، على صعيد السياسة، .. بصورة واضحة، في تضاؤل تأثير الأحزاب الانتهازية في الحركة العمالية، وفي أزمة الديمقراطية الاشتراكية، ان احتدام تناقضات الرأسمالية الطبيعية، من جهة، وانتصار الأفكار الشيوعية، ونجاحات بلدان المعسكر الاشتراكي، من جهة أخرى، تؤدي الى فضح الأحزاب الانتهازية وابتعاد جماهير البروليتاريا الواسعة عنها. وفي هذه الظروف يعلق الامبرياليون آمالهم الواسعة على الانقسام في الحركة الشيوعية. ان التحريفية لتمثل دور العمالة داخل الحركة الشيوعية ويمثل الخطر الرئيسي على الحركة الثورية في الظروف الراهنة.

وعلى صعيد الايديولوجية تتجلّى أزمة الرأسمالية .. في تقوية رجعية الايديولوجية البورجوازية في كل أشكالها، وفي عجز الايديولوجيين البورجوازيين عن طرح أفكار قادرة على كسب الجماهير ومجابهة الأفكار الشيوعية الجذابة، وفي ميلهم الى ابراز الرأسمالية تحت قناع من الاشتراكية مما يشكل، بحد ذاته، اعترافا بقوة الافكار الشيوعية...... تتجلى أزمة الرأسمالية العامة في الاتجاه الواسع لخروج كثير من المفكرين والمثقفين البورجوازيين من صفوف المدافعين عن الرأسمالية ـ من العلماء والكتاب، والفنانين ـ وانضمامهم الى صفوف القوى التقدمية.

وهكذا، فان أزمة الرأسمالية العامة هي أزمة شاملة لجميع ميادين الحياة الاجتماعية، وهي أزمة نظام التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية بكامله، أزمة يمكن أن يحلها تطور الثورة الاشتراكية العالمية.

واذا كانت أزمة الرأسمالية العامة قد بدأت في فترة الحرب العالمية الاولى، وخاصة منذ قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية، فان الحرب العالمية الثانية، والثورات التي ارتبطت بها في بلدان أوروبا وآسيا، كانت تعني تفاقم كل تناقضات الامبريالية، وظهور المرحلة الثانية الجديدة للازمة العامة. لقد دخلت ازمة الرأسمالية العامة، في وقتنا الحاضر، مرحلتها الثالثة المتميزة بكثير من الخصائص الجديدة. ان أصالة المرحلة الجديدة لأزمة الرأسمالية العامة تتجلّى في كون هذه المرحلة غير مرتبطة بحرب عالمية بل بموقف التنافس والصراع القائمين بين النظامين، حين تحول النظام الاشتراكي العالمي الى عامل حاسم في تطور المجتمع الانساني، وتم انهيار النظام الاستعماري للامبريالية، وازداد اضطراب نظام الاقتصاد العالمي للرأسمالية، وتعمقت وتفاقمت التناقضات التي تنخر في جسمها.[1]

(١) وثائق النضال من اجل السلم والديمقراطية والاشتراكية ١٩٦١ ص ٤٥

في هذه الظروف تتوحد جميع القوى المناوئة للاستعمار وفي طليعتها الطبقة العاملة وابنها ـ النظام العالمي للاشتراكية. ان وحدة هذه القوى هو الضمان الأكيد لانتصار قضية السلم والديمقراطية والاشتراكية، ولحتمية افلاس النظام الامبريالي الرجعي.

٤ ـ دكتاتورية البروليتاريا
تطور الدولة الاشتراكية

لقد أوضحنا في الفصول السابقة:

١ـ أن دكتاتورية البروليتاريا هي نتيجة حتمية لنضالها الطبقي في المجتمع الرأسمالي.

٢ـ وأن انتزاع البروليتاريا للسلطة السياسية وقيام دكتاتورية البروليتاريا يؤلف المحتوى الرئيسي للثورة الاشتراكية على الصعيد السياسي.

٣ـ وأن دكتاتورية البروليتاريا ضرورية للطبقة العاملة لا من أجل تخليد سيطرتها وانما من أجل الانتقال الى المجتمع الشيوعي الخالي من الطبقات.

لقد وضعت فكرة دكتاتورية البروليتاريا، من قبل مؤسسي الماركسية، كأهم مبدأ في نظرية الشيوعية العلمية. إنهما برهنا على أن تناقضات المجتمع الرأسمالي تؤدي، حتماً، الى الثورة البروليتارية. يقول ماركس وانجلز في «بيان الحزب الشيوعي» أن «.. الخطوة الأولى في الثورة العمالية هي تحول البروليتاريا الى طبقة مسيطرة وتحقيق الديمقراطية.

وتستخدم البروليتاريا سيطرتها السياسية من أجل انتزاع رأس المال كله من يد البورجوازية خطوة فخطوة، ومن أجل جعل كل أدوات الانتاج تتمركز في يد الدولة، أي، في يد البروليتاريا المنظمة كطبقة مسيطرة، وعندئذ يصير من

الممكن مضاعفة القوى المنتجة»[١].

ان البروليتاريا المنظمة كطبقة مسيطرة هي نفسها دكتاتورية البروليتاريا.

وعندما عالج ماركس وانجلز مسألة طرق الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية، شاهدا، منذ البداية، بوضوح أن الدولة ستكون ضرورية للطبقة العاملة من أجل حل هذه المسألة. لكن هذه الدولة تختلف بصورة جذرية عن كل نماذج الدول المستغلة، لأنها دكتاتورية الأكثرية ضد الاقلية.

بيد أن «بيان الحزب الشيوعي» عبر عن فكرة دكتاتورية البروليتاريا في خطوتها العامة، ثم صقلت وتطورت هذه الخطو على أساس تعميم تجربة المعارك الطبقية في القرن التاسع عشر ـ ثورات ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ وكومونة باريس ١٨٧١. ويقول لينين في كتابه «الدولة والثورة»:

«ان نظرية ماركس هنا، كما في أي مكان آخر، هي معرفة للعالم فلسفية عميقة نيرة، ومعرفة غنية للتاريخ»[٢].

لقد مكنت ثورة عام ١٨٤٨ ماركس من التوصل الى نتيجة نظرية تقول بأنه ليس من السهولة استيلاء الطبقة العاملة على السلطة في الدولة البورجوازية، وأن على الطبقة العاملة، من أجل اقامة دكتاتوريتها، تحطيم الجهاز الحكومي البورجوازي السابق. ان تحطيم الجهاز الحكومي القديم هو شرط لانتصار الثورة البروليتارية. ولقد أكدت صحة هذه النتيجة أول تجربة لدكتاتورية البروليتاريا في العالم ـ كومونة باريس.

أما قادة الأممية الثانية الانتهازيون فلم يألوا جهداً في تشوية وطمس هذه الأفكار الماركسية التي ثبتّها لينين في كتابه «الدولة والثورة» وطورها معمماً تجربة الثورات الروسية والحركة العمالية في عصر الامبريالية.

---

(١) ماركس وانجلس. الجزء ٤ ص ٤٤٦.
(٢) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٣٧٩.

لقد بينّ لينين أن النتيجة التي توصل اليها ماركس ذات أهمية مبدئية، وأن سير تطور كل الدول البرجوازية يكشف عن السمات العامة، وقبل كل شيء، عن نمو الجهاز البيروقراطي العسكري الذي ينبغي تحطيمه حتماً ابأن الثورة الاشتراكية. ان نفي « ك. كاوتسكي » والنظريين الانتهازيين الأخرين لضرورة تحطيم الجهاز الحكومي البورجوازي هو، عملياً، نفي لدكتاتورية البروليتاريا ذاتها، وانتقال الى مواقع البورجوازية في فهم الدولة وصراع الطبقات. الواقع، ان الابقاء على جهاز القمع الحكومي البرجوازي لايمكن أن يحدث الا على أساس الاعتراف بأن الدولة هي فوق الطبقات وعلى اساس تحديد نضال البروليتاريا الطبقي ضمن نطاق المجتمع البورجوازي.

ان ثورة اكتوبر الاشتراكية، وثورات بلدان الديمقراطية الشعبية، اكدت جميعها صحة النظرية الماركسية ـ اللينينية الذاهبة الى ان قيام دكتاتورية البروليتاريا يتطلب تحطيم الجهاز الحكومي البورجوازي.

فاذا كانت ثورة شباط الروسية عام ١٩١٧ لم تمس الجهاز القيصري فان ثورة اكتوبر قضت عليه وأقامت جهازها الجديد مكانه ـ الدولة السوفيتية. ولقد بينت الثورات أنه يمكن الابقاء على بعض عناصر الدولة القديمة واستخدامهم في جهاز الدولة الجديدة، لكنه لابد من تحطيم نظام الدولة القديمة، برمته، وجهازها البيروقراطي العسكري الذي كان أداتها في العنف. ان هذا الجهاز لايمكن أن يخدم في حل القضايا الجديدة لدولة البروليتاريا لأنه مرتبط، بكل شبكاته، ارتباطاً عضوياً بنظام الاستغلال والاضطهاد، ومسخرً ضد الكادحين، بينما دكتاتورية البروليتاريا موجهة للقضاء على مقاومة الطبقات المستغلة المطاح بها.

ان دكتاتورية البروليتاريا هي، من حيث المبدأ، نموذج جديد للدولة. لقد كتب ماركس محدداً أهميتها التاريخية: « ان بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي فترة تحويل المجتمع الأول، تحويلا ثورياً، الى الثاني. وتتطلب هذه

الفترة فترة انتقالية سياسية مناسبة لها، أما الدولة المناسبة لهذه الفقرة فلا يمكن أن تكون غير دكتاتورية البروليتاريا الثورية »[1].

فدكتاتورية البروليتاريا هي دعامة التحول الثوري للمجتمع على أسس الشيوعية، وهي أداة لسحق مقاومة الطبقات المستغلةّ، الاكيدة. لكنه من الخطأ أن نفهم أن دكتاتورية البروليتاريا تؤدي الى العنف المطلق. فهي تستخدم العنف مع المستغلين بقدر ما تجد نفسها مضطرة الى استخدامه. وأما بالنسبة الى الجماهير الكادحة فان دكتاتورية البروليتاريا ليست وسيلة للعنف، وانما هي شكل القيادة السياسية للطبقة العاملة. وتستخدم دكتاتورية البروليتاريا من أجل فصل الجماهير الكادحة عن البرجوازية، ولتجميعها حول الطبقة العاملة، ومن أجل اشراكها في عملية بناء المجتمع الجديد.

لقد اهتم لينين، بتطويره للماركسية، اهتماماً خاصاً بمعالجة مسألة دكتاتورية البروليتاريا كشكل خاص لاتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين بقيادة الاولى. ان هذا الاتحاد يؤلف المبدأ الأسمى لدكتاتورية البروليتاريا. ان دولة الطبقة العاملة هي شكل التنظيم السياسي للمجتمع الذي يضمن أعلى شكل للديموقراطية، ديموقراطية من أجل الاكثرية. ان دكتاتورية البروليتاريا موجهة الى تأييد وتوطيد اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين وفئات الكادحين الاخرى. وهي، على خلاف الدول السابقة كلها، لاتتعارض مع الشعب، بل تعبر عن مصالحه الجذرية، ولهذا فهي دولة الشعب كله.

كما أنها تتميز عن الدول السابقة جميعاً بميزة أخرى: تتبدى في كون مهمتها اقامة بناء اقتصاد اشتراكي جديد.

ثم ان دكتاتورية البروليتاريا لاتقتصر على جهاز سلطة الدولة. فبقدر ماهي مدعوة الى اجتذاب الجماهير الى اشادة البناء الاشتراكي، والى دعوة الشغيلة

(١) ماركس وانجلس. مؤلفات مختارة. جزء ٢ ص ٢٣.

لادارة البـلاد، فهي تعتبر نظاماً كاملاً للمنظمات الجماهيرية (مجالس السوفييت، النقابات، التعاونيات، اتحاد الشبيبة . . . الخ » التي يقودها الحزب. وبدون الحزب، كقوة قيادية، لايمكن قيام دكتاتورية البروليتاريا. ان الحزب يحققها من خلال الدولة، معتمداً على تأييد منظمات الشغيلة الجماهيرية، وهو يوحد ويوجه عمل كل المنظمات نحو بناء الشيوعية.

وكما تبين لنا تجربة الاتحاد السوفييتي، فان دكتاتورية البروليتاريا تتحول الى دولة اشتراكية شعبية عامة من شأنها أن تتحول فيما بعد الى حكم الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية. ان البروليتاريا لاتقيم دكتاتوريتها لتجعلها خالدة على مر العصور، بل تقيمها من أجل القضاء على الطبقات وعلى الدولة معاً.

وبالرغم من أن أساس عملية تحويل التشكيلة الرأسمالية الى تشكيلة شيوعية هو تغيير العلاقات الاقتصادية، الا ان هذا الهدف لايمكن أن يتحقق الا على اساس انتصار الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا. ان البناء الواعي للعلاقات الاجتماعية الجديدة التي تنشئها جماهير الكادحين الواسعة يتطلب مستوى عالياً لتنظيم تلك الجماهير ولوحدتها السياسية. وهذا مايحدد الدور المتنامي للسياسة وللمؤسسات والمنظمات السياسية- الحزب والدولة. ان سياسة الحزب تعبرعن القضايا الناضجة لتطور المجتمع، وتحدد طرق ووسائل هذا الحل.

أشكال دكتاتورية البروليتاريا

اذا كانت البروليتاريا تحطم الجهاز الحكومي القديم، فمن الطبيعي ان نتساءل بم - تستبدل ذلك الجهاز؟ وكيف ينبغي أن يكون شكل دولة البروليتاريا؟ لقد أعطتنا كومونة باريس بعض مواد الاجابة على هذا السؤال.

رغم أن الكومونة لم تستمر طويلا، وارتكبت عدداًكبيراً من الأخطاء، إلا

انها استطاعت أن تشير، من بعيد، الى الاطار العام لدولة البروليتاريا في المستقبل. لقد بينّ ماركس، لدى تحليله تجربة الكومونة، أن هذه استطاعت، خلال تلك الفترة القصيرة من وجودها، أن تحقق الديموقراطية من أجل الشعب. فقد وحدّت الكومونة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية، وأجرت عمليات انتخاب الموظفين، وقضت على أصحاب الامتيازات، وجعلتهم مسؤولين أمام الشعب، ونظمت تسليح العمال . . الخ.

لقد بينّ ماركس أن الثورة البروليتارية تولد شكلا جديداً للدولة، لكنه لم يقل ان الشكل الذي اوجدته كومونة باريس هو الشكل الضروري في جميع الظروف.

ان انتهازيي الأممية الثانية، واتباعهم المعاصرين، يعترفون بشكل واحد للدولة، بشكل الجمهورية البرلمانية، التي تستطيع وحدها، حسب زعمهم، أن تؤمن الديموقراطية. يقول لينين: « ان انتهازي الديموقراطية الاشتراكية المعاصرة تبنوّا الأشكال السياسية البرجوازية للدولة الديموقراطية البرلمانية . . . وجعلوا منها « مثالا » لكنهم حطموا جباههم بسجودهم أمام ذلك « المثال »[1].

يؤكد لينين أن مسألة أشكال الدولة تحل بموجب الشروط الحسية الموضوعية. فالماركسية لم تضع في يوم من الأيام نصب عينيها مهمة « كشف » الأشكال السياسية للمستقبل، والا، فقد كان من المحرج حقاً أن نقف مكتوفي الأيدي أمام التحديد الصارم لتلك الأشكال.[2]. فالنظرية تتمكن من رؤية جوهر العملية لكنه من المستحيل التنبؤ بأشكالها قبل أن تظهر الظروف الموضوعية التي يمكن أن تولدها في الحياة ذاتها.

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٤٠٣.

(٢) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٧ ص ٣١٠.

وتبين لنا الأمثلة السابقة أن الماركسية ـ اللينينية لدى تقييمها للظواهر الاجتماعية المختلفة لاتطلب منا الانطلاق من النظم الجاهزة وانما من الوضع التاريخي المشخصّ الذي نشأت وتتطور فيه الظاهرة المعينة. ومن أجل فهم هذا الموضع فهماً صحيحا، واستنباط النتائج منه، لابدء من النظر اليه من وجهة النظر الماركسية، واستخدام الطريقة الماركسية والاهتداء بها. ان نضال الطبقة العاملة من أجل الاشتراكية يجري في الوضع التاريخي المتنوع ذاته، وان دراسة هذا الوضع واجب على الماركسيين. تقول الموضوعة اللينينية بهذا الصدد « حتى نفهم جوهر نظرية ماركس عن الدولة ينبغي أن نفهم ان دكتاتورية طبقة واحدة هي ضرورة لا لكل مجتمع طبقي فحسب، لا للبروليتاريا، وحدها، التي قلبت البرجوازية، وانما هي ضرورية بالنسبة للفترة التاريخية كلها التي تفصل الرأسمالية عن « المجتمع اللاطبقي »، عن الشيوعية. ان أشكال الدول البرجوازية جد متنوعة لكن الجوهر واحد: فجميع تلك الدول هي أشكال لدكتاتورية البرجوازية ثم ان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية لايقدر، بالطبع، الا ان يعطي وفرة وتنوعاً في الأشكال السياسية، لكن الجوهر يبقى آنذاك واحداً وهو: دكتاتورية البروليتاريا» (١). ان هذه الموضوعة تفضح الانتهازيين المعاصرين الذين يصرون على القول بأن لينين وقف الى جانب زوال الدولة في الفترة الانتقالية.

ولقد برهن لينين على ان مجالس السوفييت التي اوجدتها الجماهير في الثورة الروسية يمكن ان تكون شكلاً لدكتاتورية البروليتاريا. وقد كان لهذه النتيجة اهمية فائقة من اجل انتصار الثورة في روسيا وتطور الحركة العمالية فيما بعد. فقد قامت ثورة اكتوبر تحت شعار « كل السلطة للسوفيات ».

ان السوفيتات التي ظهرت، في البداية، كأجهزة للعصيان المسلح، هي

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

اكثر المنظمات تمثيلاً لجماهير الكادحين الواسعة المشتركة في ادارة الدولة بقيادة الطبقة العاملة. وتجدر بنا الاشارة الى ان لينين حدد اهمية هذا الشكل عند تحليله لتجربة الجماهير التاريخية.

ولقد اوجدت الجماهير ايضاً شكل الدولة الديموقراطية الشعبية كشكل جديد للتنظيم السياسي للمجتمع، الذي يقوم بوظيفة دكتاتورية البروليتاريا. وتحدَّد خصائص هذا الشكل ايضاً بالشروط التاريخية الجديدة لتطور الثورة، ولبناء الاشتراكية في بلدان اوروبا الوسطى والجنوبية الشرقية، وفي كثير من دول آسيا.

لقد ظهرت بلدان الديموقراطية الشعبية في معركة القضاء على الفاشية، في الحرب العالمية الثانية، التي لعب الدور الحاسم فيها الاتحاد السوفييتي. فقامت، في تلك البلدان التي استعبدتها المانيا الفاشية واليابان الامبريالية، موجة عارمة من النضال ضد الفاشية ذات طابع وطني عام. وكانت الطبقة العاملة صاحبة الدور الطليعي فيها، وقد التفت الجماهير الكادحة من حولها.

وفي سير النضال تكونت جبهة موحدة تضم كل القوى المناوئة للفاشية وكل الأحزاب والفئات الديموقراطية. وبفضل الوضع الناتج عن اندحار الفاشية وضعت تلك الجبهة يدها على السلطة.. هكذا ظهرت الديموقراطية الشعبية. ولم يكن دور الاتحاد السوفييتي في فرض الارادة على شعوب تلك البلدان، وانما في افساحه المجال امام تلك الشعوب للتعبير عن ارادتها واظهارها. ان الامبرياليين الامريكيين ما ينفكون يفترون على المعسكر الاشتراكي اذ يعلنون ان جميع بلدان الديموقراطية الشعبية « مستعبدة » من قبل الاتحاد السوفييتي، وانها بحاجة الى من « يحررها » اي الى اعادة النظم الرأسمالية. ولقد تحررت هذه البلدان فعلاً من الرأسمالية، الى الأبد، بمساعدة الاتحاد السوفييتي.

ان التحرر من الفاشية كان نتيجة للثورة الديموقراطية الشعبية المعادية

للامبريالية التي قضى فيها على الاقطاع في كثير من البلدان (رومانيا، هنغاريا وغيرهما) وعلى سيطرة الرأسمال. لكن قسماً من البورجوازية المتوسطة الذي اشترك في النضال ضد الفاشية حافظ على مواقعه في الاقتصاد والسياسة، وسمح له بالاشتراك في الحكم.

ان الوضع الناتج أوجد المنطلقات من اجل التطور العالمي للثورة الاشتراكية، وقيام دكتاتورية البروليتاريا.

اما الثورة في الصين فقد كان لها طريقها الخاص المعقد. فبعد دحر الأمبريالية اليابانية، والقضاء على سيطرتها، قررت الرجعية الصينية القضاء على القوى الثورية في البلاد وفي مقدمتها الحزب الشيوعي الصيني، ولم تتردد في اضرام نار الحرب الأهلية. واسفرت تلك الحرب على القضاء على الرجعية قضاء مبرماً، وأعلنت في الصين، عام ١٩٤٩، بجمهورية الصين الشعبية التي هي دكتاتورية البروليتاريا في شكل الديمقراطية الشعبية.

وبعد اجراء التحويلات الديمقراطية، وتثبيت دعائم الاقتصاد، سار الشعب الصيني في طريق التقدم، وألقى عن كاهله ظلام تخلف القرون، وقد دخل في وقتنا الحاضر فترة بناء الاشتراكية.

إن شكل الدولة الديمقراطي الشعبي، والشكل السوفييتي، ذوا طبيعة واحدة، مع انفراد الأول ببعض الخصائص: فهو يسمح، في بعض الاحيان، بتعدد الاحزاب، ويعتمد على المنظمات الجماهيرية السياسية بشكل جبهة شعبية تضم كل الأحزاب والمنظمات الاجتماعية، ولا يحرم الطبقات المستغلة من حق الانتخاب باستثناء بعض ممثلي تلك الطبقات الذين سبق ان تعاونوا مع الفاشية.. الخ.

ان الشكل الديمقراطي الشعبي يؤمن شروط بناء الاشتراكية في تلك البلدان. وفي طريق الاشتراكية تسير أيضاً كوبا التي قامت، في ظروف المرحلة

الثالثة من الأزمة العامة للرأسمالية، بثورة شعبية عميقة ظافرة، تتطور الى الثورة الاشتراكية.

لقد هاجم لينين الانتهازيين بكل قوة، لأنهم، أولاً، قد عارضوا، تحت ستار النضال من أجل الديمقراطية، النضال الثوري ضد الرأسمالية بطرقهم البرلمانية، ولأنهم ثانياً، اعتبروا أن الطبقة العاملة يمكن أن تصل الى السلطة عن طريق البرلمان فقط، بالرغم من أن هذا الطريق كان شاذاً في تلك الظروف (ظروف الحرب العالمية الأولى والفترة التي تلتها). لقد فضح لينين تلك الأوهام التي يبذرها الانتهازيون ساعين بذلك الى حرف الطبقة العاملة عن خط الثورة.

الا أنه حدثت منذ ذلك الحين، تغيرات جذرية في الوضع الدولي فقد ظهر النظام العالمي للاشتراكية، وازداد تأثير الأحزاب الشيوعية الى درجة كبيرة، ومنيت الامبريالية بخسائر هائلة. ففي هذه الظروف تنشأ امكانيات جديدة، في كثير من البلدان، من أجل الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، ومن بينها امكانية استخدام الاشكال البرلمانية. ان الانتقال البرلماني الى الاشتراكية يدخل ضمن التطور العالمي للثورة حين تصبح القوى المعادية للثورة على درجة من التصدع والانقسام مما لايسمح لها باشعال نار حرب أهلية. ومن الواجب رؤية الفارق المبدئي بين المفهوم الانتهازي والمفهوم الثوري للطريق البرلماني الى الاشتراكية. فهو يعني بالنسبة للانتهازيين (لكاوتسكي وغيره) أولا، نفي ضرورة الثورة، وثانياً، نفي ضرورة نضال الجماهير غير البرلماني، وثالثاً، نفي دكتاتورية البروليتاريا. إن الطريق البرلماني الى الاشتراكية هو بالنسبة للماركسيين الثوريين شكل الانتقال الثوري الى الاشتراكية، ووسيلة تجنيد الجماهير للنضال الحاسم ضد الرأسمالية، وأخيراً، الطريق الى اقامة دكتاتورية البروليتاريا. وهو لاينفي، في الوضع الراهن، الطريق غير السلمي للثورة في تلك البلدان التي يحرم الشعب فيها من حرياته الديموقرطية الأساسية ويصبح

مضطراً لاستخدام وسائل النضال المسلح من أجل الحصول عليها.

ان التجربة التاريخية للحركة العمالية كلها تعلمنا أن نجاح نضال الطبقة العاملة يتوقف « على استعداد الحزب والطبقة العاملة لخوض مختلف اشكال النضال ـ السلمية وغير السلمية، البرلمانية وغير البرلمانية ـ ومدى قدرتهما على الانتقال المفاجىء من هذا الشكل الى آخر ». وفي كل حادث معين يكون تحديد أشكال النضال مهمة خلاقة تُحلُّ على أساس تطبيق الماركسية اللينينية على تحليل الشروط التاريخية المتنوعة.

ان دكتاتورية البروليتاريا قائمة الآن في بلدان المعسكر الاشتراكي في اشكال مختلفة للدولة. ان في حوزة الاحزاب الشيوعية تجربة كبيرة في بناء الدولة، نجد تعميمها النظري في أعمال قادة الأحزاب، وفي قرارات لجانها المركزية. وعلى هذا الأساس يحدث التطوير التالي لنظرية الدولة الماركسية.

تطور الدولة الاشتراكية.

ان لتطور الدولة كثيرا من الخصائص في بلدان المعسكر الاشتراكي المختلفة، والى جانب ذلك، ثمة كثير من السمات العامة. فالدولة تتطور جنبا الى جنب مع تطور المجتمع. وتتحدد مراحل تطور الدولة بمراحل تطور المجتمع.

ففي الفترة الانتقالية من الرأسمالية الى الاشتراكية تقوم دولة دكتاتورية البروليتاريا بمهمة القضاء على مخلفات الطبقات المستغلة، وبالدفاع عن البلاد، وبالوظائف التربوية التعليمية والاقتصادية التنظيمية المرتبطة بمهمات بناء الاشتراكية. والى جانب هذا فان لتأدية هذه المهام خصائص تختلف من بلد الى آخر.

فمع الانتقال الى الاشتراكية تدخل الدولة الاشتراكية مرحلة جديدة من

تطورها تجد انعكاسها في تغير وظائفها. فتزول مهمة القضاء على مخلفات الطبقات المستغلة عندما يتم القضاء عليها فعلا ولا يعود ثمة ماينبغي القضاء عليه. الحق انه ماتزال قائمة، في ظل الاشتراكية، مخلفات الرأسمالية في وعي بعض الناس، وتحدث عمليات خرق للنظام الاشتراكي، ومحاولة نهب او تبديد الملكية الاجتماعية، والنيل من الملكية الخاصة او حياة بعض المواطنين من قبل بعض العناصر الاجرامية. ولهذا فان الدولة تقوم بحماية الملكية الاجتماعية الشخصية وحقوق وحريات المواطنين السوفييت ونظام الحقوق الاشتراكي. كما يبقى، في ظل الاشتراكية، شيء من عدم المساواة على صعيد التوزيع. لكن الوظيفة الرئيسية للدولة في الداخل هي الوظيفة التنظيمية الاقتصادية ونشاط الدولة الثقافي التربوي المرتبط بها: تنظيم انشاء القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية، وتوطيد وتطوير علاقات الانتاج الاشتراكية، وضمان رفاه الشعب ورفع مستواه المعيشي، وتربية الناس على النظام والعلاقة الشيوعية نحو العمل... الخ. وبما ان الخطر لايزال يحدق بالبلاد من جهة الدول الامبريالية، فان وظيفة الدفاع تبقى قائمة. والى جانب ذلك، فان ظهور النظام العالمي للاشتراكية ادى الى توسيع الوظيفة الخارجية للدولة الاشتراكية. هذه الوظيفة لاتعود تقتصر على مهمة الدفاع عن الوطن وانما تتعداها ايضاً الى توطيد اواصر الاخوة والتعاون بين بلدان المعسكر الاشتراكي، والدفاع عن السلم في العالم اجمع.

لكن الانتهازيين المعاصرين يؤكدون بأن الدولة الاشتراكية ينبغي ألا تتدخل في حياة البلاد الاقتصادية وألا توجه تطور الاقتصاد، وأن الموضوعات الماركسية اللينينية حول ضرورة تطوير الوظائف الاقتصادية التنظيمية والثقافية التربوية للدولة، والتطبيق العملي وفقا لتلك الموضوعات ـ كل هذا يعتبرونه « تشويهاً » و « تحريفاً » للماركسية. ان الحياة تؤكد صحة خط الاحزاب

الشيوعية في تطوير الـدولـة في ظل الاشتراكية. لكن هذا التطوير لايعني، بالطبع، تضخيم جهاز الدولة مطلقا.

ان تطوير الـدولة الاشتراكية يعني: تحسين بنيتها وأسلوب عملها، ودفع الجماهير الى المشاركة مشاركة واسعة في ادارة الدولة، وتطوير الديمقراطية الاشتراكية، وتقوية الرقابة الشعبية على نشاط جهاز الدولة. وعندما يبقى خطر العدوان الامبريالي ماثلاً، وترفض الدول البورجوازية نزع السلاح، فان الدولة الاشتراكية تهتم بتقوية الجيش وأجهزة الأمن التي تحمي العمل السلمي لبناة الشيوعية. ان جوهر عملية الدولة الاشتراكية ينحصر في تحول دكتاتورية البروليتاريا الى منظمة شعبية عامة لبناة المجتمع الاشتراكي، وتحول ديمقراطية البروليتاريا الى ديمقراطية اشتراكية عامة للشعب كله. ولقد اورد برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي النتيجة القائلة بتحويل دكتاتورية البروليتاريا، اذ تؤمن النصر الكامل النهائي للاشتراكية - اولى مراحل الشيوعية - وانتقال المجتمع الى بناء الشيوعية، فانها تكون قد ادت مهمتها التاريخية، ثم تصبح غير ضرورية في الاتحاد السوفييتي بالنسبة لقضايا التطوير الداخلي. وان الدولة، التي ظهرت كدولة لدكتاتورية البروليتاريا، تنتقل، في المرحلة المعاصرة الجديدة، الى دولة شعبية عامة، الى أداة للتعبير عن مصالح وارادة الشعب كله.

والى جانب هذا، فالبرنامج يؤكد بأن الطبقة العاملة - طالما هي موجودة كطبقة - لا تتخلى عن دورها القيادي. ان الطبقة العاملة هي الطبقة الاكثر تقدمية وتنظيمياً في المجتمع السوفييتي، وهي سوف تحافظ على دورها القيادي حتى بناء الشيوعية والقضاء التام على وجود الطبقات. ان البرنامج الجديد للحزب يشير الى ان « دكتاتورية الطبقة العاملة سوف تفقد ضرورتها قبل أن تزول الدولة.

وهكذا نلتقي بحقيقة لامثيل لها في التاريخ. فلأول مرة في التاريخ لاتكون

الدولة دكتاتورية طبقة من الطبقات، بل تصبح أداة في يد المجتمع كله، في يد الشعب.

لقد وضع الحزب الشيوعي نصب عينيه، مهمة للتطوير الدائم للديمقراطية الاشتراكية، ومهمة النضال ضد عناصر البيروقراطية في حلقات جهاز الدولة. ان البيروقراطية هي العدو اللدود للديمقراطية السوفييتية، وأسوأ واثقل ما خلفته طرق الحكم وأجهزة الموظفين البيروقراطية القديمة. وهو أمر لا يطاق في ظروف المجتمع السوفياتي.

ان النضال ضد البيروقراطية هو شرط ضروري لتحقيق الديموقراطية، ولتحسين الفعاليات الخلاقة للجماهير. يقول لينين: « لنناضل ضد البيروقراطية حتى النهاية، ولا يتحقق النصر التام عليها الا عندما يتمكن السكان جميعاً من المساهمة في الحكم »(1).

لقد بذل الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، في الاعوام الأخيرة الماضية، جهوداً كبيرة من أجل جعل جهاز الدولة ضئيل النفقات، وكثير الفعالية، الى اقصى حد ممكن، ومن أجل الخلاص من تلك الحلقات الزائدة والدوائر المتضخمة فيه، كما تمكن الحزب من النهوض بمبادرات الشغيلة ومسئولياتهم الى درجة كبيرة... الخ.

ان برنامج الحزب يفتح المجال واسعاً لتطوير المبادىء الديمقراطية لادارة الدولة ولاجراء التجديدات المنتظمة في تركيب السوفييتات وأجهزتها القيادية في كل عملية انتخابية، ويقرر توسيع حقوق السوفييتات المحلية، والمحافظة على المبادىء الديمقراطية لعمل السوفييتات وتطويرها، ومحاسبة السوفييتات ومسؤوليتها أمام الناخبين، وحرية التصوير على قضايا الدولة ومناقشتها، والرقابة والنقد... الخ.

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٩ ص ١٦١.

ان المبدأ الديموقراطي في محاسبة المسؤولين من قبل الناخبين، ومسؤوليتهم أمامهم يتّسع ليشمل العاملين في جهاز الدولة والحكم. وان العمل في جهاز الدولة ينبغي أن يكفَّ عن كونه وظيفة خاصة..

ان القيام بكل هذه التدابير من شأنه ان يحلّ المهمة التي طرحها الحزب: مهمة دفع المواطنين جميعاً، دونما استثناء، الى ادارة قضايا المجتمع.

الدولة الاشتراكية والنظام الحقوقي

ان ثورة البروليتاريا لا تقضي على كل حق؛ انها تصفي الحقوق الاستغلالية وتستبدلها بحقوق اشتراكية جديدة، وبنظام للحقوق ثوري.

لقد قال لينين ان الطبقة العاملة، اذ تحقق، قيادة الدولة، تحتاج الى النظم الحقوقية لان « الارادة، اذا كانت ارادة دولة لا بد وان يُعبَّر عنها بالقانون الذي تسنه السلطة؛ والا فان كلمة « ارادة » تصبح عبارة عن اهتزاز فارغ للهواء بصوت فارغ »[1]

ان مستوى تطور الاقتصاد والثقافة، في المرحلة الانتقالية وفي عصر الاشتراكية، يستدعي ضرورة القانون.

فمن المعروف أن مستوى التطور الاقتصادي، لا في الفترة الانتقالية فحسب، وانما في عهد الاشتراكية أيضاً، لا يسمح بالانتقال الى التوزيع حسب الحاجة، ولهذا يبقى مبدأ دفع الأجور للعمالة وفقاً لكمية ونوعية العمل فمن يقدم للمجتمع أكثر يأخذ أكثر. هذا المبدأ في التوزيع يتلاءم تماماً مع مستوى تطور الانتاج، ويجمع بين المصالح الاجتماعية والمصالح الشخصية في اخضاعه الأخيرة للأولى.

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٧٢.

ان نظام الحقوق الاشتراكي يحفظ الملاءمة الضرورية بين كمية العمل وكمية الاستهلاك.

والى جانب ذلك، فان ضرورة الالتزام بقواعد سلوك معينة في الاشتراكية مشروطة بمستوى تطور الثقافة. وبالطبع، ففي بلادنا وبلدان الديموقراطية الشعبية السائرة في طريق البناء الاشتراكي، وبموجب تغير شروط الحياة، وبنتيجة عمل الحزب والدولة الثقافي التربوي، ينشأ وعي اشتراكي جديد لدى الجماهير. ويقل عدد أولئك الذين يميلون الى النيل من الثروات الاجتماعية لا لشيء إلا لأنها ليست « لهم » وانما « للجميع » ويقل عدد الناس ذوي النزوات والميول الاجرامية. لكن هذا لايعني ان الناس جميعا سيتعلمون أن يعملوا بوعي من اجل الخير العام ويضعوا المصالح الاجتماعية فوق المصالح الشخصية، وأن الملكية الاشتراكية ليست بحاجة الى حماية من اللصوص والمخربين. فقبيل ثورة اكتوبر بأيام قليلة اكد لينين في كتابه « الدولة والثورة »: « ... انه لاينبغي ان نعتقد بأن الناس، بعد قلب الرأسمالية، سوف يتعلمون حالاً العمل من اجل المجتمع بدون اية قواعد للحقوق »[1]

ان لينين، اذ عمم تجربة الثورة الاشتراكية والنضال من اجل الاشتراكية في بلادنا، عالج، لأول مرة، في النظرية الماركسية مسائل علاقة الثورة الاشتراكية بالنظام الحقوقي، وضرورة خلق النظام الحقوقي من قبل النظام الاشتراكي، ودور النظم الحقوقية في بناء النظام الاشتراكي، والمبادىء الاساسية لنظام الحقوق الاشتراكي، وأشكال وطرق تنظيم نظام الحقوق الاشتراكي.

فمنذ أول يوم لقيام السلطة السوفييتية استخدمت النظم الحقوقية من اجل تحطيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والايديولوجية القديمة، ومن اجل خلق علاقات جديدة. فالعمل القانوني الاول ـ الغاء الملكية الخاصة

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٤٣٩.

للأرض ـ كانت له اهمية بالغة من اجل انتصار الثورة، ومن اجل النضال التالي، من اجل البناء الاشتراكي. ثم لنتذكر مراسيم تأميم البنوك وسكك الحديد والتجارة الخارجية والاسطول التجاري، ثم تأميم الصناعة الضخمة جميعها، والمرسوم الذي حدَّد ٨ ساعات عمل في اليوم، ومرسوم الضمان الاجتماعي، والمرسوم القاضي بالغاء الفئات الاجتماعية والمراتب بين المواطنين، والمرسوم القاضي بفصل الكنيسة، والمرسوم القاضي بحرمان العناصر الاستغلالية من حقوق الانتخاب. . . الخ.

ففي النظام الحقوقي تقرر اشكال نشاط الدولة جميعاً ووظائفها ومهماتها. وفي الفترة الانتقالية يصدر النظام الحقوقي عن ارادة الطبقة العاملة والفلاحين التي تجسَّدت بشك قانون. وهذا مايحدد فعالية النظام الحقوقي وقوة تأثيره على سير حركة التطور الاجتماعي كله. ان النظام الحقوقي المعبر عن ارادة الشعب العامل يكتسب خاصة جديدة، فهو ينظم تلك الارادة ويخدم كوسيلة هائلة في تفسير سياسة السلطة السوفييتية وتجنيد الجماهير من أجل العمل التطبيقي. ولقد أشار لينين، أكثر من مرة، الى ان مراسلينا « تدعو الى العمل التطبيقي الجماهيري »(١). ولقد أشار في المؤتمر الحادي عشر للحزب الى « أننا اعطينا العامل والفلاح البسيطين كل تصوراتنا عن السياسة دفعة واحدة في شكل مراسيم » (٢) ويحكي لنا « بونتش ـ برويفتش » كيف أنه، بعد احتلال قصر الشتاء قضى فلاديمير لينين الليل كله في العمل من أجل المرسوم المتعلق بالارض. وقد قوبل، عند تلاوته في المؤتمر الروسي العام الثاني، بعاصفة من الاستحسان. وكذلك الأمر بالنسبة « لاعلان حقوق شعوب روسيا » لما له من أهمية تحويلية تجنيدية فعَّالة. ان هذا العمل الحقوقي التاريخي الذي جسد

---

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٩ ص ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) لينين. الجزء ٣٣ ص ٢٧٢.

المبادىء الأساسية لسياسة الحزب الوطنية لم يوضح فقط أشكال استعباد شعوب روسيا في الماضي وانما أرشد أيضا الكادحين الى الطرق والوسائل الكفيلة بتخليصهم من الاستعباد.

ولقد أكدَّ لينين تأكيداً خاصاً على الدور الجديد للنظام الحقوقي في كتابه « المهمات الراهنة للسلطة السوفييتية ». وبعد قلب البورجوازية كتب مثل هذه الموضوعات: كن دقيقاً في حساباتك المالية، كن موفراً ومقتصداً، لا تسرق، حافظ على النظام في العمل ـ التي أصبحت شعارات فيما بعد. ان القوانين السوفيتية وقواعد الحقوق السوفييتية تقيم نظاماً صارماً لتنظيم العلاقات الاجتماعية، ولتوفير الوعي القانوني لدى الناس ولكي يقوم نظام الاقتصاد الشعبي بمهمته خير قيام.

الَّا أنه، في الفترة الانتقالية، واثناء وجود القطاعات المختلفة في الاقتصاد والطبقات المستغلة، لا تتطور وظيفة الدولة التربوية التثقيفية، والتنظيمية الاقتصادية تطوراً واسعاً. وعند انتصار الاشتراكية، فقط، يتحول الحق الى قانون الدولة الواحدة المعبرة عن إرادة الشعب كله. وفي توطيد العلاقات الانتاجية الاشتراكية يكتسب الحق أساسا ماديا من أجل تحقيق ارادة الشعب لمصلحة الشعب ذاته. ان الحق، في المجتمع الاشتراكي، يصبح وسيلة للتطبيق الواعي للقوانين الموضوعية واستخدامها. وان مخطط تطوير الاقتصاد الوطني، والبناء الثقافي، على نطاق الدولة كلها لا يبدو إنعكاسا للقوانين الموضوعية فحسب، وانما يبدو أيضا كقانون حقوقي، كقاعدة الزامية في سلوك الناس الذين يحققون المتطلبات العاجلة للتطور الاجتماعي. ويتعاظم دور نظام الحقوق الاشتراكي خاصة في خلق وتوطيد اقتصاد مركزي واحد للمجتمع كله بمساعدة الدولة. وبالرغم من مقولات التحريفيين حول زوال الدولة في الفترة الانتقالية، فان تجربة تطور كل البلدان السائرة في طريق البناء الاشتراكي تؤكد، أكثر فأكثر، أنه لا يمكن بناء الاشتراكية بدون انشاء اقتصاد

مركزي. ولقد أثبتت الحياة ذاتها أن لينين كان على حق عندما أكد، أكثر من مرة، أنه بدون التقيد الصارم من قبل الجميع بانضباط الدولة الواحدة، وخضوع الأجهزة المحلية للسلطة المركزية « . . . لا يمكن بناء الاشتراكية، لأن بناء الاشتراكية يعني بناء الاقتصاد المركزي »[1]

وفي فترة بناء الشيوعية سوف يتوطد نظام الحقوق الاشتراكي، وتتحسن القواعد الحقوقية الناظمة لنشاط المجتمع والموجهة لحل قضايا البناء الشيوعي. ولقد اشار برنامج الحزب الى ان الانتقال الى الشيوعية يعني التطوير الكامل للحرية الشخصية ولحقوق المواطنين السوفييت. وعلى نظام الحقوق والقضاء ان يمكنا من اجتثاث جذور الجريمة والدوافع اليها، وهذا من شأنه ان يتيح لنا، في المستقبل، استبدال قواعد الجزاء الاجرامي بقواعد السلوك الاجتماعي.

زوال الدولة

الدولة هي مؤسسة طبقية، وعن هذا ينتج انه مع القضاء على الطبقات تزول الدولة. ولقد ورد هذا الاستنتاج في اعمال مؤسسي الماركسية اللينينية.

ان تطبيق البناء الشيوعي في الاتحاد السوفييتي طرح مسألة تحديد الطرق الحسية للتطور المقبل وزوال الدولة الاشتراكية. وقد حلت هذه المسألة نظريا، في تقريري اللجنة المركزية اللذين تليا في مؤتمري الحزب الواحد والعشرين والثاني والعشرين، وفي البرنامج الجديد للحزب.

فمن اجل زوال الدولة لابد من توفر الشروط اللازمة الداخلية والدولية. ان المقدمات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لزوال الدولة كليا تنشأ

(١) لينين. المؤلفات. جزء ٢٨ ص ٢٧٧

في المرحلة العليا من الشيوعية فقط؛ اما المقدمات الدولية فتتوفر مع القضاء على كل خطر للعدوان الخارجي، اي عند انتصار الاشتراكية في العالم كله. وحتى هذه الفترة لابد من وجود الدولة.

ان البرنامج الجديد للحزب، اذ طور الماركسية اللينينية بصورة خلاقة، اورد ان دكتاتورية البروليتاريا تزول قبل زوال الدولة؛ وان عملية زوال الدولة تنحصر في تحول الدولة الاجتماعية العامة، الى الادارة الذاتية الاجتماعية الشيوعية.

ان زوال الدولة يعني القضاء على جهاز القمع الخاص بها وعلى كل اجهزتها الاخرى. اما مايتعلق بأجهزتها المرتبطة بالوظيفة التربوية التثقيفية، والاقتصادية التنظيمية فلا يمكن ان تزول. ففي عهد الشيوعية لن يكون ثمة دولة، لكن هذا لايعني ان المجتمع الشيوعي لن يكون محتاجا الى تخطيط للانتاج والاستهلاك، ولحساب المواد الاستهلاكية وتنظيم اشكال الحياة الجماعية والنشاط والى اشياء اخرى كثيرة. ان هذا يتطلب قيام منظمة وطيدة، قوامها نشاط افراد المجتمع ذاتهم. وهكذا ففي المجتمع الشيوعي سوف توجد اجهزة الحكم الذاتي وسوف تتحول الدول الاشتراكية الى حكم ذاتي اجتماعي شيوعي.

وانطلاقا من هذا المجال فان الحزب يهتم الآن بتقوية دور المنظمات الاجتماعية في حياة المجتمع. وقد اشار برنامج الحزب الى ان السوفيات وكل المنظمات الشعبية الاخرى تحمل في داخلها سمات المنظمات الشعبية والحكومية معاً، وان السمات الشعبية سوف تتطور وتحتل المكانة الاولى فيها مع تطور الديمقراطية الاشتراكية. ولهذا فان دفع الجماهير الواسعة المساهمة في ادارة الدولة، من خلال السوفيتات، يعني تطور عادات الحكم الذاتي لدى الكادحين، وتطوير بذور أجهزة الحكم الذاتي الشيوعي، التي ستؤلف السوفييتات دون ريب القسم الكبير منها. والى جانب ذلك سوف يرتفع نشاط

وفعالية وتأثير النقابات والتعاونيات ومنظمة الكومسومول وكل المنظمات العلمية التكنيكية والتربوية التثقيفية، والرياضية وغيرها من المنظمات الاجتماعية الأخرى.

لقد أخذت الجمعيات الرياضية تقوم بادارة الحركة الرياضية، وتسلمّت النقابات ادارة المصحات وبيوت الاستجمام والراحة، وصارت الجمعيات تهتم بصورة أكثر من ذي قبل بحماية النظام الاجتماعي. ويوصي البرنامج بتسليم المؤسسات والنوادي والمكتبات الى المنظمات الاجتماعية، وبتوسيع نشاط الأمن الشعبي المدني، والمحاكم الرفاقية التي من شأنها ان توطد النظام الاجتماعي.

ان هذه الاجراءات من شأنها أن تقوي تطور الديمقراطية وعادات الحكم الذاتي الشيوعي، وتمكن أيضاً من تركيز قوى ووسائل الدولة من أجل حل القضايا الأساسية في تطوير الاقتصاد وتدعيم قوى البلاد الدفاعية. والى جانب ذلك، ففي فترة بناء الشيوعية يتعاظم دور الحزب كمعبر عن المصالح العامة للشعب وكقائد ومنظم للقوى في بناء الشيوعية.

وهكذا، ففي عملية بناء المجتمع الشيوعي تنشأ المقدمات من أجل تحويل الدولة الاشتراكية الى الحكم الذاتي الاجتماعي الشيوعي. واما مايتعلق بالمقدمات الدولية لزوال الدولة فانها تزداد نضوجاً مع تطور الاشتراكية في العالم أجمع.

ومع زوال الدولة تتحول السياسة الى علم عن ادارة الاشياء وعمليات الانتاج، ويتسع ميدان العلاقات بين الناس، ويتعاظم دور الاخلاق في تنظيم العلاقات الانسانية، وتزول الحدود تدريجياً بين الأخلاق والحق، تنشأ اتحاد عضوي بين حقوق وواجبات المواطنين في قواعد واحدة للمجتمع الشيوعي.

* * *

الفصل الخامس

الأشكال التاريخية لاجتماعية الناس

من بداية التاريخ والناس يعيشون ويعملون في اجتماعية محسوسة معينة يتألف منها المجتمع البشري. ونحن، اذ ندرس التاريخ كتطور للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية، فاننا نغفل ذكر الخصائص الفردية للجماعات الانسانية المختلفة، ونبرز تلك السمات العامة للمرحلة المعينة، مما يتيح لنا النفاذ الى جوهر العملية التاريخية. بيد ان تاريخ الانسانية المجسد أغنى من ذلك بكثير، لأن التاريخ هو أيضاً تاريخ الاجتماعات التاريخية المختلفة بكل تنوعاتها وعلاقة بعضها ببعض. وتتجلى قوانين التطور الاجتماعي في إطارات الاجتماعيات المختلفة للناس. ولهذا فان قضية أشكال اجتماعيات الناس، التاريخية، ومكانها ودورها في حياة المجتمع وطابع تطورها تتمتع بأهمية جوهرية من أجل فهم التاريخ وحل القضايا التطبيقية للنضال الطبقي، وبناء الاشتراكية والشيوعية. وهذه هي احدى قضايا علم الاجتماع الذي تدرسها المادية التاريخية.

١ ـ أشكال اجتماعيات الناس

تشكيلة المشاعية البدائية

القطيع البدائي

ان أسلاف الانسان ـ القردة الشبيهة بالأنسان ـ كانوا يعيشون في قطعان حيوانية. وقد خرج الانسان من الطور الحيواني ضمن حدود جماعة معينة هي القطيع البدائي. إن بحاثة هذا المجتمع يدرسون هذا القطيع كشكل انتقالي.

لقد ضم القطيع البدائي الناس الذين أنتجوا أدوات العمل واستخدموها من أجل تأمين وسائل المعيشة والدفاع عن النفس. آنذاك نشأت تعاونية

بسيطة وتقسيم للعمل على أساس الجنس والسن. كان الناس البدائيون يعملون ويدافعون ضد الخطر الخارجي في جماعات، وكان هذا ضروريا من أجل بقائهم وتطورهم. وبدأت آنذاك القوانين الاجتماعية فعلها.

والى جانب ذلك، فقد كانت مخلفات الطور الحيواني لاتزال قوية في القطيع البدائي فصارت القوانين البيولوجية تعمل جنباً الى جنب مع القوانين الاجتماعية. ولقد استمر القطيع البدائي مئات الآلاف من السنين الى ان تم تكوين العمل والمجتمع وظهور الملامح الحضارية للانسان الحديث. لقد عاش كل من انسان بيتيكانثروب وشيننسكروب ونياندرتال ـ اسلافنا الاوائل ـ في قطعان.

ان مستوى الانتاج المنخفض، وقلة وسائل المعيشة والتبعية للشروط الطبيعية كل هذا كان يؤدي، بين حين وآخر الى تبعثر القطيع البدائي ثم الى ظهوره من جديد، وعلى أية حال فلم يكن يشكل قطيعاً مهماً من حيث العدد.

وهكذا، فقد كان القطيع البدائي أول شكل انتقالي للمجتمع الذي حدث فيه تكوين الانسان. ولقد ظهر ذلك القطيع عندما انفصل الانسان عن عالم الحيوان وبدأ بانتاج أدوات العمل، وما زال باقياً الى ان تكونت ملامح الانسان الحديث نتيجة لتطورها التدريجي البطيء.

المجتمع العشائري القبلي.

ان المنظمة القبلية هي أول شكل للمجتمع الانساني جاءت في أعقاب القطيع البدائي، ولعبت دوراً كبيراً في تطور المجتمع. ويفترض العلم ان النظام العشائري ظهر في العصر الحجري القديم عندما ظهرت الملامح

الفيزيائية لنموذج الانسان الراهن.

ولقد سمح تطور الانتاج بنشوء جماعة بشرية أشد ثباتاً واستقراراً من القطيع البدائي، بل وجعل ذلك ضرورياً. عندئذ ظهرت العشيرة التي كانت شكلا معيناً لاجتماعية الناس، وخلية انتاجية موحدة وشكلا للتنظيمات الاجتماعية في المجتمع البدائي في آن واحد.

كانت العشيرة تضم جماعة من الناس، تجمعهم صلة القربى من ناحية الأم، ويلتفون حول بعضهم بواسطة العمل الجماعي والدفاع المشترك عن المصالح العامة، وتربطهم اللغة والأعراف والتقاليد. ان اعتبار صلة القربى من ناحية الأم يفسره الدور الذي كانت تلعبه المرأة في اقتصاد العشيرة، وزوجها من رجال عديدين بشكل يصعب معه تمييز الأب، ولهذا فقد سادت النسبة الى الأمهات في العشيرة.

وكانت علاقات الزواج من أفراد العشيرة الواحدة ممنوعة، ولهذا فلم تكن العشيرة لتقدر على الانعزال لوحدها. وكان منع زواج أفراد العشيرة من بعضها يعني منع زواج الاخوة بالأخوات لأنهم كانوا جميعاً تربطهم رابطة الدم. وكان هذا بحد ذاته خطوة تقدمية لما له من أثر على تقوية النسل. وكانت وحدة عشيرتين أو أكثر تؤلف القبيلة. وكانت علاقات الزواج تقوم بين أفراد العشائر المختلفة داخل القبيلة. ولهذا فقد كانت القبيلة وحدة متماسكة قائمة بذاتها.

وفي الفترات الاخيرة من النظام العشائري ظهر اتحاد القبائل. لقد كانت القبيلة تملك بقاعاً معينة تختلف من حيث المساحة والاتساع، تعيش عليها وتصيد وترعى. وكان خرق حدود القبيلة يعتبر انتهاكاً وعملا عدوانياً، ولهذا فقد كانت كل قبيلة تحمي اراضيها حماية صارمة. وكان زعماء القبيلة أو شيوخها هم الذين يتولون ادارتها معتمدين على قوة شخصيتهم من جهة، وعلى التقاليد من جهة أخرى. وكان جميع افراد القبيلة متساوين في الحقوق.

لقد كان المجتمع العشائري القبلي شكلاً مرناً قابلا للتكيف مع أكثر

الشروط تنوعاً لحياة الناس في المجتمع البدائي. ولقد أمن هذا المجتمع العمل المشترك والدفاع المشترك ضد قوى الطبيعة وقوى القبائل المعادية، وتربية الجيل الصاعد، والاستراحة، والتسلية، والاستمرار في الانتاج والاعراف والتقاليد، وامكانية تقدم القوى المنتجة. ولهذا فقد كان ظهور النظام القبلي بمثابة قفزة هائلة في تطور المجتمع البدائي الأول، كان ظهوراً لذلك الشكل الاجتماعي الذي يؤمن المعيشة وتطور الانتاج في تلك الشروط.

هذا ولم يكن عدد أفراد القبيلة كبيراً بالطبع. فقد كانت القبيلة الواحدة تعد مئات أو ألوفاً، وفي أحسن الأحوال عشرات الألوف من الناس. ولم تظهر، في تلك الظروف، مجتمعات أكبر من ذلك، لأن الصيد البري، وصيد الأسماك، والزراعة البدائية للأرض، لم تكن جميعها تقدر على تأمين وسائل المعيشة. والى جانب ذلك، فقد أدى تطور الانتاج في النظام القبلي الى تغير النظام ذاته. فبالنسبة للقرابة انتقلت أشكال الزواج المتعدد الجماعي الى العائلة المزدوجة التي كان فيها الزوج والزوجة متساويين في الحقوق. ومع ظهور الزراعة الفأسية، وتربية الماشية، بدأت الثروات بالتجمع، ونما دور الرجل في الانتاج وتعاظم، بينما أصبح عمل البيت ثانوياً وتكدست الثروات لدى بعض الأسر. وكان هذا كله من شأنه أن يؤدي الى استبدال القرابة عن طريق الأم بالقرابة عن طريق الأب، وصار الأب قادراً على أن يورث ممتلكاته وثروته الى أبنائه من بعده. واختلت المساواة السابقة بين الرجل والمرأة، واحتل الرجل المقام الأول في الأسرة والقرابة، وظهر النظام الأبوي. وكان ظهوره علامة تفسخ النظام القبلي والانتقال الى المجتمع الطبقي(١).

---

(١) يرى بعض الباحثين ان الانتقال الى المجتمع الطبقي كان يحدث أحيانا في نطاق النظام الأموي الذي كان يعقب في بعض الاحيان النظام الأبوي. وعلى أية حال فعند ذاك ينبغي أن ندرس النظام الأموي كدرجة في تفسخ النظام القبلي حيث تختل المساواة بين الرجل والمرأة وتحتل المرأة المقام الأول.

وبـالرغم من أن المنظمة العشائرية خاصة بالمجتمع الأول لكن مخلفاتها تبقى طويلا في المجتمع الطبقي، وخاصة عند الشعوب المتخلفة في تطورها. ففي الاتحـاد السـوفييتي لاتزال عند بعض شعوب القفقاز وغيرها آثار معينة للنظام العشائري (كالأخذ بالثأر مثلا وغيره). وبديهي أن هذه المخلفات تلعب دوراً رجعياً وتصفى تدريجياً. ومن بين هذه المخلفات استعمال الارض بشكـل جماعي الـذي بقي طويلا في المجتمع الطبقي (المشاعة في روسيا، والماركا في ألمانيا).

لقد التقى المجتمعان الطبقي والقبلي في شكل آخر أيضاً. فعندما بدأت الرأسمالية تتطور في أماكن كثيرة من أوربا وافريقيا وأمريكا، كان النظام القبلي، في استراليا والجزر التابعة لها، لايزال على درجات مختلفة من تطوره وتفسخه. ثم إن الاستعـمار، باحتـلاله للمستعمرات، استعبد القبائل المحلية التي لم تستطع مقاومة أولئك المالكين لأسحلة جديدة تطلق النار. وكثير من القبائل تنقرض عن بكرة أبيها، وكثير منها تنحصر في بقاع صحراوية لاتلائم العيش وتبقى في حالة معيشية يرثى لها. فبالترهات الرخيصة، والمشروبات القوية، وبـالمدافع والبنادق، وبالصليب وتعاليم السيد «الروماني»، وبشره التجار الوحشي وبسوط الجلاد الرهيب «منحت» المدينة الأوربية أرض المستعمرات للغزاة. ان المصير المأساوي لسكان أستراليا الأصليين ولهنود أمريكا الشمالية أبلغ مثال على النتائج التي أدى اليها تصادم النظام الرأسمالي والنظام القبلي. لقـد قطعت الـرأسمالية الدرب الطبيعي لتطور المستعمرات، وصارت تلك القبائل التي لم تنقرض مضطره الى التكيف مع الشروط الجديدة.

صحيح ان النضال، في وقتنا الحاضر، من أجل بقاء النظام القبلي بكل صفائه البدائي، حيث يوجد، هو عمل رجعي وخيالي. فالتاريخ لايقدر على الوقوف ولاعلى التراجع. لكن ثمة طرق عديدة لتلقين الثقافة والمدنية الراهنة لأولئك البدائيين المتخلفين. ان الاشتراكية هي التي أوجدت هذه الطرق.

فعند قيام السلطة السوفييتية، مثلاً، كان ثمة بعض القبائل في الطرف الشمالي من البـلاد لاتزال في مرحلة تفسخ نظامها القبلي. والآن، وبفضل مساعدة الشعب الـروسي والشعوب السوفييتية الاخرى نشأت العلاقات الاشتراكية كاملة هناك، وقد نفض عنهم الناس، في تلك المناطق النائية، غبار التخلف الاقتصادي والسياسي. ولقد أنقذت السلطة السوفييتية كثيراً من تلك القبائل من الانقراض. وهكذا، فان التاريخ يثبت امكانية الانتقال من النظام القبلي مباشرة الى الاشتراكية دون المرور عبر المجتمع الطبقي (وبالطبع لايكون هذا الا عن طريق المساعدة الاخوية للشعوب الاشتراكية).

كما أن القضية ذاتها حدثت في جمهورية الصين الشعبية. ففي كثير من مناطق الصـين، وخـاصة عند حدودها الجنوبية، بقيت أقليات تعيش في قبائل لها زعماؤها وعاداتها القبلية العشائرية. ان الحزب الشيوعي الصيني يرى أن من الممكن جذب تلك القبائل مع زعمائها لتندمج بصورة تدريجية مع تيار التطور الاشتراكي والثقافة العصرية الراهنة.

٢ ـ الشعوب

ان الانتقال الى المجتمع الطبقي ترافقه تحولات عميقة في أشكال اجتماع الناس. ويؤدي نشوء عدم المساواة والطبقات المتناقضة الى خرق وحدة مصالح العشـيرة والقبيلة وتحـطيم العـلاقات العشائرية ـ القبلية التي فقدت أهميتها السابقة. ان تزايد السكان، ومعاناتهم الكبيرة في تلك الشروط القاسية، من شأنها أن تؤدي الى اختـلاط القبـائل المختلفة في مكان واحد، والى تشكيل اجتماعية جديدة للناس هي الشعوب.

إن نشوء الشعوب لايمكن ان يدرس كنتيجة للزيادة البسيطة في عدد نفوس القبائل. فالقضية هي في تكونّ خليط جديد وظهور مجتمع جديد بنوعيته. فاذا

كانت العشيرة والقبيلة اجتماعيةً معينةً، ووحدةً اقتصاديةً، وشكلاً معيناً للتنظيم الاجتماعي، فان الشعوبية لاتقوم بكل هذه الوظائف. ففي فترة انحلال النظام العشائري أخذت العشيرة تفقد قيمتها تدريجياً كوحدة اقتصادية، وانتقلت هذه الوظيفة الى الاسرة الأبوية. وفي المجتمع الطبقي يكتسب الاقتصاد طابعاً فردياً وخاصاً، وتنعكس الروابط الاقتصادية في تقسيم العمل والتجارة. وتأتي الدولة ـ كما رأينا آنفاً ـ لتحل محل التنظيم الاجتماعي للنظام العشائري. وهكذا، ينشأ انقسام في الوحدة البدائية للوظائف الاجتماعية المتنوعة التي يقوم بها التنظيم العشائري.

ليس الشعب تكويناً حكومياً أو اقتصادياً، وانما هو اجتماعية بين الناس تكونت تاريخياً، واتحدت بواسطة الأرض واللغة والتكوين النفسي. انه اجتماعية أكثر اتساعاً وعدداً من العشائرية ـ القبلية، ويخلق امكانيات أكثر من أجل تطوير قوى الانتاج. وفي حدود الشعب تنشأ الشروط اللازمة من أجل تطوير قوى الانتاج. وفي حدود الشعب تنشأ الشروط اللازمة من أجل التقسيم الاجتماعي للعمل وانقسام المجتمع الى طبقات. . . الخ.

ان نشوء الشعوب مشروط بمتطلبات الانتاج. وهذا الشكل لاجتماعية الناس خاص بالتشكيلتين الرقية والاقطاعية. ويتحدد طابع اجتماعية الناس في هذهالتشكيلات بالبنية الاقتصادية. وتظهر الشعوب لأول مرة في المجتمع البدائي الأول. ولكن الأرقاء الذين يعاملون كحيوانات بل وكأشياء، هم الطبقة العاملة الأساسية في هذا المجتمع، في حين أن الشعب يتألف من المواطنين الأحرار. وهكذا فان الشعب، كشكل اجتماعي، لايشمل الطبقات الأساسية لهذه التشكيلةوجرى استثناءالأرقاء من عداد الشعب لأن معظمهم كانوا من أسرى الحرب، أي أنهم كانوا ينتمون الي قبائل وشعوب أخرى. وبالرغم من أن ازدهار المجتمع الاغريقي القديم قام على عمل جماهير الأرقاء الواسعة، فان أحداً لم يكن ليعتبرهم اغريقيين وأفراد في الشعب الاغريقي.

وهذا يعني أن عملية تكون الشعوب في مجتمع عهد الرق لم تكتمل بعد.

وفي التشكيلة الاقطاعية ينشأ الشعب كجماعة تاريخية تحوي في داخلها جميع طبقات وفئات المجتمع. وبالرغم من أن الفلاحين يعتبرون هنا فئة سفلى وبشراً من الدرجة الثانية، وبالرغم من أن الهوة بين مايدعى بـ « النبلاء » و « السواد » جد سحيقه، لكنهم جميعاً ينتمون الى الشعب، لأنهم لايعيشون فقط على أرض واحدة، بل ويتكلمون لغة واحدة، وثمة أشياء مشتركة في تكوينهم النفسي. ان الاقتصاد في ظروف المجتمعين الرقي والاقطاعي هو اقتصاد طبيعي، وان قوى الانتاج ووسائل التفاهم لم تزل ضعيفة التطور، وان الروابط الاقتصادية المتينة تحمل قسماً كبيراً من طابع المحلية. ان النمط الانعزالي في المعيشة، وصعوبة المواصلات بين مختلف مناطق الأرض التي يقوم عليها الشعب تؤدي أيضا الى نشوء اللهجات المحلية المختلفة. ففي الصين، مثلا، ونتيجة لسيطرة الاقطاعية الطويلة، اختلفت اللهجات الى درجة أن ساكن بكين يتكلم بلغة لايفهمها ساكن شانغهاي، بينما اللغة الكتابية واحدة. وفي وقتنا الحاضر تجري تصفية تلك الفوارق.

وخلال ألف عام من وجود المجتمعين الرقي والاقطاعي طرأت تغيرات جوهرية على التركيب العرقي لسكان كثير من البلدان. أن نهضة وسقوط الدول، والحروب والغزوات الدائمة كانت تؤدي الى سقوط وفناء بعض الشعوب وابتلاع الشعوب لأخرى أضعف منها. ولقد رافق نشوء الاقطاعية في أوربا نشوء شعوب جديدة. لكن الشعوب صارت أكثر اتحاداً ومتانة من حيث وحدة بنيتها ـ وخاصة مع تطور الرأسمالية ـ فهي تتمسك بلغتها وثقافتها في أقسى الظروف. فمثلا، لم تنجح المحاولات الالمانية في « ألمنة » تشيكوسلوفاكيا، واستطاع البلغاريون أن يحافظوا على اصالتهم تحت ضغط الاحتلال التركي الطويل الرهيب.

ولقد أدى تطور الرأسمالية الى ظهور شكل تاريخي جديد للمجتمع هو الأمة.

٣ ـ الأمة ـ القضية القومية في ظل الرأسمالية

نشوء الأمة

ان عصر الرأسمالية الصاعدة هو عصر نشوء الأمم. والماركسيون يذهبون إلى أن الأمة لم توجد قبل الرأسمالية، لأن الشروط الاقتصادية اللازمة لنشوئها كانت لاتزال معدومة. ان تكون الشعوب من اختلاط مجموعات جغرافية مختلفة اتحدت في الأرض، واللغة، والثقافة، كان المنطلق لتكوين الأمة مع أنه ليس ضرورياً أن تتألف الأمة من شعب واحد. فكل الأمم الحديثة نشأت وتنشأ نتيجة لاتحاد الشعوب المختلفة.

ان المنطلق الضروري لتكوين الأمة هو انشاء التجمع الاقتصادي. ففي ظروف الاقطاعية وجدت، بالطبع، روابط اقتصادية داخل الشعوب وفيما بينها. لكنها لم تكن روابط متينة دائمة وغالباً ماكانت تمزقها الحروب.

ان الانتاج الرأسمالي، بتقسيمه المتطور للعمل، وروابطه الاقتصادية المتينة، وحاجته الى أسواق التصريف وسوق اليد العاملة الحرة، يخلق ذلك التجمع الاقتصادي الذي لم يعرف من قبل، في عهد الشعوب. ان تطور الانتاج الرأسمالي يتعارض مع الانعزالية في المكان ومع التبعثر الاقطاعي.

ولهذا فالرأسمالية تحطم الحواجز الاقطاعية، وتوحد الأسواق المحلية الضيقة في سوق وطنية واحدة، وتؤدي الى نشوء الأمة. ان تطور الانتاج الرأسمالي هو تلك القوة التي من شأنها أن تجعل الناس ينتظمون في أمة.

وهكذا، فان الأمة، كشكل لتجمع الناس، نشأت عن متطلبات الانتاج

الرأسمالي وتنشأ على أساسه. وهي تنشأ لأنها ضرورية من أجل تطور الانتاج الرأسمالي الضخم.

ان نشوء الأمم يبدأ في قلب المجتمع الاقطاعي مع نشوء القطاع الرأسمالي. لكن هذه العملية لم تتساو أبعادها في جميع الاماكن. فبالنسبة للبلدان الأوربية حدثت هذه العملية في فترة نشوء العلاقات الرأسمالية. ثم ان الشعوب التي صارت ضحية توسع الدول الامبريالية الاستعماري بدأت تتشكل في أمة، في عصر تقيح الرأسمالية. ان بعض الشعوب لاتصل الى مرحلة الامة في عهد الرأسمالية وانما يحدث ذلك بالنسبة لها في ظروف الاشتراكية.

مميزات الأمة ومكانها في الحياة الاجتماعية

الأمة هي تجمع أكثر استقراراً وعدداً من الشعب. وهي، كظاهرة اجتماعية، تجمع مادي (الحياة الاقتصادية والأرض) ولغوي وروحي (التكوين النفسي). وينشأ التكوين النفسي للأمة كانعكاس لظروف الحياة المادية. ويتجلى في خصائص الطابع، والشكل، القوميين للثقافة. واللغة القومية هي أما تطور للغة الشعب، أو تطور لهذه اللهجة أو تلك في ظروف ملائمة معينة. ان لغات الأمم جميعاً تحمل في ذاتها آثار الصلات والعلاقات المتبادلة بين الشعوب والأمم. وان وجود اللغة شرط ضروري للتفاهم بين الناس في كل مجالات الحياة الاجتماعية، ولنشوء المجتمعات الروحية والاقتصادية، وبدونه لايمكن أن تقوم الأمة.

والأمة ـ ككل التجمعات البشرية الأخرى ـ لاتعود الى القاعدة فقط، ولا الى البنيان الفوقي للمجتمع فقط، بالرغم من أن وجودها وتطورها يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالقاعدة والبنيان الفوقي للمجتمع معاً. هذا وان كلا من القاعدة والبنيان الفوقي يترك أثره الواضح في مظهر الأمة وتاريخها، وهما في الوقت ذاته

يؤلفان المحتوى الاجتماعي المحسوس للأمة.

ثم إنه لابد من التفريق بين الأمة والعرق. فالفوارق العرقية بين الناس تنشأ لأن هذه المجموعات البشرية أو تلك تعيش أمداً طويلا في ظروف وسطها الجغرافي الخاص، وتحت تأثير ذلك الوسط. ان الفوارق العرقية التي هي فوارق في السمات الظاهرية ـ كلون البشرة والشعر وغيرهما ـ لا أهمية لها مطلقاً في دراسة الانسان ككائن اجتماعي. فالناس، على اختلاف عروقهم، يلتقون في كونهم بشراً تتساوى امكانياتهم في العمل والتفكير وغيرهما. ان التمييز العرقي وليد للمجتمع الطبقي المتناقض، ويزول مع زوال التناقضات الطبقية الاجتماعية. والماركسية ـ اللينينية تشجب ايديولوجية التمييز العرقي المعادية للانسانية، وهي تبرهن على خطأ وكذب تقسيم الناس الى عروق سامية وأخرى واطئة.

تطور العلاقات المتبادلة بين الأمم في عهد الرأسمالية

يحدث تطور الرأسمالية في أشكال قومية مختلفة. فالبورجوازية تدخل النضال ضد الاقطاعية تحت راية القومية موحدة مصالحها مع مصالح الأمة ككل. وهي تستخدم الفكرة القومية من أجل تغطية التناقضات الطبقية داخل الأمة لتبرز التناقضات بين الأمم ذاتها. وفي هذا ينحصر جوهر القومية البورجوازية. ان الطبقة العاملة تعارض القومية البرجوازية بالاممية البروليتارية التي تؤكد وجود التناقضات بين المستغلين داخل الأمة، ووحدة مصالح الطبقة العاملة والكادحين جميعاً رغم ارتباطاتهم القومية. فالقومية البورجوازية، والأممية البروليتارية، نظرتان متناقضتان الى القضية القومية. ويمكن للقومية البرجوازية ان تلعب دوراً تقدمياً عندما تستخدمها البورجوازية في النضال ضد الاقطاعية والامبريالية، ومن أجل الاستقلال الوطني. وعلى الطبقة العاملة أن

ترى أبعد مما تراه البورجوازية وألا تستسلم لسمها فيما بعد. فالقومية البورجوازية تصير رجعية بكليتها عندما تتوجه ضد الأممية البروليتارية من أجل ابعاد الطبقة العاملة عن النضال في سبيل الاشتراكية، ومن أجل اخضاع الجماهير الشعبية للبورجوازية تحت راية الوحدة القومية. ان الطبقة العاملة هي أيضاً، قومية من حيث أن كل طبقة عاملة، في أمة تعتز بثقافتها القومية وبلغتها وتقاليدها.. الخ. لكن القومية غريبة عن مصالحها لأنها تفرق بين البلدان المختلفة البروليتارية. ان الأمم تنشأ مع تطور الرأسمالية هي أمم بورجوازية. فخلف تجمعها القومي يكمن التناقض بين الطبقات التي تكون الطبقة البورجوازية صاحبة القيادة فيها، وان الثقافة القومية السائدة تكون بمحتواها الفكري بورجوازية أيضا. ولهذا فالبورجوازية تستخدم الايديولوجية القومية عن قصد وتصميم. ان الايديولوجية الأممية التي توحد الكادحين ونضالهم من أجل تحرير الأمة من طغيان البورجوازية هي التي تعبر عن مصالح البروليتاريا.

« ان القومية البورجوازية والأممية البروليتارية شعاران متناقضان يتلاءمان وقيام المعسكرين الطبقيين العظيمين في العالم الرأسمالي، ويعبران عن سياستين (بل واكثر من هذا ـ عن نظريتين) حول القضية القومية »[١].

ان العلاقات الطبقية التناقضية، علاقات السيطرة والخضوع في المجتمع البورجوازي تتعدى الطبقات داخل الأمة الى علاقات بين الأمم. ان الملكة الخاصة تباعد بين الأمم فيقوم بعضها باستبعاد بعضها الآخر، وتنشأ الخلافات القومية والصراع القومي والقضية القومية.

إن الرأسمالية، كما أشار لينين، تعرف اتجاهين تاريخيين في القضية القومية. فالأول نشوء الأمم و الدول القومية ويقظة الحياة القومية، والنضال ضد الاضطهاد القومي. و الاتجاه الثاني ينحصر في تطوير جميع العلاقات بين الأمم

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٠ ص ١٠.

وتحطيم الحواجز القومية، وخلق وحدة أممية لرأس المال وللحياة الاقتصادية بوجه عام، وللسياسة والعلم وغيرها.

الاتجاه الاول يظهر في بداية تطور الرأسمالية، بينما الثاني يظهر في عصر الامبريالية. وبتعبير آخر. ان رأس المال اذ بدأ تطوره ضمن النطاق القومي، لايلبث أن يضرب هذا النطاق ليتعداه الى غيره بعد أن ضاق به. ان تطور الأمم، وتطور العلاقات فيما بينها، هو ظاهرة تقدمية بوجه عام. لكنه يتخذ أشكالا تناقضية طبقية في ظروف الرأسمالية التي تقوى النزعات القومية عندها وتحاربها عند الآخرين. واذا كانت الشعوب قد تأخرت في تطورها فان ايقاظ حياتها القومية يحدث في النضال ضد الامة المضطهدة. وينشأ تقارب الأمم، في عهد الامبريالية، بصورة رئيسية، عن طريق العنف والاستعباد، أو عن طريق حصول احدى الأمم على امتيازات بالنسبة للأمم الأخرى.

وهكذا، وعلى أساس تطور أسلوب الانتاج الرأسمالي تحدث عملية نشؤ وتطور الأمم وعلاقاتها المتنوعة. لكن هذه العمليات التقدمية الموضوعية، في المجتمع البورجوازي، تحمل آثار التناقض الطبقي. ان القومية و الاضطهاد القومي، هما نموذجي لمجتمع الملكية الخاص.

القضية القومية والثورة الديمقراطية البورجوازية

ان استبعاد واضطهاد أمة لأخرى يستدعي نضال الأمة المضطهَدة من أجل تحررها الوطني، وتبرز القضية القومية بصورة ملحة ـ قضية تصفية الفوارق القومية والاضهاد القومي. ان القضية بالنسبة للماركسين جد واضحة: فطالما أن الملكية الخاصة والطبقات ما تزال قائمة، فان القضية القومية لا يمكن أن تحل كاملة، وكل ما هنالك هو أن تطور العلاقات الديموقراطية بين الأمم تخفف من حدتها بعض الشيء. هذا جوهر النظرة الماركسية الى القضية

القومية. فهي لا تدرسها كقضية مستقلة، وانما كجزء من القضية العامة للثورة، والديموقراطية، والتحويل الاشتراكي للمجتمع، تدرسها كجزء من قضية تحرير الكادحين. ولهذا فان تقويم هذه الحركة القومية أو تلك، وعلاقة الطبقة العاملة بها، يتعلقان بمدى ملاءمة قيمتها الموضوعية وطابع متطلباتها. . . لمصالح التطور التقدمي للمجتمع. وهناك حركات قومية رجعية أيضاً (الصهيونية مثلاً) وثمة حركات أخرى تكون في بدايتها ذات واجهة تقدمية ثم لا تلبث أن تعلن عن رجعيتها. فمن أجل أن يستوي بنا الحكم في الدياليكتيك المعقد للحركات القومية المختلفة، لا بد من أن نتناولها من الناحية التاريخية المحسوسة، ونربطها بالتطور العام للنضال الطبقي في هذا العصر أو ذاك. وبموجب هذا تبرز المتطلبات المحسوسة للقضية القومية، ويوضع برنامج محسوس كذلك. ففي (روسيا مثلاً)، وقبل ثورة شباط، عندما كانت القضية القومية بارزة بصورة جادة، كان البلشفيك ينظرون الى القضية القومية كجزء من قضية الثورة الديموقراطية ـ البورجوازية. ولقد كانت مهمة البرنامج القومي تنحصر في أضعاف الفوارق وعدم الثقة بين القوميات، وفي اتاحة المجال لالتفاف جماهير القوميات جميعاً ووحدتها في النضال ضد السلطة المطلقة. وكان هذا ينسجم مع المطالب الديموقراطية للبلاد: حق الأمم في تقرير مصيرها، والاستقلال الذاتي، والاتحاد القائمة على اساس المساواة، وانشاء الحزب حسب المبدأ الأممي. ويمكن أن يختلف البرنامج في ظروف أخرى مختلفة لكنه ثمة مبادىء عامة لا يمكن حل المسألة القومية بدونها، ومؤداها التنكر الحاسم لكل أشكال الارغام في العلاقات بين القوميات، والاعتراف بالمساواة بين الشعوب وحقها في تقرير مصيرها، وبأنه لا يمكن اقامة وحدة متينة دائمة بين الشعوب على اساس التعاون والاختيار.

ففي القرن التاسع عشر، وفي فترة رأسمالية ما قبل الاحتكار، كانت المسألة القومية تقتصر على حلقة ضيقة من الدول الأوروبية بالدرجة الأولى. وكانت

شعوب شبه جزيرة البلقان، والشعب الايطالي، والايرلندي، والتشيكي، والبولوني، والفنلندي . . . وغيرها واقعة تحت نير الظلم والاضطهاد، وتناضل من أجل تحررها الوطني. وكانت آسيا لم تزل نائمة. لكن القوى التي عصفت في الصين والهند كانت بمثابة انذار هائل مبشر بنهوض تلك العملاقة النائمة.

حركة التحرر الوطني في المستعمرات.

لقد اتسع نطاق القضية القومية في عصر الامبريالية، فتحولت الى قضية قومية للمستعمرات، الى قضية تحررشعوب المستعمرات من ظلم الامبريالية.

ويفسر هذا الاتساع للقضية القومية كثير من الظروف. ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر احتلت الدول الاستعمارية المناطق الباقية التي لم تشغلها السلطات الاستعمارية حتى ذلك التاريخ. ويمكن الحكم بمقتضى هذه الارقام: ففي عام ١٨٧٦ احتلت الدول الاستعمارية ١٠,٨٪ من القارة الافريقية، وفي عام ١٩٠٠ صارت النسبة ٩٠,٤٪[١]. وفي بداية القرن العشرين تم تقسيم العالم بين الدول الرأسمالية الكبرى. ان افريقيا كلها تقريبا، والقسم الأكبر من آسيا، وكثير من بلدان قارة أمريكا وأوقيانوسيا التي كان يقطنها، عام ١٩٠٤، ٥٦٪ من سكان الكرة الارضية كانت تعيش في تبعية استعمارية أو نصف استعمارية لبعض الدول الامبريالية. وتصبح المستعمرات مصدر القوة للدول الاستعمارية، وخطاً خلفياً واحتياطياً للامبريالية. فهي تلعب دوراً مهماً في نظام الامبريالية باعتبارها مصدراً للمواد الأولية ولليد العاملة الرخيصة، وسوقاً لتصريف الانتاج، ومجالاً لتوظيف

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٢ ص ٢٤١.

رؤوس الأموال. ان الامبريالية تستثمر الكادحين في المستعمرات بصورة وحشية، وتقوم بنهب كل ثرواتها الطائلة.

لقد أعطت ثورة أوكتوبر العظمى دفعة قوية لحركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة. وبذلك بدأت أزمة النظام الاستعماري للامبريالية.

لقد نشأت وتعاظمت، تدريجياً، عوامل كثيرة لنسف النظام الاستعماري للامبريالية الذي يعتبر وصمة عار في جبين الانسانية. بين أهم تلك العوامل نشوء النظام الاشتراكي وتأثيره الثوري على كل العمليات في المجتمع الرأسمالي. ومن أهم شروط نمو حركة التحرر الوطني الموجهة ضد الامبريالية أيضا تطور الصناعة والعلاقات الرأسمالية في كثير من البلدان المستعمرة والتابعة، وظهور البروليتاريا والمثقفين والبورجوازية الوطنية هناك. ولقد أدت هذه العمليات الاجتماعية الى نمو الوعي القومي لدى الشعوب، والى التعبير العاصف عن نقمتها على الاضهاد الاستعماري والقومي.

« ان احدى الخصائص الرئيسية للامبريالية تنحصر في تعجلها بتطور الرأسمالية في البلدان المتخلفة ذاتها، وهي بهذا أيضا توسع وتفاقم النضال ضد الاضطهاد القومي »[١].

بيد أن الامبريالية تسنى لها، في فترة ما بين الحربين، أن تحافظ على مواقعها في المستعمرات. ثم اشتد ساعد حركة التحرر الوطني في البلدان المستعمرة والتابعة، وصار نضال شعوب المستعمرات الموجه ضد الامبريالية ومن أجل الاستقلال الحليف القوي للحركة العمالية الثورية. ولقد ارتفع السيل العارم

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٣ ص ٦٦.

لحركة التحرر الوطني في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وخلال فترة تاريخية وجيزة من التبعية الاستعمارية تحررت بلدان كثيرة يبلغ تعداد سكانها ١,٥ مليار نسمة. وفي وقتنا الحاضر لا يزال ٨٠ مليوناً ونيف من الناس في افريقيا يئنون تحت نير الاستعمار. وفي تلك البلدان ذاتها تزداد الصعوبات أمام الامبرياليين، يوما بعد يوم، في الابقاء على سيطرتهم وحمايتهم. وهذا يعني الانهيار لنظام الأمبريالية الاستعماري.

لقد أكد البيان الصادر عن مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية الأهمية التاريخية العالمية لهذه العملية: « ان انهيار النظام الاستعماري تحت ضغط حركة التحرر الوطني هو الظاهرة الثانية بأهميتها التاريخية بغد قيام النظام العالمي الاشتراكي ».

ان تحرر شعوب البلدان المستعمرة والتابعة من ظلم الامبريالية يجري بطرق مختلفة. فانتطار الثورة الشعبية في الصين. بقيادة الطبقة العاملة، انتزع البلاد من سلسلة الامبريالية ووجهها في طريق التطور الاشتراكي. ومن الصعب تقدير أهمية ذلك النصر. ان انضمام بلد هائل عدد سكانه ٦٠٠ مليون نسمة الى معسكر الاشتراكية كان ضربة قاصمة للأمبريالية، وكان نصراً عظيماً لقوى الديموقراطية والاشتراكية. ولقد سلكت هذا الطريق شعوب كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية.

وفي كثير من بلدان آسيا وأفريقيا ـ في الهند، وبورما واندونيسيا... وغيرها كانت قيادة حركة التحرر الوطني في يد البورجوازية الوطنية. لقد بقيت تلك البلدان، بعد حصولها على استقلالها السياسي، تابعة اقتصادياً للدول الامبريالية، وهي ماتزال تواجه قضية الاستغلال الاقتصادي التام.

ان الامبرياليين الذين يضطرون، في كثير من الأحوال، الى التراجع

والمناورة والاعتراف بالاستقلال السياسي لمستعمراتهم يحاولون ما وسعهم للمحافظة على مواقعهم في اقتصاد تلك البلدان. ولهذا فان تحقيق الاستقلال السياسي لايعني تقليص نضال تلك الشعوب ضد الامبريالية، وان هذا النضال بالذات يتخذ اشكالاً حادة جداً. إن العدوان عل مصر نتيجة لتأميمها قناة السويس، وتنظيم التمرد الرجعي في أندونيسيا ضد الحكومة التي قامت بتأميم الشركات الهولندية، مأساة غواتيمالا الصغيرة التي انقض عليها الامبرياليون الامريكيون وقلبوا حكومتها الديمقراطية التي قامت بتأميم الأراضي التابعة للشركة الامريكية « يونايتدفروت كومباني »، والعدوان الأمريكي ضد كوبا، وأعمال القرصنة واللصوصية في الكونغو وغيرها من الوقائع تبين أن الامبرياليين لايرغبون بالتخلي عن الارباح التي يجنونها من جراء استغلالهم للبلدان المتخلفة التابعة. ان الطرق الفظة للعنف المباشر، وأشكال « المساعدة » الأكثر مرونة تستخدم من أجل ربط البلدان التي حصلت علي استقلالها السياسي الى عجلة الامبريالية، لكن عملية تحرر الشعوب من ظلم الامبريالية لايمكن أن ترجع الى الوراء. وبالرغم من جميع مصاعب هذاالطريق، فان نجاحات حركة التحرر الوطني جد كبيرة وهائلة. وليس بعيداً ذلك اليوم الذي سيدفن فيه النظام الاستعماري المقيت مرة واحدة والى الأبد تحت ضربات حركة التحرر الوطني.

في حركة التحرر الوطني تساهم قوى اجتماعية كثيرة متنوعة. والمناضل العنيد من أجل انتصار حركة التحرر الوطني هو الطبقة العاملة المعتمدة على اتحادها مع الفلاحين الذين يهتمون كل الاهتمام بعمليات الاصلاح الزراعي.

ان البرجوازية الوطنية في البلاد المستعمرة والتابعة تحافظ على امكانية المساهمة في النضال ضد الامبريالية والاقطاعية. وبما أنها طبقة مستغلة، فهي في ظروف معينة، تلتقي مع قوى الرجعية. وكثيراً مايرتبط هذا بالظروف المحسوسة وبفعالية القوى الثورية.

ان مؤتمر الأحزاب الشيوعية والعمالية، المنعقد في تشرين الثاني عام ١٩٦٠، توصل، في دراسته تجربة النضال الوطني التحرري، الى نتائج نظرية بالغة الأهمية فيما يتعلق بأفضل الطرق لتطوير البلدان المتحررة من التبعية الاستعمارية. ويؤكد البيان أنه، في الوضع التاريخي الراهن، تنشأ الشروط الداخلية والدولية في كثير من البلدان لنشوء دولة الديموقراطية الوطنية المستقلة، أي الدولة التي تحقق الاستقلال السياسي والاقتصادي وتناضل ضد الامبريالية وتكتلاتها العسكرية، ضد القواعد العسكرية في أراضيها؛ الدولة المناضلة ضد الأشكال الجديدة للاستعمار، وضد دخول الرأسمال الامبريالي اليها؛ الدولة التي ترفض أساليب الحكم الدكتاتورية والاستبدادية؛ الدولة التي تتوفر فيها للشعب الحريات والحقوق الديمقراطية الواسعة، وامكانية المشاركة في رسم تحديد سياسة الدولة. ويشير البيان الى أن الأحزاب الشيوعية تناضل بقوة من أجل السير بالثورة الديمقراطية المعادية للامبريالية والاقطاعية حتى النهاية، ومن أجل انشاء دولة الديموقرطية الوطنية التي تؤمن السير في طريق التطور اللارأسمالي وترفع مستوى المعيشة للجماهير الشعبية.

٤ ـ تطور القومية في عهد الاشتراكية
السمات المميزة للأمة الاشتراكية

ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية يحدث تغييرات جذرية في حياة الأمم وعلاقاتها ببعضها بعضاً. فتزول التناقضات بين الطبقات في داخل الأمة، وتصبح الطبقة العاملة القوة القيادية فيها، وتغدو الايديولوجية الماركسية ـ اللينينية الايديولوجية السائدة، ويعتبر الشكل القومي للثقافة عن المحتوى الاشتراكي . . . وتتاح للكادحين المضطهدين، سابقاً، كادحي القومية المضطهدة، امكانية التثقيف والتطور من شتى الجوانب، وتزدهر الحياة

والثقافة الوطنية، وترقى الأمم الى المدارج العليا من الحياة الاشتراكية الجديدة. والى جانب هذا يحافظ على التقاليد الوطنية التقدمية ويعمل على تطويرها. وتحل الأمم الاشتراكية محل الأمم البورجوازية.

ومع زوال التناحر بين الطبقات، داخل الأمة، تختفي العلاقات العدائية بين الامم ذاتها، وتنشأ علاقات جديدة من التعاون الاخوي والصداقة بين الشعوب.

ان عصر الاشتراكية هو عصر تطور وازدهار الامم الاشتراكية. وان كلا الاتجاهين في القضية القومية ـ أي اتجاه نشوء وتطور الأمم، واتجاه توسيع العلاقات فيما بينها من أجل خلق اقتصاد موحد ـ يستمران في عهد الاشتراكية. لكنهما هنا لايناقض أحدهما الآخر، ويختفي الشكل التناقضي لظهورهما في الواقع. ويحدث تطور الامم في علاقات التعاون المتبادل فيما بينها مما يؤدي الى النهضة العامة لاقتصادها وثقافتها. ان الاشتراكية تهدف الى تطور الامم من شتى الجوانب، والى التأليف فيما بينها، على أساس الطوع والاختيار.

ان نشوء الأمم الاشتراكية والعرقات الجديدة بينها جزء من العملية العامة لنشوء المجتمع الاشتراكي. ان الاشتراكية تحل المسألة القومية، وتضرب مثلاً في اقامة العلاقات الجديدة بين الشعوب، وهذا يؤلف المأثرة التاريخية العالمية للاشتراكية.

ففي بلدان مختلفة سلكت طريق الاشتراكية نجد أن طرح المسألة القومية وأشكال حلها يتمتع بخصائص معينة، ترتبط بالشروط التاريخية لتطور تلك البلدان. لكن المبادىء الأساسية لسياسة الأحزاب الشيوعية القومية، هي المبادىء العامة لها جميعاً.

حل المسألة القومية في عهد الاشتراكية

ماهي السمات المميزة لعملية نشوء الأمم الاشتراكية، وماهي المراحل الأساسية في طريق حل المسألة القومية؟

ان الثورة الاشتراكية تقرر، منذ البدء، المساواة التامة في الحقوق بين الأمم، والقضاء على الامتيازات وعلى الاضطهاد القومي في كل مظاهره.

كان من بين أوائل أعمال الدولة السوفيتية التشريعية «اعلان حقوق شعوب روسيا» الذي صدر في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١٧، والذي أقر المساواة بين الشعوب، وحق تقرير المصير، والغاء جميع الامتيازات القومية... الخ. وبهذا فقد تقرر نهاية سياسة الاضهاد القومي وتحريض الشعوب ضد بعضها التي كانت تنتهجها القيصرية والبورجوازية الروسية، وأقِرَّتْ السياسة القومية اللينينية الجديدة. ان حق الأمم في تقرير مصيرها، واقامة الاتحاد الفيدرالي فيما بينها، يمكِّن كلَ امة من بناء مستقبلها بحرية تامة، ومن حل المسائل الداخلية في حياتها الخاصة. إن حق الأمم في تقرير مصيرها لا يعني أن البروليتاريا تهتم بفضل أمة عن الأخرى. ان مسألة انفصال أمة لتشكل دولة قائمة بذاتها يمكن أن تحل في الظروف الموضوعية المحسوسة. وليست مصلحة الكادحين في انفصال هذه الأمم عن بعضها، بل في اتحادها والتفاهم على أساس الاشتراكية. ان مبدأ تقرير المصير ينص على الوحدة الاختيارية بين الأمم.

ثم ان القضاء على الاضطهاد القومي، واقرار المساواة في الحقوق بين الامم لا يعني، بعد الحل الكامل للقضية القومية. ان الرأسمالية. تقوم بعرقلة تطور الأمم والشعوب المضطَهدة، وحتى لحظة الثورة تكون هذه الامم والشعوب ذات مستويات ثقافية واقتصادية جد متباينة. ففي روسيا برزت، بعيد ثورة أكتوبر، ثلاث مجموعات من السكان. كانت المجموعة الاولى تضم الأمم التي

عبرت مرحلة الرأسمالية؛ وكانت الثانية تضم الشعوب التي كانت لا تزال تقوم فيها العلاقات الاقطاعية الأبوية؛ أما المجموعة الثالثة فكانت تضم القبائل المختلفة التي كان النظام العشائري ما يزال سائداً فيها. ولاشك أن اعتبار الامة المتطورة متساوية في الحقوق مع الشعوب المختلفة، يجعل هذه المساواة لا ترتكز على أسس حقيقي. ولهذا تضع اللينينية مسألة المساواة بين الأمم على أساس اقتصادي مادي، وتطالب باقامة مساواة حقيقية بين الامم، أي تطوير اقتصاد وثقافة الامم والشعوب المتخلفة والنهوض بها الى مستوى الأمم المتقدمة. لقد وضع الحزب الشيوعي هذه المهمة، وبذل الشعب السوفيتي جهوداً جبارة في سبيل حلها. واليكم بعض الامثلة: لقد زادت مواد الصادرات الصناعية في عام ١٩٦٠ بالمقارنة مع عام ١٩١٣ حسب ما يلي: في جمهورية روسيا الاتحادية ٤٣ مرة، وفي جمهرية اوكرانيا السوفياتية ٢٧ مرة، وفي قرغيزيا السوفياتية ٦٢ مرة، وفي أرمينيا السوفياتية ٦٨ مرة... وينبغي ألا ننسى أن جمهورية روسيا الاتحادية تضم كثيرا من الاقاليم التي كانت على درجة كبيرة من التخلف. وتبين هذه الارقام أن الدولة السوفييتية تهتم بتطوير الجمهوريات والمناطق التي كانت متأخرة، فتطورت فيها الصناعة الحديثة، في عهد السلطة السوفييتية، وحدثت مكننة هائلة للزراعة والمواصلات. والى جانب هذا فقد نمت الطبقة العاملة وتطورت في تلك الجمهوريات، وكذلك الأمر بالنسبة للملاكات الثقافية، وارتفع مستواها الثقافي العام. كما أن كثيراً من الشعوب تحولت الى أمم في عهد الاشتراكية فقط. ثم ان الشعوب التي كانت تفتقر الى لغة كتابية حصلت عليها، في عهد الاشتراكية، الى جانب امكانيات أخرى من أجل تطوير ثقافتها الوطنية. فمثلا كان عدد الذين يتلقون العلم في مدارس طاجكستان السوفييتية، عام ١٩١٤ - ١٩١٥، في جميع مراحلها، يبلغ ٤٠٠ طالب، فأصبح، في عام ١٩٦٠ - ١٩٦١، زهاء ٣٩٣ ألف طالب، أي أن عدد الطلاب تضاعف حوالي ١٠٠٠ مرة؛ وفي

جمهوريه أوزبكستان السوفييتية تضاعف العدد خلال تلك الفترة ذاتها ٨٨ مرة؛ وفي قرغيزيا السوفييتية ٥٦ مرة. . . الخ. وقبل الثورة كانت المعاهد التعليمية العالية توجد في ٥ جمهوريات فقط من ال ١٥ جمهورية الراهنة، والآن تتوفر المعاهد الراهنة، والآن تتوفر المعاهد العليا في جمهوريات الاتحاد جميعها.

كل هذه الأمثلة تبين أن الاشتراكية تساوي بين الأمم. وان التطور السريع للأمم والشعوب المتخلفة، سابقاً، يعزز قوة الدولة الاشتراكية، وينسجم مع المصالح العامة لجميع الشعوب.

المهم في حل القضية القومية ايجاد الأشكال الملائمة لوحدة الأمم في دولة واحدة. وان الأشكال السياسية، في الاتحاد السوفييتي، للاتحاد بين القوميات وتعاونها في بناء الاشتراكية والشيوعية هي في الاتحاد الفيدرالي السوفييتي والاستقلال الذاتي. ان مرونة وتنوع أشكال الفيدرالية السوفيتية والاستقلال الذاتي مكنّت السلطة السوفيتية من دفع الجماهير الواسعة في الحياة السياسية. فتحت قيادة الحزب الشيوعي أقامت الشعوب السوفيتية دولة متماسكة تضم قوميات كثيرة عانت كل الآلام ومن ضمنها الآم الحرب، وضربت مثلا قياسياً في المساواة والتعاون بين الأمم. ان الدولة السوفييتية حققت التمركز الضروري في المجالين الاقتصادي والسياسي، وفي الوقت ذاته استقلال كل جمهورية في حل قضاياها الداخلية المتعلقة بالتطور الثقافي والاقتصادي. وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي اتخذت الاجراءات لتوسيع حقوق جمهوريات الاتحاد، وتوطيد سيادتها، مما يسمح بأخذ الخصائص المحلية بعين الاعتبار عند حل القضايا الاساسية في تطور الاقتصاد والثقافة. ويمكّن من المبادرة لاستثمار المرافق المحلية. . . ان برنامج الحزب يضع مهمة التطوير المقبل لاقتصاد وثقافة كل الأمم السوفييتية، وتأمين اللقاء الوثيق فيما بينها، وتقريبها والتآلف فيما بينها في كل مجالات الحياة.

ان اضطهاد أمة لأخرى، وتسعير الطبقات الرجعية للخلافات القومية يخلفان آثاراً ثقيلة في وعي الشعوب لا تزول بسهولة. ومن أجل توحيد الأمم على أساس الاشتراكية، وازالة الشكوك ومخلفات التناقضات القومية، لابد من تربية الجماهير، بروح الأممية، والنضال ضد التعصب القومي البورجوازي وضد الشوفنية، وتعزيز هذا العمل الايديولوجي بسياسة تأخذ بعين الاعتبار حاجات الأمم المختلفة ومصالح الدولة العامة. ان هذه السياسة بالذات ينتهجها حزبنا الذي يسير على تعاليم لينين القائلة بأن العناية الكبيرة بمصالح الأمم المختلفة تقوض أساس النزعات والشكوك فيما بينها.

ثم ان تطور العلاقات الاشتراكية الجديدة بين الأمم يحدث في نضال ضد الايديولجية البورجوازية و مخلفاتها في المسألة القومية. ان المخلفات القومية التعصبية قوية وينبغي أن تجابه باليقظة الدائمة. وقد تمكن حزبنا، في أعوام بناء الاشتراكية، من القضاء على النزعة الشوفينية والتعصب القومي، وكانت لهذا أهمية كبرى في توطيد أواصر الصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي، وفي انتصار الايديولجية الماركسية ـ اللينينية. ففي هذه الايديولوجية تلتقي أفكار الوطنية بالحب والاخلاص للشعب في الوطن الاشتراكي، تلتقي بالأممية البروليتارية، وبالتعاون بين جميع الشعوب.

ومع نشوء المعسكر الاشتراكي صارت الأممية الأساس الفكري للعلاقات المتبادلة بين الدول الاشتراكية، وللنموذج الجديد للعلاقات الدولية. ان التعاون المتبادل، والمساعدة الأخوية بين بلدان المعسكر الاشتراكي في المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية، هي القوة الجبارة القادرة على زيارة وتيرات تطورها، وعلى التعجل في تطوير البلدان التي كانت متخلفة في السابق، ممّا يؤدي الى تعادل مستوياتها والانتقال الى الشيوعية في فترات متقاربة.

وهكذا، ففي كل تشيلة اقتصادية اجتماعية يتكّون، على مستوى معين من

تطور قوى الانتاج، نموذج من اجتماع الناس يتلاءم مع تطور قوى وعلاقات الانتاج. ويحدث التطور في الرأسمالية والاشتراكية في شكل الأمة حيث أن الأمة الاشتراكية تجمعها سمات مشتركة ـ شكلياً ـ مع الأمة البورجوازية: اللغة: الأرض، الحياة الاقتصادية والتكوين النفسي. لكن هاتين الأمتين تختلفان، من حيث الجوهر، اختلافاً جذرياً: أولاً، بالأساس الذي تقومان عليه، وثانياً، بالوجه السياسي، وثالثاً، بالجانب الروحي، ورابعاً، بخصائص التكون. فالأمم البورجوازية تقوم على أساس الأسلوب الرأسمالي للانتاج، بينما الأمم الاشتراكية تقوم على اساس الاسلوب الاشتراكي؛ والأمم البورجوازية تحوي في داخلها طبقات متناقضة متصارعة، بينما في الأمم الأشتراكية ينعدم صراع الطبقات وتجمعها وحدة المصالح الاقتصادية والسياسية الروحية. والامم المتحررة من الاستغلال تتمكن من تطوير جميع الامكانية والمقدرات الكامنة فيها. ولهذا فان عصر الاشتراكية هو عصر تطور وازدهار الأمم. ان المباشرة ببناء الشيوعية تعني بدء مرحلة جديدة في تطور العلاقات القومية في الاتحاد السوفياتي تحدد التقارب بين القوميات المختلفة. ويؤكد برنامج الحزب على أن « الحزب، اذ يؤيد التقاليد لدى كل شعب ويجعلها في متناول جميع السوفياتيين، يطور التقاليد الثورية الجديدة الواحدة لكل القوميات السوفياتية ـ تقاليد بناء الشيوعية ». أن الحزب لا يسمح أبدا بتجاهل ولا بتضخيم الخصائص القومية.

ان عملية التقارب بين الأمم، في عهد الاشتراكية، هي عملية ضرورية وتقدمية. وان تطور الصناعة والزراعة الاشتراكيتين يزيد من حيوية السكان. وفي الجمهوريات المختلفة يعمل السوفيتيون في مختلف القوميات. ان الاساس الاشتراكي الواحد لحياة كل القوميات في الاتحاد السوفيتي، ومساواتها التامة في الحقوق، وتبادل القيم الثقافية فيما بينها، ووحدة المصالح والأهداف ـ كل هذا يؤدي الى تكون المزايا الشيوعية العامة في الجانب الروحي للسوفيتيين.

ان المؤتمر الثاني والعشرين للحزب ـ اذ قام بتعميم نظري لعملية تطوير القوميات وتقاربها ـ توصل الى النتيجة القائلة بنشوء شكل تاريخي جديد لتجمع الناس، هذا الشكل هو الشعب السوفييتي. وفي الواقع، نشأت روابط اقتصادية وثيقة بين جمهوريات بلادنا المختلفة، وفقدت الحدود أهميتها السابقة. ولقد اصبحت اللغة الروسية وسيلة تفاهم جامعة لشعوب الاتحاد السوفييتي. وهكذا فقد تكون الشعب السوفييتي في العلاقة المادية والروحية واللغة كتجمع معين جديد. ان وجود هذا الشكل لا يقضي على الفوارق بين الأمم والشعوب التي تؤلفه.

لكن وجود الأمم ليس ظاهرة خالدة. فمع انتصار الشيوعية في العالم أجمع، ونشوء نظام عالمي موحد للاقتصاد الشيوعي، تزول الضرورة الاقتصادية لبقاء الأمم، وتزداد امكانيات تجمع الناس المنتمين الى قوميات شتى، وتنشأ الحاجة الملحة الى لغة عالمية واحدة، ويتعاظم التأثير المتبادل بين مختلف الثقافات، وتتكون السمات الشيوعية العامة للأمم المختلفة، وتنعدم تدريجياً الفوارق بين الأمم، وتقوم انسانية واحدة، لا قومية، على هذا الكوكب الجميل، تجمعها لغة واحدة وثقافة غنية متنوعة واحدة، تتمثل فيها كل التقاليد الرائعة، وغنى التطور السابق.

* * *

الفصل السادس

دور الجماهير الشعبية ودور الشخصية في التاريخ

الشخصّية و المجتمع

١ : ـ دور الجماهير والشخصية في التاريخ

لقد بدأنا هذا الباب بالفكرة البسيطة : التاريخ هو تاريخ الناس ، أو بعبارة أخرى ، الناس أنفسهم يصنعون تاريخهم . لكننا عندما أخذنا نوضح كيف يصنع الناس التاريخ اكتشفنا أنه من الممكن معرفة نشاط الناس معرفة صحيحة عندما نربطه ، أولاً ، بالشروط المادية والقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي ، التي تنشأ على أساسها ؛ وثانياً ، عندما ننظر الى الاعمال الفردية التي تبدو وكأنها لا تمت بصلة الى أي حساب ، عندما ننظر اليها كانعكاس لاعمال الجماهير الضخمة ، أي الطبقات في المجتمع الطبقي ؛ وعندما نربطه ، ثالثاً ، بتقديرنا الصحيح لدور الأفكار والمؤسسات المختلفة المنظم ، هذه المؤسسات التي تقوم بها الدولة بالدور الرئيسي ؛ وعندما نربط الافراد نشاط الأفراد بتاريخ المجتمعات التاريخية المحسوسة : العشائر ، القبائل ، الشعوب ، الأمم . فعندما ندرك أن هذا كله هو المحتوى لتلك الفكرة فسيصبح لدينا أنها ليست فكرة بسيطة أبدا .

لكن الأمر ليس في هذا وحسب . فلكي نعرف كيف يصنع الناس التاريخ لابد من تحليل من نشاط الناس من ناحية جديدة تماماً . فالمجتمع هو مجموعة من الناس . وإذا كان المهم في التاريخ لا نشاط الأفراد وانما نشاط الجماهير الواسعة فهل هذا يعني أن الشخصية لا تقوم بأي دور في التاريخ ؟ وإذا كانت الشخصية تقوم بدور ما في التاريخ ، فهل تتساوى أدوار الشخصيات المختلفة؟ وبكلمات موجزة : لابد الآن من دراسة التاريخ من وجهة نظر جديدة وبشكل خاص من وجهة نظر العلاقة بين نشاط الجماهير ونشاط الفرد ، وهنا تنقسم قضية الفرد في التاريخ ، بدورها الى قضيتين : قضية دور الفرد العادي ، ودور الفرد البارز . ان الايديولوجية السابقة للماركسية كانت ، لدى كلامها عن

دور الفرد، تعني دور الفرد البارز فقط، وهذا غير صحيح.

لابـد من التـأكيد بأن مسـألـة دور الجماهير الشعبية ودور الشخصية في التاريخ مرتبط ارتباطا عضويا بالمسألة الأساسية للمادية التاريخية. ان القضية لاتنحصر في أن الفهم المثالي للتاريخ ـ أي الاعتراف بأولية الروح كقوة محدّدة للتاريخ ـ يؤدي حتما الى التنقيب عن تلك الشخصيات التي تصنع الأفكار والنظريات وغيرها، في حين يؤدي الفهم المادي للتاريخ حتما الى الاعتراف بدور الجماهير الحاسم في التاريخ. المهم في الأمر هو أن هذه المشكلة المشار اليهـا هي، في جوهـرهـا، اظهار للمسألة المعرفية الأساسية، لأن مضمون السؤال: من الذي يحدد تطور المجتمع، من الذي يصنع التاريخ؟ أي: من « السابق » للآخر ـ الجماهير الشعبية للفرد، أم الفرد للجماهير الشعبية. هذا هو جوهر قضية الجماهير الشعبية ودور الفرد في التاريخ. وجود الروح المطلق (الاله) الذي يتطور بهذه الصورة: الانسانية تمثل فقط الجمهور الحامل، بوعي أو بغير وعي، للروح المطلق[1].

والمثاليون الذاتيون يعرضون الأفراد الممتازين كروح نشيطة تتعارض مع الانسانية التي هي مادة وجمهور خال من الروح.

لكن الحل الذي تقدمه المادية التاريخية لمسألة دور الجماهير الشعبية ودور الفـرد في التـاريخ ليس حلاً مادياً يتعـارض مع المثالية الموضوعية والذاتية، وحسب، وانـما هو أيضـا حل ديالكتيكي يتعـارض مع الميتـافيزيك. ان الميتافيزيكيين يضعون دور الجماهير الشعبية في تعارض مطلق لدور القرد. فهم يفكرون حسب مبدأ: امّا ـ أو. والمادية التاريخية تتناول المسألة بطريقة أخرى. فلا يجوز وضع الجماهير في تعارض مطلق مع الشخصية. ان الجمهور مؤلف من شخصيات، وان أفعال كل شخصية تدخل في أعمال الجماهير وتندمج بها

(١) ماركس وانجلس. المؤلفات. الجزء ٢ ص ٩٣.

في هذا الشكل او ذاك. والى جانب هذا فالمادية التاريخية لا تضع الشخصية البـارزة من الجـماهـير في تعـارض ميتـافيزيكي مع الشخصية « الجماهير »، والشخصية البارزة مع الشخصية البسيطة، كما لاتجعل منهما، أمراً واحداً.

فلندرس حلَّ المادية التاريخية لمسألة دور الجماهير الشعبية والشخصية في التاريخ.

الجماهير الشعبية كمقولة في المادية التاريخية

« الشعب » و « الجماهير الشعبية » مفهومان وضعتهما المادية التاريخية من اجـل دراسـة القـوة التي تصنـع التـاريخ. ولهذا ينبغي تفريقهما عن مفهوم « السكان » ومفهوم « الشعب » الذي يستعمل لدراسة أناس، أمة معينة كأن نقول « الشعب الروسي » مثلا. وينبغي أن ندرس مفهوم « الجماهير الشعبية » لا من الناحية الكمية (الجمهور هو كمية كبيرة من الناس) فحسب، بل ومن الناحية الكيفية أيضاً. ان الجماهير الشعبية، كصانعة للتاريخ، تؤلف مفهوماً تاريخياً محسوساً. ومع تغير المجتمع تتغير الطبقات والفئات التي تؤلف الشعب. ففي المجتمع الاقطاعي، مثلا، يؤلف الجماهير الشعبية الفلاحون و الحرفيون و الـبروليتاريا الوليدة والبورجوازية؛ وفي المجتمع الرأسمالي ـ الطبقة العاملة والفـلاحـون وبورجوازية المدينة، الصغيرة والمثقفون. وفي المجتمع الطبقي لاتضم الجماهير الشعبية كل الشعب أو الأمة لأنه ثمة هناك فئات اجتماعية وطبقـات رجعية تقف فوق الشعب وتستثمـره. فالشعب يقف على طرف منـاقض لتلك الفئـات ويمثـل الأغلبية السـاحقة للأمة أو الشعب بمعناه الشامل. ففي فرنسا، مثلا، وقبل ثورة ١٧٨٩، كان الشعب بمثابة فئة ثالثة تتعـارض مع الفئتين الرجعيتين الممتازتين: الاقطاع والكنيسة، اللتين كانتا تدافعان عن النظام المعادى. للشعب ـ عن الحكم المطلق والنظام الاقطاعي،

فسببتا بذلك نقمة الشعب عليهما. وفي ظروف الرأسمالية تتعارض البرجوازية مع الشعب، وبالدرجة الاولى، تتعارض مع قمة البورجوازية ـ البورجوازية الاحتكارية. والآن يمكن ان نعتبر البورجوازية الوطنية المتوسطة، في البلدان المستعمرة والتابعة، في كثير من الاحيان، جزءاً من الشعب. ففي الصين، مثلا، دخلت البورجوازية الوطنية في جبهة موحدة ضد الاقطاعية والامبريالية الاجنبية، وضد البورجوازية الكبيرة العميلة، اي انها كانت تؤلف جزءاً من الشعب وليس طرفاً متنازعاً معه كما هو شأن تلك القوى الرجعية الاخرى.

وفي ظروف المجتمع الاشتراكي يؤلف الشعب كل الطبقات والفئات الاجتماعية لأنه تم القضاء هنا على المستغلين الذين كانوا يقفون فوق الشعب، وصار الشعب كله متلاحما في وحدة سياسية اخلاقية.

وهكذا، فالشعب والجماهير الشعبية هما، قبل كل شيء الجماهير الكادحة في هذا المجتمع او ذاك، المنتجة للخيرات المادية، وهما كذلك كل تلك الطبقات والفئات الاجتماعية التي يمكنها وضعها الموضوعي من حل المهمات التاريخية التقدمية في عصر ما وبلد ما، وترتبط برباط ما مع مصالح الشغيلة. (١)

الاسس النظرية والطبقية لنفي دور الجماهير الحاسم

ان ايديولوجيي الطبقات المستغلة لم يهتموا بتوضيح دور الجماهير في التاريخ. فهم، اذ ينطلقون من واقع الفهم المثالي للتاريخ، يعتقدون بأن النشاط المحدد لحركة المجتمع لامكان له الا في مجال الايديولوجية والسياسة. وان الناس الذين يأتون بأفكار جديدة، او يتخذون القرارات السياسية من

(١) يستخدم مفهوم «الجماهير» احيانا بمعنى يختلف عن مفهوم «الجماهير الشعبية». فيمكننا ان نقول جمهور النقابة وجمهور المستخدمين وجمهور الجنود... وغيرها. وهنا تحدد كلمة «جماهير» انتماء فئة من الناس الى نوع معين للنشاط او الوظيفة او الحركة... الخ.

ايديولوجيين وعلماء ومشرعين وملوك وقادة حزبيين وقادة سياسيين وزعماء للحركات المختلفة وغيرها، هم انفسهم الشخصيات التاريخية الكاملة التي توجه سير التاريخ وفقا لاراداتها الخاصة او لارادة علوية سامية. ان اولئك الايديولوجيين لم يكتفوا بطمس دور الجماهير وانما هم يحتقرونه ويعربون عن مشاعرهم العدائية تجاهه مباشر. ان نفي دور الجماهير في التاريخ، أو عدم تقديره حق قدره، يرتبط إرتباطاً وثيقاً بالفهم المثالي للتاريخ ويجد فيه تبريره النظرى.

وكان التاريخ، لدى اكثرية المؤرخين الأقدمين عبارة عن وصف للعادات والأحداث السياسية وأقوال وأعمال القادة، وكان هؤلاء المؤرخون يقومون بشرح أحداث التاريخ نزولا عند رغبة العظماء والحكام. ان ايديولوجيي الطبقة الارستقراطية كأفلاطون مثلا في كتابه «الدولة»، يذهبون الى عدم السماح للشعب بادارة الدولة، وإلى أن النخبة المختارة من الناس والارستقراطيين هي التي يسمح لها بتولي ذلك.

وفي عصر الاقطاعية ساد الفهم الديني للتاريخ؛ فارتبطت حركة التاريخ كلياً بارادة الاله، وبصراع قوى الملائكة مع قوى الجحيم، فلم يبق ثمة مكان لدور الجماهير في هذه الايديولوجية.

ثم ان ايديولوجيي البورجوازية الناشئة لم يقدروا دور الجماهير حق قدره. فالماديون الفرنسيون، مثلا، علقوا آمالهم على الملوك المنزهين، في تحقيق الاصلاحات الاجتماعية. وان غولباخ (أحد الماديين المناضلين العظام في القرن الثامن عشر، والعدو اللدود للدين والأوهام، والمناضل العنيد ضد الاستبداد) لم يتوصل الى نتيجة في مسألة القوى المحرّكة للتاريخ. يقول غولباخ: «ان من يستطيع تقرير المصير من على العرش هم الملوك القديسون العادلون الشجعان الطيبون الذين يحاولون تخليص الانسانية من شرورها، كما تشير الحكمة، بعد أن يعرفوا أسبابها الحقيقية».

وإذا كان الماديون المنوِّرون في القرن الثامن عشر قد جعلوا النظام الرأسمالي مثالياً اذ صوروه كمملكة للعقل والعدالة، فان الاشتراكيين الطوبائيين في بداية القرن التاسع عشر كشفوا، بقوة، عن قروح ومعايب الرأسمالية، واستنكروا الوعود البراقة التي كان يعد بها المنورون. لقد كان الطوبائيون يحلمون بالمجتمع الجديد العامل حيث لا فقراء ولا أغنياء. لكنهم كانوا يعتبرون أن الجماهير الغارقة في أوحال الفاقة والجهل لاتقدر على تحرير نفسها، فينبغي « الاحسان » اليها. وهذا من شأن الشخصيات التي اذا مااقتنعت بحقيقة المثل الأعلى الذي يقول به الطوبائيون استخدمت سلطتها، أو رؤوس أموالها، من أجل خلق تنظيم اجتماعي جديد. وهكذا نلتقي من جديد بنغمة الفكرة القديمة القائلة بأن ادارة الشخصيات التاريخية الفذة هي العامل الحاسم المحدد لسير التاريخ.

وتعتبر نظرات الكاتب والمؤرخ الانكليزي كارليل (القرن التاسع عشر) تعبيراً عن وجهة النظر تلك. فقد كان أحد ممثلي «الاشتراكية الاقطاعية» الذي أثنى كثيراً على القرون الوسطى ودعا الى تمجيد الفرد بكل بقوة، مرجعاً بذلك تاريخ العالم كله الى حياة العظماء من الناس.

إن الماركسية تقف ضد كل من يقوم بتضخيم دور الشخصية في التاريخ ويضعها في طرف معارض للجماهير. ولقد ناضلت منذ لحظة نشوئها، ضد هذه النظرات. ففي العقد الرابع من القرن الماضي شنَّ ماركس وانجلس حملة انتقادية عنيفة على نظرات ايديولوجيي البورجوازية الألمانية ـ الهيجليين الشباب. فلقد كان هؤلاء ينكرون الجماهير كقوة محركة للتقدم بل ويعتبرونها عائقاً في طريق التقدم، وقوة جامدة في التاريخ، في حين يذهبون الى أن « حفنة المفكرين » من المثقفين البورجوازيين، التي تقف فوق الجماهير هي الصانعة الحقيقية للتقدم. لقد رمى ماركس وانجلس بمزاعم الهيجليين الشباب الغبيَّة المغرورة بعيداً، وبينّا أن الجماهير البروليتاريا، بالذات، هي

القوة المحركة تاريخياً للاصلاحات الاجتماعية في المجتمع المعاصر.

لقد حدث انتشار وتطور الماركسية في الحركة العمالية الروسية في النضال ضد ايديولوجية الشعبيين. فلقد كانت النظرية المثالية عن « الأبطال » و « الغوغاء » هي الأساس الايديولوجي لعملهم التطبيقي. كانت هذه النظرية تقول بأن الجماهير يمكن أن تنتقل الى الحركة فقط عندما تخصبها أفكار ومطامح الشخصيات البارزة وأعمالها البطولية. وكانت هذه النظرية ذات ضرر بالغ لأنها بذرت عدم الثقة في قوى الجماهير الخلاقة، فعرقلت تطور الوعي الثوري للشعب وأضرت بتنظيم حزب العمال الماركسي الثوري. ولقد تمكن بليخانوف ولينين من القضاء عليها في أعمالهما.

وهكذا، فان ابراز الشخصية المعنية كقوة محركة للتاريخ هو عملية مميزة لايديولوجية التشكيلات الطبقية جميعاً وعلم اجتماعها. لكن هذه الفكرة تتخذ طابعاً حاداً معادياً للديمقراطية بل وللانسانية في الايديولوجية الرجعية للعصور المختلفة. ان ايديولوجيَّ الامبريالية الألمانية، مثلا، والممهد لظهور الفاشية « ف. نيتشه » وضع في أساس فلسفته فكرة « الشخصية القوية »، « الانسان المتفوق » الذي يقف « في ذلك الجانب من الخير والشر »، أي القائم فوق الأخلاق السائدة، والمباح له كل شيء، وان المعنى السامي للتاريخ هو في طموح هذه الشخصية الى السلطة. لقد كان ينظر نيتشه باحتقار الى جماهير الكادحين. فالجماهير هي السواد أو الغوغاء أو القطيع الذي لاشأن له الا من خلال تعبيده الطريق أمام نشاط الفرد الجبار. ان المساواة، والاشتراكية، والديمقراطية، والانسانية، ـ هذه الأفكار الخيرة لاتستثير إلا اشمئزاز نيتشه. فمن نيتشه يمتد السلك المباشر الى الفكرة الفاشية بتأليه « الفوهرر ».

لقد حاول بعض المفكرين، قبل ماركس، فهم دور نشاط الجماهير الشعبية في التاريخ. ان المؤرخين الفرنسيين الذين درسوا تاريخ الثورة البورجوازية الفرنسية ربطوا أسباب الثورة وسيرها بنضال الطبقات من أجل الملكية، أي

أنهم درسوا حركة جماهير الناس. وقد تحدث الديموقراطيون الثوريون الروس مباشرة عن الجماهير الكادحة الحاسم في تطور المجتمع، وهم، في الوقت ذاته، لم ينكروا دور الشخصيات البارزة. فلقد شبهّ « دوبروليوبوف » الشخصية بالشرارة التي يمكن أن تفعل الكثير اذا ماوقعت على مادة قابلة للاشتعال، لكنها سرعان ماتنطفىء اذا ماوقعت على الصخر. ولقد كان عيب نظرات الديمقراطيين الروس يستقر في ربطهم نشاط الجماهير، لا بالشروط والقوانين الموضوعية للتطور التاريخي، وانما بتأثير المنورين والأفكار الجديدة. ان بعض التخمينات المادية لم تؤد الى خلق فهم مادي هادف للتاريخ، يبحث، لأول مرة، مسألة قواه المحركة، وبالتالي، قضيتي الجماهير والشخصية في التاريخ، على أساس علمي.

المادية التاريخية ودور الجماهير

من المادية التاريخية ومبادئها الأساسية ينشأ الاعتراف بالدور الحاسم للجماهير الشعبية في صنع التاريخ، الاعتراف بأن نشاط الجماهير، بالذات، لا نشاط الشخصيات المعينة هو الذي يدفع التاريخ الى الأمام.

والواقع، اذا كان أسلوب الانتاج هو القوة المحددة للتطور الاجتماعي فان الجماهير الكادحة المنتجة للخيرات المادية، هي التي تقوم بالدور الحاسم في صنع التاريخ باعتبارها القوة الحاسمة في الانتاج. فالتاريخ ليس من صنع شخصيات معينة، وانما هو من صنع الجماهير. ان علم الاجتماع، قبل ماركس، لم يبحث المجال الحاسم لنشاط الناس - الانتاجي المادي - ولم يكشف عن دوره في تطور المجتمع. ولهذا فلم يتمكن من فهم الدور الواقعي للجماهير الكادحة القائم على أن الناس الذين يخلقون الخيرات المادية والمحركين للانتاج، هم صانعوا التاريخ الحقيقيون، وعلى أن التاريخ يصنع،

قبل كل شيء، لا في قصور الملوك والرؤساء، ولا في مكاتب الوزراء والقاعات البرلمانية الفارهة، وانما هناك حيث يستخرج النفط، والفحم، وحيث يصهر المعدن، وتصنع الآلات، ويزرع القمح أي في مجال الانتاج المادي، لكن تأثير الجماهير الشعبية على سير التاريخ لايقتصر على كونها خالقة للقيم المادية، فالجماهير الشعبية هي القوة الحاسمة في اجراء كل التحولات الاجتماعية. فلا شأن للملك دون رعية، أو للجنرال دونما جيش. إن بامكان كل منهما أن يقرر، عندما تكون ثمة قوة بين يديه، والجماهير هي القوة في السياسة أيضاً. وبالرغم من أن الطبقات المستغلة كانت تبذل، في الماضي، جهوداً كبيرة من أجل حرمان الجماهير من السياسة، وكان يتسنّى لها ذلك أحيانا، الا أن كلمة الجماهير، بالذات، كانت هي الحاسمة في اللحظات الحرجة الانعطافية في التاريخ. فالشعوب هي التي تقوم بجميع الثورات العظيمة. وان رغبة الجماهير واتجاهها وتأييدها لهذا أو ذاك تؤلف العامل الحاسم للنجاح في المجال السياسي. وليست الصدف والظروف العابرة هي التي تحدد حركة الجماهير - كما بينا سابقا - بل إن الأسباب العميقة الطويلة المدى للنظام المادي هي التي تقوم بتحديدها. ولهذا فان ادارة شخصية ما، مهما بلغت من العظمة، ومهما كان تأثيرها كبيراً ليست الا « عظمة » أصغر من أن تعطف التاريخ وتسيره حسب مشيئتها. لكنه اذا كانت هذه الشخصية معبرة عن مشاعر الجماهير واهتمامها، اذا كانت ارادة وتفكير الفرد تنسجم مع ادارة وتفكير الملايين، فان الشخصية آنذاك تترك أثرها الواضح في التاريخ.

وهكذا فان الجماهير الشعبية هي القوة الحاسمة في المجال الأساسي الثاني من النشاط الانساني - المجال السياسي الاجتماعي. وينبغي ألا ننسى أن مفهوم الجماهير هنا يختلف عنه في الانتاج المادي. فعلى الرغم من أن الكادحين المنتجين للخيرات المادية يؤلفون هنا أيضاً، القوة الأساسية، فأن الجماهير، في المجال السياسي الاجتماعي، تضم كل تلك القوى والفئات الاجتماعية التي

تحل المسائل السياسية الناضجة.

وعند دراسة تطور الثقافة الروحية أيضاً ينبغي ألاء يغفل دور الجماهير الشعبية، باعتبار أن الشعب هو الذي يصنع اللغة وبدون اللغة لايمكن أن تنشأ ثقافة ما. كما أن دور الشعب في مجال الاكتشافات العلمية والمخترعات التكنيكية عظيم. ان الشروط المادية لهذه الاكتشافات والاختراعات، والحاجة الاجتماعية اليها تنشأ من تطور الانتاج، أي مع عمل الملايين من الناس البسطاء. ويقوم بهذه الاكتشافات والاختراعات أناس معينون أو فئات قليلة من الناس، لكن هذه الاكتشافات والمخترعات لاتدخل في السلسلة العامة للتطور التاريخي الا عندما تخرج من نطاق الفرد لتطبق من قبل الجماهير في الانتاج. والحياة الشعبية تؤثر تأثيراً كبيراً ومتنوعاً على تطور الأدب والفن.

فالانتاج الفني الشعبي الذي هو جزء من الفن هو ينبوع الشخصيات والخواطر الأدبية. إن شخصية دون كيشوت أو فاوست ليست من خلق سرفانست، أو غوته، وانما هي مأخوذة من الأساطير الشعبية. وان غلينكا، وتشايكوفسكي، وغيرهما من المؤلفين الموسقيين العظام يستخدمون في مؤلفاتهم الموسيقى الشعبية. يقول غلينكا: ان الشعب هو الذي يخلق الموسيقى، وأما نحن، الموسيقيين، فمهمتنا التنسيق فقط. ثم ان الكادحين لا تساهم في تطور الفن عن طريق خلق الشخصيات الفنية فقط، فالفن الحقيقي مرتبط دائماً بحياة الشعب وبأفكاره ومطامحه. إن الأدب هو مرآة الحياة الشعبية، والفن الذي ينفصل عن حياة الشعب يصبح فناً فارغاً لاطعم ولا لزوم له. لقد نال الأدب الروسي، في القرن التاسع عشر، شهرة عالمية، لكن أكان بامكان هذا الأدب أن يتكون لولا نضال الشعب ضد حكم الاستعباد؟ ان النضال التحرري للجماهير الكادحة بالذات هو الذي ألهم الفنانين، ومنح تطلعاتهم الفنية براعتها الفائقة، وخدم كأساس لخلق أدب عظيم. صحيح أن عمل الفنان أو الكاتب هو عمل فردي، لكنه فردي، شكلا وحسب، أما من حيث

المحتوى فكلما كان أشد ارتباطا بحياة ونضال الشعب كان أكثر خصبا وعطاء.

وليس عبثاً أبداً أن يكافأ انتاج الكاتب أو الفنان بلقب « الشعبي » لامن حيث التسمية فقط، بل ومن حيث الجوهر أيضا.

وهكذا، فلو تناولنا أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية لوجدنا أن الشعب يقوم بالدور الحاسم فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة. ان نشاط الجماهير الشعبية يدفع التاريخ الى الأمام، وان الشعب هو صانع التاريخ، لكنه يصنعه وفقاً للشروط المادية التي يتعلق بها اتجاه حركة الجماهير وطابع نشاطها. ان التحليل العلمي لهذه الشروط يمكننا من فهم الناس ومن التنبؤ بنتائجه.

دور الشخصيات البارزة في التاريخ

ان الحل العلمي لمسألة دور الجماهير في التاريخ، وأن فهم الطابع القانوني للعملية التاريخية يؤلفان الاساس من أجل الاجابة عن سؤال: ما هو تأثير هذه الشخصية أو تلك على سير التاريخ؟ يمكن أن يجاب عن هذا السؤال في شكلها العام كما يلي: بما أن الجماهير هي التي تقوم بالدور الحاسم في التاريخ، وبما أن دورها يتعاظم مع سمو وعيها وتنظيمها لذا، فأن دور الشخصيات البارزة عظيم ومهم بقدر ما تعبر تعبيراً واعياً عن الحاجات الأجتماعية وتقوم بدور الايديولوجي والمنظم والقائد للجماهير. وينبغي أن نقف هنا، بالدرجة الاولى، عند دور الشخصية في المجال السياسي الاجتماعي. ففي نضال الطبقات، وفي حركة الجماهير وتنازع الدول... الخ تنشأ دائما الحاجة الى الأفراد الذين يضعون المهمات أمام الطبقات، ويقودون نضالها، ويرأسون هذه الحركات أو تلك ويزجون هذا الجيش أو ذاك في خضم المعركة، ومن السهل ايجاد مثل هؤلاء الأفراد. فهم بفضل بعض الميزات، يبرزون من بين الجماهير

العامة، ويشغلون المكان الذي يتمكنون فيه من تحديد المهمات واتخاذ القرارات التي تؤثر على حركة الجماهير. ان لكل عصر ولكل عصر ولكل طبقة أفراداً بارزين يعكسون خصائص العصر والطبقة بوضوح، ويعبرون عن متطلبات العصر بصورة أعمق ممّا يعبر غيرهم من الناس. صحيح أنه لايتوفر دائماً أفراد بارزون على رأس الطبقات والأحزاب والدول والجيوش. فالتاريخ يعرف الكثير من المهازل عن العروش الملكية، وكثيراً من القادة العسكرين غير الأكفاء، ومن القادة السياسيين الفاشلين. ان مثل هؤلاء يجرفهم سيل الأحداث في طريقه. أما الأفراد البارزون فيتركون، بالفعل، أثراً جلياً لشخصهم في سير الأحداث. وينحصر دورهم في قدرتهم، أكثر من غيرهم على عكس متطلبات التطور الاجتماعي، وفهم الوضع وحاجات الجماهير، وعلى التعبير في نشاطهم عن هذه الحاجات والمتطلبات ممّا يساعد على تطور المجتمع وحل القضايا الاجتماعية الناضجة. ان الحركات التقدمية، والطبقات الناشئة، في عصر ما، هي التي تدفع مثل هؤلاء الأفراد الى الظهور.

اما ما يتعلق بالطبقات الهرمة فانه يندر أن تدفع الى المسرح بشخصيات بارزة سياسية ذكية. ففي فترة انحلال المجتمع القديم غالباً ما ينتقل ممثلو الطبقة القديمة من أصحاب الفكر والمواهب الى جانب الطبقة الجديدة. نذكر، على سبيل امثال، الثورة الفرنسية التي جاءت بشخصيات سياسية لامعة مثل دانتون، روبسبين، مارات، سان ـ جيوست في حين كان آل بوربون ومن لفّ لفهم عبارة عن شخصيات سياسية تافهة.

ولقد بلغت القيصرية الروسية درجة من النذالة الأخلاقية والسياسة مكنّت الحشرة القميئة والمحتال القذر راسبوتين من أن يكون ذا تأثير كبير وجوهري في شؤون الدولة. ان البورجوازية الروسية الجبانة الضعيفة لم تتمكن من تقديم بعض الأفراد البارزين، بينما دفعت الطبقة الناشئة ـ الطبقة العاملة الثورية

الروسية ـ كتيبة رائعة من الشخصيات السياسية البازة وفي طليعتهم لينين العظيم.

ان دور الشخصية البارزة يوجد في ارتباط مباشر مع درجة فعالية الجماهير الواسعة. فكلما ازدادت فعالية الجماهير ازدادت الحاجة الجديدة الى صفات معينة ينبغي أن تتمتع بها الشخصية التي تقف في رأس الحركة. ان نضال الطبقة العاملة أعظم حركة ثورية في التاريخ، فهي تقوم بحل القضية الكبرى في القضاء على كل أنواع الاستغلال، وتجذب جماهير الكادحين الواسعة للمشاركة في العملية الفعالة لصنع التاريخ. ومن أجل أن تحقق الطبقة العاملة اهدافها ينبغي أن يتوفر لديها الحد الأعلى من الوعي والتنظيم الذي بموجبه تزداد مسؤولية وأهمية القيادة. أن الحزب البروليتاريا الثوري هو الذي يُدخِل الوعي الاشتراكي والتنظيم الى الحركة العمالية. ان نضال وانتصارات البروليتاريا في البلدان المختلفة ترتبط بنشاط وقيادة الأحزاب الشيوعية الماركسية ـ اللينينية. ويقف على رأس تلك الأحزاب قادة وفئات قيادية ذات نفوذ في نضال الجماهير الثوري هذه الجماهير التي تفيد من تجربة القيادة المتمتعة بثقة الحزب. ان الماركسية لا تعرف الغلو في تعظيم الشخصيات، ولا عبادة الشخصية، كما أنها لاتنفي دور القادة وأهمية المبادرة الخلاقة لفئات معينة أو لافراد بارزين معينين يرتبطون، وقادرين على فهم الوضع المعقّد والمتقلب، بسرعة، وعلى التصرف فيه بكياسة وبراعة موضوعيين، وعلى توضيح الطريق الصحيح للنضال ولتنظيم الجماهير. ان الحركة الثورية الجبارة للبروليتاريا تفرض على الشخصية القيادية سمات وميزات جد رفيعة، وتدفع الى خشبة مسرح الحياة الاجتماعية قادة عظاما، قادة جددا في كل شيء.

ان ما يميز القادة البروليتاريين عن غيرهم من قادة الكادحين، العظام في الماضي هو أولاً، اعتمادهم على نظرية، علمية في التطور الاجتماعي تمكنهم من

التنبؤ الصحيح بوجهة سير العملية التاريخية، وثانياً، ارتباطهم بالجماهير، وإيمانهم بمبادراتها الخلاقه، وقدرتهم لا على تعليم الجماهير وحسب، بل وعلى التعلم منها أيضا.

ثالثاً، قدرتهم على ربط النظرية العلمية بالتطبيق الثوري، وعلى تعميم التطبيق بصورة خلاقه.

ان تطور حركة الطبقة العاملة، الثورية، في القرن التاسع عشر، جاءت بالقائدين والمعلمين الغظيمين للبروليتاريا العالمية ـ ماركس وانجلس. وان ماركس وانجلس هما مؤسسا الشيوعية العلمية وأول حزب عمالي ثوري قائم على اساس علمي، ومؤسسا الأممية الأولى. لقذ قاما بدور عظيم في تطور الحركة العمالية، ورسما لها طريق النضال.

وفي عصر الامبريالية أوجد نضال الطبقة العاملة الروسية المفكر العبقري والقائد البروليتاري لينين.

ان لينين، المخلص لتعليم ماركس وانجلس، طور الماركسية، بصورة خلاقة، في الشروط التاريخية الجديدة في النضال ضد الانتهازيين على اختلاف انواعهم، وأسس حزب الشيوعيين الجبار الذي قاد الطبقة العاملة والكادحة في روسيا الى انتصارات الاشتراكية الرائعة. فكان لينين مؤسس أول دولة اشتراكية في العالم، وقائدا للحركة الشيوعية الدولية. ان لينين هو عبقري الطبقة العاملة.

« إن كل ما لدى البروليتاريا من عظمة وبطولة: الفكر الجريء، والارادة الجبارة الفولاذية التي لا تلين، والحقد المقدس، الحقد حتى الموت على الظلم والعبودية، والحماسة الثورية التي تزلزل الجبال، والايمان، الذي لا يحد، بطاقة الجماهير الخلاقة، والعبقرية التنظيمية الفذة، ـ كل هذا يتجسد رائعا في

لينين، الاسم الذي صار رمزا للعالم من الغرب الى الشرق ومن الجنوب الى الشمال »[1].

ولقد قدم تطور الحركة الشيوعية في كثير من بلدان العالم، أفرادا بارزين في الحركة العمالية، وقادة ثوريين عظاما أمثال ديمتروف، تلمان، فوستر، توكودا، وكثيرا غيرهم ممن كرسوا حياتهم كلها من أجل القضية العظيمة للشيوعية.

ويقف على رأس الأحزاب الشيوعية والعمالية، في كثير من بلدان العالم، قادة بارزين، وشخصيات شيوعية فذة، تربوا وتمرسوا في النضال من أجل الماركسية اللينينية، وفي جميع صفوف وتنظيم الطبقة العاملة التي تقود الجماهير الكادحة الى المستقبل الزاهر للشيوعية.

وهكذا فالمادية التاريخية تعترف بأن الشخصيات البارزة يمكن أن يكون لها تأثير كبير على سير التاريخ. وان دور الشخصية عظيم ولاسيما في المجال السياسي حيث يمكن أن يكون لفهم الوضع والقدرة على النفاذ الى جوهر العمليات، وللمبادرة الخلاقه، والطاقة الخاصة، والامكانيات التنظيمية للشخصيات القائدة، تأثير كبير على عملية التطور، وتساهم في انجاح نضال الجماهير. لكن هؤلاء الأفراد لا يعملون بذاتهم ولذاتهم وانما هم يعملون مرتبطين بنشاط ونضال الجماهير، وإلاّ فلن يتمكنوا من سير التاريخ.

ثم ان دور الشخصيات البارزة عظيم كذلك في تكوين الثقافة الروحية في تطور العلم والفن والأدب. ان تطور هذه الحقول مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطور الاقتصادي والسياسي للمجتمع، ولا يجوز فصل نشاط الناس في أي مجال من مجالات الحياة الاجتماعية عن النشاط في المجال الآخر. يقول انجلس عن الأفراد البارزين في عصر النهضة: « ان ما يميزهم، جميعا هو أنهم يعيشون في صميم مصالح زمنهم، ويساهمون مساهمة حية في النضال التطبيقي، ويقفون

---

(١) « الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتيتي في مقرراته » ١٩٥٣ ص ٨٠٤ ـ ٨٠٥.

الى جانب هذا الحزب أو ذاك، ويناضلون هذا بالكلمة، وذاك بالقلم، وثالثا بالسيف، جنبا الى جنب في معركة التطور الواحد »[1].

وبما أن الحديث يدور هنا حول الثقافة الروحية فأن تأثير انتاج الشخصيات البارزة واضح وقوي. ان الموهبة الكبيرة للباحث أو الفنان هي موهبة نادرة.

وان عظماء العلماء والفنانين والمخترعين اذ يعتمدون على تجربة الجماهير، ويعممون ما ورثوه في مجالات عملهم، يفتحون طرقاً جديدة في العلم والتكنيك والفن. ان انتاجهم هو تعبير مركزّ، واستخدام غني ومتنوع، لتلك الامكانيات التي يقدمها هذا العصر أو ذاك من أجل التطور المقبل للثقافة الانسانية. وما أصعب ذلك الدور الذي يقوم به المكتشفون، فهم لابد لهم، فضلا عن المواهب، من القدرة على العمل والمثابرة، والارادة والجلد والتصميم والقناعة الثابتة بأنهم على صواب، وكثير من المميزات الاخرى التي تتجلّى بها عظمة النفس والموهب:

أين

متى.

أي عظيم كان يختار.

طريقة

ليتجنب الأهوال!

(مايا كوفسكي)

ان الانسانية الطيبة تمجد كوبرنيكوس، وغاليلي، ونيوين، وداروين ولومونسوف، ومندليف، واينشتاين، وفيرما، وبوشكين، وتولستوي، وشكسبير، وغوته، وغوركي، ومايا كوفسكي، وموزارت، وبتهوفن، وغلينكا، وتشايكوفسكي، ورافييل، ورمبراندت، وريبين، وكرامسكي،

(١) انجلس. ديلكتيك الطبيعة ١٩٥٥ ص ٤.

وكثيرين غيرهم من عظماء العلماء والكتاب والمؤلفين الموسقيين والفنانين الذين تركت مؤلفاتهم أثاراً خالدة لا تمحى في تاريخ الثقافة الانسانية.

وتجدر الاشارة الى أنه لايجوز فصل انتاج الشخصيات الرائعة في الثقافة الانسانية عن حياة ونضال الشعوب، عن متطلبات العصر، وعن العمل البطولي المجهول لكثير من الناس في هذا المجال للنشاط أو ذاك. ولهذا فالعظماء يؤلفون بالدرجة الأولى، فخر ومجد ذلك الشعب الذي رباهم وأطعمهم رغم أن نتائج اعمالهم هي ملك الانسانية جمعاء. ومن هنا تتحدد قضايا الأفضلية الوطنية في ميدان العلم والتكنيك. ان مسألة الأفضلية تقاس بمقدار ما يساهم به هذا الشعب أو ذاك في كنز العلم وفي تطوير التكنيك، إنها قضية التصور والصحيح، تاريخيا، لعملية تطور الثقافة المشخص. وبما أن هذه المسألة تمس المشاعر الوطنية فعند نشوء الاختلاف ينبغي التصرف بتكتيك وحذر والاهتمام فقط بالحقيقة التاريخية. والشوفينيون وحدهم يقدرون على جعلها موضوعا للحسد وللغيرة القومية ويستخدمونها من أجل التطرف القومي.

٢ ـ قانون دور الجماهير المتعاظم، في التاريخ

الجماهير هي صانعة التاريخ في كل أدواره، الا أن درجة فعالية الجماهير الشعبية تختلف في حل هذه المهمات الاجتماعية أو تلك، ومستوى وعيها وتنظيمها. ففي فترات الثورات مثلا تزداد الفعالية السياسية للجماهير بالمقارنة مع ظروف التطور السلمي. ولقد كانت انتقاضات الأرقاء والأقنان ذات الطابع عفوي على الأغلب، وكانت تسحق دونما رحمة.. والبروليتاريا طبقة قادرة على تنظيم جماهير الكادحين من حولها تحت راية نظرية وبرنامج وسياسة علمية.

ومع تغير أدوات العمل يتغير الانسان أيضا كقوة منتجة. ان العمال في المعمل الرأسمالي الذين يستخدمون الآلات صاروا قوة منتجة تختلف عن الفلاحين الذين يعملون في قطع الأرض بأدوات بدائية بسيطة.

وهكذا، فمع تطور المجتمع تتغير الجماهير ذاتها، وظروف نشاطها، ودورها في التاريخ ينمو تدريجياً ويتعاظم. لقد صاغ ماركس وأنجلس الموضوعة القائلة بأنه « مع سير العملية التاريخية سوف ينمو حجم الجماهير التي تصنعها »[١]. ان هذه الموضوعة تعبر عن تعاظم دور الجماهير في التاريخ. هذا القانون يشق لذاته طريقه، في ظروف التشكيلات الطبقية المتناقضة، كميل، لأنه يوجد كثير من العوامل العاملة باستمرار والعوامل العاملة بشكل مؤقت. والاشتراكية تزيل هذه العراقيل وتخلق العلاقات الاجتماعية التي تفتح امكانيات لامحدودة من أجل النمو الدائم لفعالية الجماهير الخلاقة.

ففي كل التشكيلات المتناقضة كانت قوى الجماهير مكبلة بأصفاد الاضطهاد والاستغلال. والاشتراكية تحطم تلك الأصفاد، وتوجه الانتاج والعلم والفن وكل الثقافة المادية والروحية الى تطور وتنوير الجماهير وسد متطلباتها المتنوعة. وان هذا كله من شأنه أن يخلق شروطاً جديدة بنوعيتها لنشاط الجماهير الخلاقة في كل مجالات الحياة الاجتماعية. ان الظرف الاكثر أهمية من غيره والذي يساعد على تعاظم دور الجماهير في الاشتراكية هو أن نشاط الجماهير يعتمد هنا على الايديولوجية العلمية التي تعطينا المعرفة الموضوعية لقوانين التطور الاجتماعي. وهذا من شأنه أن يقوي دور عنصر الوعي، ويوسع دائرة نشاط الناس الواعي.

وهكذا، فان الاشتراكية توجد شروطاً جديدة لنشاط الجماهير تختلف كلياً عن الشروط في المجتمع الطبقي المتناقض. وفي عهد الاشتراكية تنشأ

(١) لينين. المؤلفات. الجزء ٢٥ ص ٤٤٣.

الشروط، وتوجد الامكانيات لانماء فعالية الجماهير الخلاقة باستمرار. والمهمة التطبيقية هي في استخدام تلك الامكانيات بكاملها لما فيه خير المجتمع ورفع وتيرات التطور التاريخي الى درجة كبيرة.

ومن الموضوعة النظرية عن الدور الحاسم للجماهير في التاريخ يستخلص حزبنا نتيجة عملية مهمة. فهو يوجه جهوده الى اتخاذ التدابير الاقتصادية والسياسية والثقافية التي تساعد على تطوير فعالية الجماهير البناءة.

ان التحويل الاشتراكي للمجتمع هو أعمق تحويل اجتماعي عرفه التاريخ، ولهذا فلا معنى له مطلقاً بدون مشاركة الجماهير الكادحين الواسعة. ان « صفوف الجماهير » التي تحقق هذا الانعطاف وتهتم به، تضم الغالبية المطلقة للسكان. وعلاوة على هذا فان الجماهير الشعبية في الثورة الاشتراكية تقوم، تحت قيادة البروليتاريا وحزبها، بالدور السلبي الذي يقضي على النظام القديم فقط، وهي، الى جانب ذلك، تحل مسألة بناء المجتمع الاشتراكي الجديد أيضاً. ان حياتنا بكليتها تؤيد ما قاله لينين عن كذب وافتراء التصوير البورجوازي للاشتراكية حيث يقول: « يقولون عن الاشتراكية أنها شيء ما ميت جامد جاء عابراً مرة واحدة والى الأبد. لكنه من الاشتراكية فقط تبدأ الحركة الجماهيرية الحقيقية السريعة - بمساهمة أغلبية السكان ومن ثم السكان جميعا - تبدأ انطلاقتها الى الأمام في كل مجالات الحياة الاجتماعية والخاصة »

وكثير من الايديولوجيين البورجوازيين مولعون بالتشدق بكلمة « شعب » والتحدث عن « مصلحة الشعب » وعن « روح الشعب »... الخ. لكن هذه الكلمة في أغلب الاحيان لاتستعمل لمصلحة الشعب الحقيقية مطلقا. وبالفعل ان اضافة كلمة « شعبية » الى كلمة « رأسمالية » لاتغير شيئا من الرأسمالية وانما هي تغطية مفضوحة لجوهرها الاستغلالي.

ان الاعتراف بالدور الحاسم للجماهير الشعبية في التاريخ لايعني، بالنسبة

للماركسية اللينينية، مجرد تصريح بسيط، وانما نظرة مبدئية تدفع الى النشاط العلمي. ان الأحزاب الشيوعية، اذ تسير على هدي التعاليم الماركسية ـ اللينينية، تناضل من أجل تحرير الجماهير الكادحة من كل أشكال العبودية ومن أجل خلق الشروط الملائمة لنشاط الجماهير الفعال وتطور مبادرتها الخلاقة.

ان الفعالية والمبادرة الخلاقة للجماهير في عهد الاشتراكية تتجلى، قبل كل شيء، في مجال الانتاج، وفي النضال من اجل انتاجة عالية للعمل. ولقد ولدت هذه المبادرة في الاتحاد السوفييتي مشاريع رائعة بدءا من جماعة السبت الشيوعيين الاوائل حتى الحركة المعاصرة لطلائع وابطال العمل الشيوعي. وهنا ينعكس اهتمام الجماهير العميق بتطور الانتاج وباقامة القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية بصورة سريعة وعاجلة. ويتركز اهتمام الشغيلة في هذه العوامل المهمة وغيرها من عوامل الانتاج كتنفيذ الخطط الانتاجية وتحسين التكنيك وجعله عصريا، وتوفير الوقت والاقتصاد في المواد، وتثقيف العمال، ومساعدة المتخلفين . . . الخ.

ان تحقيق النهضة الجبارة للانتاج، في فترة بناء الشيوعية العاصف، يتطلب مستوى عاليا من فعالية الجماهير. ان اقامة المؤتمرات الانتاجية في المعامل والمصانع، وانشاء لجان المراقبة التابعة للمنظمات الحزبية، ونشاط اللجان التكنيكية في الانتاج وغيرها هي تدابير، توجه المبادرة الشعبية الى نشاط منظمٍ بشكل واسع. ان الحزب يعتمد على نشاط ومبادرة الجماهير ويقوم بتأييدها وتوجيهها ويساعد على نشر تجربة افضل العناصر.

ان خلق القاعدة المادية التكنيكية للشيوعية ممكن فقط على اساس التقدم التكنيكي السريع الذى هو الشرط الحاسم لرفع انتاجية العمل. ويوجه الحزب قوى الجماهير الى النضال ضد الجمود وروح المحافظة في هذه القضية الهامة، ومن اجل التحسين التكنيكي السريع للانتاج الاشتراكي وهو امر من شأنه ان يبين مرة اخرى ان كل مهمات تطوير الاقتصاد الاشتراكي تحل في

المساهمة الواسعة الفعالة الواعية للجماهير. الكادحة. وفي هذا تنعكس العلاقات الاشتراكية الجديدة في عملية الانتاج. ان فعالية الجماهير هي الشرط الحاسم لحل المهمات الكبرى في بناء الاشتراكية والشيوعية. ولقد ورد في برنامج الحزب ان « صرح الشيوعية العظيم سوف يسمو عاليا في ايدى الشعب السوفييتي:

يدى الطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين. وكلما كان عمل السوفييتين اكثر نجاحا اقتربوا من تحقيق الهدف العظيم، هدف بناء المجتمع الشيوعي.

ان التطور الاقتصادى للمجتمع الاشتراكي لاينفصل عن حل المهمات الاجتماعية والسياسية القائمة امام المجتمع. وفي هذا المجال تتجلى ايضا قوى الشعب الخلاقة. فالديمقراطية الاشتراكية تقود الجماهير الى ادارة الدولة وتساعد على تطوير فعاليتهم السياسية. وتستخدم تجربة ومعارف الملايين لدى حل القضايا المهمة التي تتعلق بمصالح المجتمع. ويطرح حزبنا على بساط المناقشة الشعبية كل مشاريع التدابير المقترحة الموضوعة على اساس تعميم تجربة الجماهير، فتتحول بذلك التدابير الى قضية درسها الشعب ليجعلها قضيته الخاصة. ان المناقشة الشعبية العامة للمقترحات حول اعادة تنظيم ادارة الصناعة والبناء، وتطوير النظام الكولخوزى ونقل تكنيك محطات الجرارات الى الكولخوزات، ومناقشة مواضيع تحسين نظام التعليم العام، ومناقشة الارقام التوجيهية للخطة السباعية، ومناقشة برنامج الحزب الشيوعي، كل هذا هو المحك الصحيح للديمقراطية الاشتراكية ولتنمية فعالية الجماهير، واشراكهم في ادارة الدولة، وتحديد طرق التطور لمجتمعنا. وحسبنا القول بأنه اشترك في المناقشة الشعبية لمشروع برنامج الحزب مايقرب من ٧٣ مليون انسان، وان عدد الذين تحدثوا حوله مطولا في الاجتماعات بلغ زهاء ٤٦٠٠ شخص. وينص البرنامج على ان مناقشة مشاريع قوانين الدولة العامة والمحلية يجب ان تصير نظاما، وان المشاريع المهمة ينبغي ان تطرح على التصويت. وفي بلدان

الديمقراطية الشعبية ايضا تستخدم طريقة المناقشة الشعبية العامة للمسائل المهمة في الحياة الداخلية والدولية. وفي برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ينعكس اهتمام الحزب بوضوح، بتطوير فعالية الجماهير الخلاقة التي سوف تنشأ من اجلها ظروف افضل.

وتنمو في الاشتراكية، أيضا أهمية نشاط الجماهير الواسعة في تطوير حياة المجتمع الروحية لأن الشعب يشرئب الى الثقافة. إن تصفية التناقضات بين العمل الفكري والجسماني، والنمو العظيم في مستوى العمال والفلاحين الثقافي التكنيكي وانشاء صلات متزايدة التلاحم بين العلم والانتاج، ومساهمة الجماهير مساهمة واسعة في تعقيل الانتاج، وربط التعليم بالعمل الانتاجي، كل هذه حلقات لسلسلة واحدة تربط العلم بالشعب.

ومن جهة أخرى، ينمو أيضا المستوى الثقافي للجماهير. فمثلا ان عدد المشتركين بالنشاط الفني في بلادنا جد كبير، وان براعتهم تزداد يوما بعد يوم. وان النشاط الفني هو الشكل المباشر لمشاركة الجماهير الشعبية في الانتاج الفني. لكن اهتمام الجماهير بتطور الفن يتجلى في المناقشة الفعالة لقضايا تطور للأدب السوفياتي والسينما والتصوير والمسرح... الخ. ان فن الواقعية الاشتراكية يرتبط ارتباطا وثيقا من حيث المحتوى والشكل معا بحياة الشعب. وان لمساهمة الجماهير الواسعة من الناس في الانتاج الروحي أهمية فائقة من اجل احراز تقدم ثقافي سريع في المجتمع الاشتراكي.

وهكذا، فان نشاط الجماهير الرفيع، والنمو المتواصل لمبادرتهم الواعية في جميع مجالات الحياة الاجتماعية هو قانون التشكيلة الشيوعية واكثر الشروط أهمية من أجل تحقيق وتيرات سريعة للتطور التاريخي. ان سياسة الأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية موجهة دائما لانماء الفعالية عند الجماهير وازالة كل عائق لها. وتبين تجربة تطور بلادنا أن تحقيق الفعلية الرفيعة للجماهير، في عصر الاشتراكية، يتعلق في حقل الاقتصاد بالتطبيق الصحيح

لمبدأ الاهتمام المادي الشخصي وجمعه مع تطوير الدافع الأخلاقي نحو العمل؛ وفي حقل السياسة - بالنضال الحازم ضد البيروقراطية؛ وفي حقل الايديولوجية - بالتغلب على بقايا الرأسمالية في وعي الناس.

ان الأخطاء، وكذلك التراجعات في خط الماركسية - اللينينية هي أمور تعرقل استخدام تلك الامكانيات التي تتيحها الاشتراكية في تطوير الفعالية الخلاقة لدى الجماهير. وان عبادة الشخصية سبب ضررا بالغا لقضية التطور في بلادنا. فقد أدت الى خرق القواعد اللينينية في الحياة الحزبية والى اللاقانونية والى الاستبداد وسوء استعمال السلطة. ان الوضع السيء الناتج عن عبادة الشخصية عرقل تطور فعالية الجماهير وحدَّ من فعاليتها الثورة.

ان القضاء الحاسم على تلك النتائج الوخيمة، الذي قام به حزبنا، كان له دور كبير في ايجاد الشروط المناسبة لنشاط الناس. صحيح أن الفعالية الخلاقة لدى الجماهير في بلادنا لم تخبُ في يوم من الأيام لأن بناء المجتمع الجديد صار القضية الصميمية للشعب السوفياتي التي تسرب في دمه. لكن القضاء على مخلفات عبادة الشخصية واعادة المبادء اللينينية الى قيادتي الحزب والدولة، بعد المؤتمر العشرين لحزبنا، أدى الى نهوض جديد جبار بطاقة الجماهير الخلاقة من أجل بناء الشيوعية. ولقد بينت التجربة التاريخية أن عبادة الشخصية، والظواهر السلبية المرتبطة بها، ولدتها شروط ذهبت في طي الماضي الى غير رجعة وليست من صميم النظام الاشتراكي. وان حزبنا في نقده المبدئي الحازم لعبادة الشخصية انطلق من اخلاصه لمبادىء الماركسية - اللينينية. ان المؤتمر الثاني والعشرين التاريخي لحزبنا وطد الموضوعة التي تنفي امكانية العودة الى عبادة الشخصية مرة أخرى.

ثم إن الشرط اللازم لنمو نشاط الجماهير هو نشر الايديولوجية الاشتراكية، والتربية الشيوعية، والنضال ضد بقايا الرأسمالية في وعي الناس، والخلاص السخافات الدينية، وتصفية بقايا أخلاق ونفسية البورجوازي الصغير

والتعصب القومي وغيره من العادات السيئة الأخرى. واخيرا، فان نمو الفعالية الخلاقة لدى الجماهير في كل مجالات الحياة في المجتمع الاشتراكي يرتبط ارتباطا وثيقا بالدور القيادي للحزب. ويحاول الانتهازيون أن يضيعوا فعالية ونشاط الجماهير في تعارض مع القيادة الحزبية ويبرهنوا على أنهما لا ينسجمان. ويستنتج من أقوالهم أن الحزب يفرض قيادته فرضا على الجماهير، وانه كلما زادت فعالية الجماهير، قل شأن القيادة الحزبية. لكن الحياة ذاتها تدحض مزاعم الانتهازيين. إن الحزب لايقيد مبادرة الجماهير بل يعتمدعليها ويوجه وينظم نشاط الجماهير الواسعة. ومع تطور الاشتراكية تنمو الفعالية لدى الجماهير وينمو الدور القيادي للحزب. وهاتان العمليتان لا تنفي احدهما الأخرى بل تستدعيهم، بالضرورة، في عهد الاشتراكية، لأن نشاط الجماهير كلما كان أكثر تنظيما أعطى نتائج أكبر وافضل، وتركزت قوى الجماهير على حل القضايا المعقدة في تطور المجتمع. والحزب هو القوة المنظمة والموجهة في المجتمع.

ان العلاقات المتبادلة بين الجماهير والحزب والقيادة، في المجتمع الاشتراكي، مشروط بطابع المجتمع والقوانين الخاصة به.

ثم إن الابقاء على هذه العلاقات يؤمن نمو الفعالية لدى الشعب كله. وعلى العكس من ذلك، فان الاساءة الى هذه العلاقات المتبادلة الصحيحة تحد من فعالية الجماهير وتسيىء الى الدور القيادي للحزب والى قضيتنا بأسرها.

٣ ـ المجتمع الاشتراكي والشخصية.

ان التقدم التاريخي مرتبط بتطور الانسان كشخصية. ففي عملية العمل، وعلى أساسه، ينفصل الانسان عن الطبيعة. لكنما في المجتمع البدائي الأول كان الانسان لايزال مندمجا في تلك الجماعة التي كان أحد أعضائها(القطيع

البدائي الأول، العشيرة، القبيلة) مما جعله ليعي نفسه كشخصية مستقلة. فهو ـ حسب تعبير ماركس ـ لم يكن قد انفصل عن سرة الطبيعة بعد، وكان يعي وجوده الشخصي كعضو في جماعة معينة. ان هذه الوحدة البدائية بين الانسان والجماعة كانت نتيجة لتخلف قوى الانتاج ولبدائيتها، ولارتباط الناس بالطبيعة التي لم يكونوا يواجهونها كأفراد وانما كجماعة مغينه.

ومع تقدم القوى المنتجة فيما بعد، وفي ظروف التقسيم المتطور للعمل، وظهور العمل الفردي، ونشوء الملكية الخاصة، حدث تباعد بين المصالح الشخصية الاجتماعية، وظهرت التناقضات داخل العشيرة والقبيلة. وهنا بدأ الناس يعون أنفسهم كشخصيات. ومع انقسام المجتمع الى طبقات لم تعد الجماهير الشعبية ممثلة للمجتمع كله. ولهذا فالفردية الناشئة لم تكن لتمثل المجتمع كله أيضا، فنشأت الشخصية الطبقية.

في مجتمع المشاعة البدائية لم تنشأ عمليا العلاقة بين الشخصية والمجتمع. فلم ينفصل الحق عن الواجب بالنسبة للانسان البدائي. لكنه مع تفسخ المجتمع البدائي، ظهرت مسألة العلاقة بين الشخصية والمجتمع. وكان ينحصر جوهر هذه العلاقة فيما يلي: ما هي الحقوق التي يمنحها المجتمع للفرد، وما هي واجبات الفرد تجاه المجتمع. واذا ما أردنا أن نتناول هذه المسألة بعمق أكثر نرى انها تنحصر فيما يلي: ما هي الشروط التي يقدمها المجتمع لتطور الشخصيات ولاستخدام امكانياتها، والى أي حد تتناقض أو تنسجم عملية بناء المجتمع، واتجاهات تطوره، من جهة، والى أي حدّ تناقض أو تنسجم مصالح تطور الشخصية تطورا شاملا ـ من جهة أخرى.

إن الشخصية لا يمكن أن توجد وأن تتطور خارج المجتمع. فالانسان هو دائما ابن زمانه ومجتمعه وطبقته. ولهذا فالماركسية تلقى بعيدا بتعاليم الايديولوجية البورجوازية عن الانسان بوجه عام، وعن الشخصية. وان جوهر الشخصية يتحدد ويتضح بالمجتمع الذي تعيش فيه. وان كل تشكيلة

اجتماعية تضع وتحل قضية العلاقة بين المجتمع والشخصية بصورة مختلفة. وهنا تلعب الخصائص الموضوعية وتقاليد تطور البلدان المختلفة دورها أيضا.

ان ايدلوجيي الطبقات المستغِلة يصورون الشغيلة. كجمهور شاحب لا هوية له، كتجمع ينعدم فيه التمييز بين الأفراد. ان هذه النظرة تعكس وضع الجماهير البائسة من مواقع المستغِلين، هذه الجماهير التي يكون المجتمع ومؤسساته قوية عدائية غريبة عنها مما يعرقل تطور الانسان كفرد. والمستغِلون لايفصلون الشخصية عن الملكية. فالانسان الذي لايملك شيئا لايساوي شيئا. وفي وسع الانسان أن يكون شخصية مستقلة فقط عندما يكون مالكا، وتقاس درجة جدارة الانسان بمستوى داخله. إن الناس المشبعين بهذه الايديولجية يقدرون، فقط على القول بأن الاشتراكية، اذ تقضي على الملكية الخاصة، فانها تقضي على الناس أيضا.

وفي الواقع أن أساس تطور الانسان كشخصية ليس الملكية الخاصة، وانما النشاط العملي، العمل. فالملكية الخاصة تبين فقط تلك الشروط النوعية التي تتطور فيها الشخصية في فترات تاريخية معينة. ان الملكية الخاصة تعرقل تطور الصفات الروحية للناس الذين ينتمون الى الطبقات المستغلة. فبالنسبة للطبقات المستغلة وللملاكين يسبب السعي وراء الحصول على الملكية الخاصة والحفاظ عليها تضييق أفق الفرد بمطامح هزيلة رغم أن الثروة يمكن ان تساعد على تطوير الامكانيات والمواهب. ففي الظروف التي يتقدم الانتاج والعلم والثقافة فيها على اساس الملكية الخاصة والاستغلال، وفصل العمل الفكري عن العمل الجسماني لايمكن ان تتطور امكانيات كل أفراد المجتمع، حتى أن مثل هذه المهمة لاترد هناك أبداً. وليس تطور الجميع بل زيادة ثروات الأقلية، واضطهاد الأكثرية ـ هي الظروف التي تتكون فيها الشخصيّة هناك. وهكذا، فالملكية الخاصة ليست، دائماً، وفي كل الظروف، أساس لتطور

الشخصية. لكنها، دائما، اساس للتناقض بين المجتمع والشخصية.

ففي المجتمعين الرقي والاقطاعي ظهر هذا التناقض في شكل سافر حاد فلم يكن المجتمع ليقدم للأرقاء وللأقنان أية حقوق أو أية ظروف ـ مهما كانت مصطنعة ـ من أجل التطور، ومقابل ذلك فقد كان يلزم الجماهير بالحد الاقصى من الواجبات وأقساها. ولم يكن ممثلو الجماهير ليعترف بهم كشخصيات. والمجتمع البرجوازي كان، باعلانه مبدأ المساواة الشكلية بين الجميع أمام القانون، خطوة مهمة الى الأمام، من حيث الاعتراف بحقوق الشخصية، لكنه لم يلغ التناقض بين الشخصية والمجتمع.

إن الايديولجيين البورجوازيين، اذ يجعلون من المجتمع الرأسمالي مثلا أعلى، يعتقدون أن الرأسمالية أوجدت التناسق بين الفرد والمجتمع و العلاقة الصحيحة بين الفرد والمجتمع. ان حرية الفرد هي ذلك المُهر الذي يحب الايديولوجيون البورجوازيون ركوبه.

وبالطبع. (لقد بيناً هذا سابقا) ليس صحيحاً مطلقاً أن نرفض مكتسبات الديموقراطية البورجوازية. لكنه من الواضح تماماً أن حرية الفرد، في المجتمع البورجوازي، وفي مفهومها البورجوازي، هي: حرية نشاط أرباب العمل، بالنسبة الى البرجوازية، وحرية بيع قوة العمل بالنسبة الى البروليتاري. انها حرية الاقلية باعتصار الثروة من الآخرين وحرية الخوف من المستقبل، وحرية الوقوع في براثن البطالة، وحرية الموت جوعاً، بالنسبة الى الأغلبية. وبكلمات موجزة: ان الحرية الشكلية، من غير تأمين الشروط المادية لتطور كل أفراد المجتمع، لاتقضي على عدم المساواة الاجتماعية، ولا على التناقض بين الشخصية والمجتمع. ان حرية الفرد، في المجتمع البورجوازي، هي حرية الفرد البرجوازي، بينما البروليتاريا قلما تستفيد من هذه الحرية، وكما قال

الشاعر ماياكوفسكي :

الجمهورية الديموقراطية
أن تأكلوا الكعكة ونأكل ثقبها

ان الايديولجيين البورجوازيين يحاولون جمع الفردي الى العام على أساس مبدأ الفردية فيما ينفع الفرد ينفع الجميع. فالرأسمالي، اذ يهتم بنفسه، يلبي بذلك مصالح المجتمع ورغباته. وهاكم تصريحاً لأحد رجال الأعمال الأمريكين. « ك. راندال » الذي أمسك بالقلم ليسدد ضربة. « قاصمة » لنقاد الرأسمالية مدفوعاً بمشاعر الكره للأفكار الشيوعية، فكانت نتيجة جهوده الفكرية كتابه الذي يحمل عنوان. « مبادىء المؤسسة » ويخبط فيه خبط عشواء قائلا :

خلال العصور التي لا يحصى عددها، والتي تفصل بيننا وبين الماضي السحيق، عاشت وتحسنت تلك الانواع التي وحدَّت بين الأفراد والمهتمين، قبل كل شيء بأنفسهم. إن هذه الغريزة التي تحدد السلوك الانساني تبقى على قوة العجز التي تجمعت خلال القرون. وتنحصر حكمتنا في استخدام هذه الغريزة بهدف زيادة الرفاه العام، في حين تنحصر خطيئة الدكتاتورية الجماعية في أنها تثق، بكل سذاجة، بامكانية أو ضرورة استئصال هذه الغريزة من الانسان[1] ثم يقول:

« .... ان سر المؤسسة الحرة يكمن في أننا نستخدم الغريزة الطبيعية لكل انسان، ونمنحه امكانية الحصول على مكاسب لنفسه. وخدمة المرء لنفسه خدمة للمجتمع. »[2].

---

(١) راندال: « مبادىء المؤسسة الحرة » بوسطن عام ١٩٥٢ ص ١٢.
(٢) المصدر ذاته ص ١٣.

عندما أخدم نفسي أخدم المجتمع - هذا هو ماتبشر به البورجوازية وتجعله أساساً ايديولوجياً للتطبيق العملي. أترون إن الكاتب لايهمل الصالح العام، ولكنه يجعل هذا الصالح محدوداً فقط بمقدار ما يتلاءم مع مصالح الفرد. ان تفضيل المصالحة الخاصة في هذا القول أمر لاجدال فيه وهو مستنبط مباشرة من البيولوجيا. وليس ثمة داع للبحث عن أصول الفردية البورجوازية في تاريخ أسلاف الانسان، فهي من نتاج المجتمع البورجوازي ذاته أيضاً، نتاج المزاحمة البورجوازية والعَدْو وراء الربح. ان الفردية شاهد على ضيق أفق الفردي والاجتماعي، وعن القضاء على التناقض بين الفرد والمجتمع، وتصفية التزاحم بين الأفراد (اقرأ الرأسماليين) الذين يهتم كل منهم بمصلحته الخاصة وحسب. ان الديموقراطية البورجوازية تقدم للفرد كل ما يمكن أن يقدمه مجتمع الملكة الخاصة، للشغيلة: حرية بيع قوة عمله، والحق في الحصول على وسيلة تضمن له العيش بأية طريقة كانت (في حدود القانون). فالفرد فيه يبقى وحيداً في صراعه من أجل البقاء، ومنبوذاً - كما يقول الوجوديون - لأن المجتمع لايكون نقطة استناد بالنسبة له مطلقة. وان وحدة الشغيلة وحدها من أجل النضال المشترك ضد البرجوازية هي التي تدعمهم في الحاضر وتجعلهم يثقون بمستقبل أفضل.

أما المجتمع الاشتراكي - على خلاف المجتمع البورجوازي - فهو يوجد وحدة بين ما هو فردي وما هو اجتماعي على اساس المصالح الاجتماعية، ويوفق بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع مما يعجز عنه أي مجتمع تناقضي آخر

وفي بلدان الغرب شد ماينفقون من الحبر والورق من أجل البرهان على أن الاشتراكية تسحق الفرد وتقتل الناس، وأن الدول الاشتراكية لاتؤمن المناخ الصالح لتطور الشخصية، وتتناقض مع المكتسبات الرفيعة للمدنية الغربية - مع حرية الفرد. هذا الزعم هو، في جوهره، محور يدور حوله النقد البورجوازي والاشتراكي الديموقراطي للماركسية اللينية. لكن هذا النقد، ان

دل على شيء، فانما يدل على أن الاشتراكيين اليمينيين يلتقون مع البورجوازيين في نظرة واحدة.

ان الاشتراكية تضع قضية العلاقه بين الشخصية والمجتمع، وتحلها بطريقة مختلفة عن الرأسمالية. المهم بالنسبة للاشتراكية لا تأمين « حرية الفرد شكليا، وانما الخلق الفعلي للشروط الاجتماعية والسياسية من اجل تطور الشخصية من شتى جوانبها، وفتح كل المجالات أمام مواهبها وامكانياتها. فالاشتراكية بالذات هي ذلك البناء الاجتماعي الذي يضع على عاتقه أمر تطور وازدهار الشخصية الانسانية. أما ما يتعلق بـ « حرية الفرد » فتبقى تعبيرا برجوازيا أجوف اذا لم يرتبط بالنضال من اجل تحرير الجماهير من كل أنواع الظلم، اذا لم يرتبط بالنضال من أجل الاشتراكية. ان النضال من اجل تحقيق هذا الهدف العظيم يعيد للحياة ولنشاط الناس معناهما الكامل في وقتنا هذا، ويؤمن المناخ اللازم لظهور امكانيات الشخصية ومواهبها. وأن أولئك الناس الذين يحاولون حرف الخط الرئيسي عن مجراه، ويعرقلون عملية بناء الاشتراكية يجب أن يلقى بهم على قارعة الطريق. ان سحق تلك الأقلية التافهة يبررها التاريخ بضرورة قيام المجتمع الجديد الذي يؤمن الحرية الحقيقية للفرد.

إنّ الفرد لايكون حراً الا عندما يكون المجتمع حراً من الاستغلال ومن الخوف من المستقبل، ومن تجويع وافقار الاكثرية. أن التجربة الغنية لبلادنا، وكذلك تجربة كل النظام الاشتراكي العالمي، تؤكد أن الملكية الاجتماعية ـ لا الملكية الخاصة ـ هي التي تحرر الانسان من كل أنواع التبعية الاجتماعية، وتفتح المجالات الواسعة أمام التطور الحر للشخصية »[1]. فعندما يتحرر المجتمع، يضع، تحت الرقابة الواعية، علاقاته الخاصة بالطبيعة وعلاقات

(1) حول برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ١٩٦١ ص ٩٣.

الناس بعضهم ببعض، ويصبح شرط ودليل تقدمة تطورُ كل أفراد المجتمع، والنهوض بمستوى حياة الشعب المادي والثقافي.

وهكذا، ففي عهد الاشتراكية تتوفر الشروط المادية من أجل تطور الشخصية تطوراً كاملا، إن الأمر ليس مجرد تصريح علني عن الحرية. صحيح ان المجتمع الاشتراكي يقدم الضمانات الحقوقية لحرية الفرد (حرية الكلام، النشر، والضمير. . الخ)، لكن هذه الحريات تتعزز ماديا هنا أيضا.

ان مبدأ التشكيلة الشيوعية هو شعار « من كل حسب طاقته ». ولهذا المبدأ أهمية تقدمية هائلة. فلأول مرة يضع المجتمع على عاتقه الاهتمام بتطور واستخدام كفاءات كل فرد. وهذا هو الدافع الأساسي في الاشتراكية الذي سوف يتعزز، في المرحلة الأولى من بناء الشيوعية، باهتمام الفرد المادي بنتائج عمله الذي سيصبح حاجة لكل الناس. ان تحقيق هذا المبدأ يقع على عاتق المجتمع والفرد في آن معا. فالمجتمع يخلق الشروط، ويعطي الوسائل اللازمة لتطوير وتحسين الشخصية، والفرد يستخدم هذه الامكانيات ويطور القدرات الكامنة فيها ويعمل حسب طاقته لصالح المجتمع. واذا كان مايعطيه المجتمع للفرد متعلقا، في آخر الحساب، بمستوى النضج المادي للمجتمع، فان عمل الفرد، حسب طاقته، يتعلق باهتمامه ونضجه الروحي. ويتم التناسق الأكمل بين التطور الفردي والتطور الاجتماعي مع التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي للمجتمع، ومع النهوض بالمستوى المادي والثقافي للجماهير، ومع نمو الوعي الشيوعي. إن الحياة تؤيد موضوعة ماركس وانجلس القائلة بأنه، منذ لحظة الثورة الاشتراكية، « يحل محل المجتمع البورجوازي القديم وطبقاته وضع جديد يكون فيه التطور الحر لكل فرد شرطا للتطور الحر للجميع »[1].

وهكذا، فالاشتراكية لاتفصل الفرد عن الجماعة، ولاتضعه في طرف

(1) ماركس وانجلس. المؤلفات. الجزء ٤ ص ٤٤٧.

مناقض لها، وتقيم الجماعية الاشتراكية بدلا من الفردية البورجوازية. فالجماعية تنفذ الى أعماق القطاع الحياتي بكامله، والى أخلاق وبسيكولوجية الناس في المجتمع الاشتراكي. والايديولوجيون ينظرون اليها كعملية جعل الافراد على مستوى واحد. لكن حياة الجماعة، الثرة تفترض غنى الشخصية وكفاءات الناس الخاصة. فلو أخذنا جماعة المعمل أو المصنع أو الكولخوز أو السوفخوز أو المؤسسة أو المعهد لرأينا أن الجماعية، في كل مكان، لاتقيد الشخصية بل تخلق الشروط اللازمة لزيادة تأهيل أعضائها ولاستخدام كفاءاتهم. والناس الذين ينظرون الى الاشتراكية، من مواقع البورجوازية، يعجزون عن فهم كيفية التوفيق بين وحدة المجتمع الاشتراكي في السياسة، والأخلاق، الايديولوجية، وبين التطور الحر للفرد. وهم يتصورون تصورات بدائية بائسة عن الاشتراكية، يتصورون كما لو أن الناس جميعا يفكرون بشيء واحد، ويتكلمون شيئاً واحداً، ويلبسون شيئاً واحداً، والفردية لاوجود لها. فعندما كتب بعض الطوبائيين عن الاشتراكية بهذا المعنى، منذ قرنين أو ثلاثة من الزمن، قلنا ضل القوم وكان في الأمر ما يغتفر. أما أن يقال هذا في زمننا الحاضر فيبدو محض افتراء مقصود.

واذا كان كل الفيزيائيين يقرون قوانين ميكانيك نيوتن أو نظرية اينشتاين النسبية فليس هذا يعني أن هؤلاء الفيزيائيين قد فقدوا فرديتهم. واذا ماكان المجتمع الاشتراكي موحداً في طموحه لاستتباب السلم وبناء الشيوعية، ففي هذا، كما يزعمون، قضاء - كل القضاء - على الفردية. وبالطبع عندما ننظر الى الاشتراكية بالمنظار الضيق للفردية البورجوازية يصبح من الصعب فهم الحياة المجتمع الاشتراكي القائم على مبادىء مختلفة تماماً عن مبادىء البورجوازية. ان الاشتراكية الماركسية لم تقل أبدا بأن فكرة المساواة هي عملية تمشيط للفوارق الفردية. «من كل حسب طاقته» - ان هذا المبدأ وحدة يبين لأولئك أن الناس ليسوا متساوين في كفاءاتهم وامكانياتهم، ويؤكد وجود

الفوارق بين الأفراد. ان أكمل شكل للمساواة الاجتماعية لايمكن أن يزيل هذه الفوارق، وانما على العكس، يعمل على تطوير واغناء تلك الكفاءات، ويساهم من أجل ازدهار الشخصية، ولهذا ينبغي ألا نجعل من الفردية ومن حرية الفرد شيئاً واحداً، شأننا في هذا، عدم لزوم جعل فضل القيمة، والمنتوج الفائض، شيئاً واحداً. لقد نمت الفردية في ظروف التناقض بين الفرد والمجتمع، وهي بمثابة انعكاس لذلك التناقض. والجماعية تقضي على هذا التناقض، وتقيم وحدة منسجمة بين الفرد والمجتمع. ان التشكيلات التناقضية تنفي الدمج البدائي للفرد مع الجماعة في المجتمع القديم، قبل ظهور الطبقات. والاشتراكية تقيم وحدة أسمى بين الشخصية المتطورة من شتى النواحي، وبين الجماعة، هاضمةً كل غنى التطور السابق. وهذا هو نفي النفي. وهكذا نرى أن التطور يتم هنا أيضا ديالكتيكياً.

ان الاشتراكية تغير دور الشخصية في التاريخ تغييراً نوعياً. فهي، أولاً تطلق العنان لملكات الشعب الخلاقة ولعبقريته ومواهبه التي لاحد لها. وهي ثانياً - توسع حقل النشاط الى درجة جد كبيرة حيث يقدر الفرد على اظهار نفسه كفرد بارز. ولقد مضت تلك الأزمنة التي كان يعتبر فيها الملك أو القائد الفيلسوف أو الكاتب أو السياسي أو الفنان فقط هو الشخصية البارزة. فلقد صرنا نتحدث الآن عن المجددين في الانتاج، والمخترعين، وأبطال الجبهة. . . وغيرهم كشخصيات بارزة أيضاً. وثالثاً، تمنح الاشتراكية الشخصيةَ القوةَ التي لم تكن تتمتع بها في يوم ما من التاريخ، لأن هذه الشخصية تستقي تلك القوة من الشعب.

والشخصية المعبرة عن مصالح الشعب لم تكن في يوم ما تملك مثل هذا السند والعون الذي تقدمه لها الاشتراكية. ان قضية الشخصيات البارزة - الحزبية والحكومية، المجددين في الانتاج، ورجال العلم والفن وغيرهم - هي قضية الشعب بأسره. ولهذا تتوفر لهم المساندة الشعبية العامة، وكذلك القوة

والنجاح الذي لم يكن يناله أي بطل من أبطال الماضي. ثم ان دور الشخصية في عهـد الاشتراكية، رابعاً، يقوى ويتعاظم نتيجة للمساندة الهادفة الواعية لمساعدة الحزب والدولة. وحسبنا أن نتذكر الملاحقات التي كان يخضع لها كل فرد عن مصالح الشعب، في كل التشكيلات الطبقية المتناقضة، كي ندرك مدى المصاعب والمشقات التي كان يلاقيها الأفراد.

ويتعاظم دور الشخصية في الاشتراكية، خامساً، الى درجة كبيرة لتسلحها بالنظرية العلمية التقدمية ـ الماركسية اللينينية.

ومع تطور التشكيلة الشيوعية لاتبقى علاقة الفرد بالمجتمع كما هي دونما تغير. ففي المرحلة الأولى من الشيوعية يبقى علاقة العمل وسيلة للحياة، ويتم توزيع الخيرات المادية وفقاً لكمية ونوعية العمل الذي يقدمه أفراد المجتمع. ثم ان التنسيق بين المصـالـح الشخصية والمصـالح الاجتماعية، في اسلوب التوزيع هذا، يتجلى في أن حصة الانسان من الخيرات المادية تتناسب طرداً مع العمل الذي يقدمه للمجتمع. وهذا من شأنه أن يولد اهتماماً مادياً لدى الناس بنتائج عملهم، ويدفعهم في طريق تحسين كفاءاتهم، وعلاوة على هذا، يضع تحسن أحوال كل فرد في ارتباط وثيق مع تحسن أحوال المجتمع ككل. ومع زيادة الانتـاج تزداد كمية المنتـوجـات الخـاضعـة للتوزيع. ولهذا فان المبدأ الاشتراكي في التوزيع يولد الاهتمام المادي لدى الناس لا فقط بنتائج عملهم، بل وبتطوير الانتاج الاجتماعي كله. ان استخدام مبدأ الاهتمام المادي الخاص في الاشتراكية ضروري لأن المجتمع ما يزال عاجزاً عن تأمين كل متطلبات الناس. وكما تبين التجربة التاريخية أن خرق قانون التوزيع حسب العمل يحرم النـاس من الاهتـمام المـادي بالعمـل، ويولد تناقضاً بينما هو فردي وما هو اجتماعي، وينعكس ضرر ذلك كله على الانتاج. لكننا في الاشتراكية تنشأ دوافع أخلاقية جديدة نحو العمل لخير المجتمع كله بصرف النظر عن المكافأة. وتلك هي بذور العـلاقـة الشيوعية نحـو العمل. ومع نمو المستوى الثقافي

للمجتمع يصبح العمل تدريجياً بحاجة الناس جميعاً أكثر فأكثر. وان الدوافع الأخلاقية الى العمل تصبح هي السائدة عندما يتغير طابع العمل و يتحقق التوزيع لكل حسب حاجته. وهذا سوف يعني بلوغ وحة جديدة بين المصالح الاجتماعية والمصالح الشخصية أعلى منها في عهد الاشتراكية، وخلق أفضل الشروط من أجل تطور وازدهار الشخصية من مختلف نواحيها.

وهكذا فالاشتراكية لا تؤدي الى قتل الشخصية وتحديدها واخضاعها، بل تؤدي الى الوحدة المنسجمة بين الفردي والاجتماعي وخلق أفضل الشروط من أجـل تطور الشخصية وازدهـارها واستخدام امكانياتها ومواهبها. وانه لأمر فظيع ألا يجد جيل كامل استخداماً لامكانياته. إن الاشتراكية تفتح طريقا لاهبة نيرة دائما أمام الشبيبة في الحياة.

ان الوحدة بين الفرد والمجتمع ، في الاشتراكية، لا تنفي بالطبع امكانية التنـاقض بينهـما. فمثـل هذه التنـاقضـات تنشأ نتيجة للشروط الموضوعية لتطورالمجتمع. ولعدم توفر الوعي الشيوعي الكافي لدى بعض الناس، ولوجود بعض مخلفـات الماضي في أذهان البعض الآخر. وتتجلى، هذه التناقضات عندما يطلب المجتمع مثلا من الفرد أن يتناسى مصالحه الشخصية، ويعطي باسم المتطلبات الاجتماعية فقط. ففي أعوام الخطط الخمسية الاولى مثلا أقدم السوفيتيون على التضحية، واستغنوا عن أشياء كثيرة بصورة واعية، من أجل تأمين الوسائل الضرورية لتطوير الصناعة الثقيلة. لقد كانو يفهمون ضرورة ذلك ويدركون أن ذلك الطريق يخدم المصالح الرئيسية للشعب، فأخضعوا مصـالحهم الشخصية للمصـالـح الاجتـماعية. ولقـد كان ذلـك ضرورياً لحالالتنـاقض والتغلب على الصعـوبـات المؤقتـة في بناء الصناعة الاشتراكية الحديثة في بلد كان متخلفاً.

ويمكن أن يظهـر التنـاقض بين الفرد والمجتمع عندما تسبب الشخصية في تصرفاتها ضرراً للمجتمع ولا تهتم بالحاجات الاجتماعية. وفي هذه الحال يحق

للمجتمع أن يلزم الفرد بالنظام واخضاعه لمتطلبات المجتمع. وهنا يمكن أن يحل التناقض حلا كاملا، فقط، عندما يعي الانسان المصالح الاجتماعية عن طريق التوعية والتربية، وتنشأ الوحدة بين الفردي والاجتماعي.

وهكذا، فرغم أن المصالح الاجتماعية تستأثر بالأولوية دون المصالح الشخصية، الا أن اخضاع المصالح الشخصية الاجتماعية يكون فقط في عملية حل التناقضات بين المجتمع والفرد. ان ما تمتاز به الاشتراكية هو تلك الوحدة المنسجمة بين المصالح الفردية والاجتماعية. وان الأساس المادي لهذه الوحدة هو الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج للتعاون الرفاقي، والمبدأ الاشتراكي في التوزيع. إن الانسان، بحاجاته ومصالحه يصبح محل عناية المجتمع. ان اهتمام المجتمع بالانسان هو ما يميز الاشتراكية، ولاتعرفه الرأسمالية التي تترك كل انسان يهتم بنفسه فقط. ان اهتمام المجتمع بالفرد يهم الناس ويحثهم على العمل لما فيه خير المجتمع. وان نمو المستوى المادي والثقافي للشغيلة، وتقليص يوم العمل، وتحسين شروط المعيشة، وتطوير مؤسسات رعاية الطفل، واتحاد التعليم مع العمل الانتاجي وتطوير نظام الصحة الشعبية والخدمات الاجتماعية.. الخ ـ كل هذا تقدمه الاشتراكية، وتخلق الشروط الطيبة من أجل تطوره.

هذا هو بالفعل الحل الانساني لقضية العلاقة بين المجتمع والفرد.

ان الانتقال الى الشيوعية لا يخلق فقط الشروط الملائمة لتطور وازدهار الشخصية من شتى الجوانب، وانما يضع أمامها مهمات جديدة وجديدة أيضاً. وتنشأ تلك المهمات، قبل كل شيء، على أساس تطور الأسلوب الاشتراكي في الانتاج. ان الخصائص النوعية المميزة للقاعدة المادية التكنيكية للشيوعية تكشف عن الحاجة النوعية الى الانسان كقوة منتجة. ان أتمتة الانتاج الاجتماعي كله تولد الضرورة الى العمال الذين تتوفر لديهم المعارف التكنيكية الهندسية.

ثم ان الانتقال الى الشيوعية يتطلب، أن يصبح العمل الحاجة الأولى لا بالنسبة الى بعض الناس أو غالبيتهم فحسب، بل وبالنسبة اليهم جميعاً، والى كل فرد على حدة. ان القاعدة المادية ـ التكنيكية للشيوعية، اذ تسهل العمل وتقلص ساعاته، تخلق الشروط الملائمة لذلك. وفضلاً عن هذا، فان تحول العمل الى حاجة حياتية أولى مرتبط بتغير الوعي والأخلاق والعادات لكل إنسان.

ثم ان الانتقال إلى مبدأ التوزيع الشيوعي يتيح أيضاً عناية أرفع بكل فرد، وبوعيه وعاداته.

وأخيراً، ان الانتقال من الدولة الاشتراكية الى الادارة الذاتية الشيوعية لايمكن أيضاً بدون تغير وعي وسلوك كل انسان.

لكن المجتمع الشيوعي، اذ يطالب الفرد بتقديم امكانياته، يخلق بالمقابل الشروط الملائمة لتطور كل فرد ويلبي له حاجاته. ان التأثير المتبادل بين المجتمع والفرد، وتطور الأفراد على اساس حل المهمات الجديدة التي تقوم أمام المجتمع، من حين لآخر، يخلقان الشروط الملائمة لتطور الانسانية تطوراً لايُحد. وأخيراً فان السلم، والعمل، والحرية، والمساواة، والسعادة ـ هي أمور تحملها الشيوعية الى جميع الشعوب، ويقدمها المجتمع الذي يحقق شعار حزبنا: «كل شيء باسم الانسان، وكل شيء من أجل الانسان».

* * *

المحتويات

الفصل الاول

القوانين العامة للتطور الديكالكتيكي .... ص ٣
قانون وحدة صراع الاضداد .... ص ٥
التناقضات الداخلية والخارجية الاساسية وغير الاساسية .... ص ١٩
قانون تحول التغييرات الكمية الى تغيرات كيفية والعكس بالعكس .... ص ٢٦
قانون نفي النفي .... ص ٤٠

الفصل الثاني

مقولات المادية الجدلية .... ص ٥٣
اصل مقولات الجدلية وسماتها المشتركة .... ص ٥٤
الخاص والعام .... ص ٥٦
المضمون والشكل .... ص ٥٩
الجوهر والظاهرة .... ص ٦١
السبب والنتيجة .... ص ٦٢
الضرورة والصدفة .... ص ٦٤
الامكانية والواقع .... ص ٦٧

الفصل الثالث

المبادىء المنهجية للمعرفة العلمية والعمل الثوري .... ص ٧٠
أهم مبادىء المنهج الديالكتيكي بالنسبة للتطبيق الثوري .... ص ٧٨

الفصل الرابع

الدولة والثورة ودكتاتورية البروليتاريا .... ص ٩٠
الدولة والنظم الحقوقية .... ص ٩٧

نموذج وشكل الدولة والنظام الحقوقي .... ص ١٠٠
الديمقراطية البرجوازية .... ص ١٠٣
ازمة الديمقراطية والبرجوازية .... ص ١٠٧
نظرية الثورة الاجتماعية .... ص ١٠٩
المحتوى الرئيس للثورة وقواها المحركة .... ص ١١١
الثورات البرجوازية .... ص ١١٥
الثورة الاشتراكية، الحتمية التاريخية .... ص ١١٨
الامبريالية هي عشية الثورة الاشتراكية .... ص ١٢٢
تحول الثورة الديمقراطية البرجوازية الى ثورة اشتراكية .... ص ١٢٥
تطور الثورة الاشتراكية .... ص ١٣٠
ازمة الرأسمالية العامة .... ص ١٣٤
دكتاتورية البروليتاريا، تطور الدولة الاشتراكية .... ص ١٣٩
اشكال ديكتاتورية البروليتاريا .... ص ١٤٣
تطور الدولة الاشتراكية .... ص ١٤٩
الدولة الاشتراكية والنظام الحقوقي .... ص ١٥٣
زوال الدولة .... ص ١٥٧

الفصل الخامس

الاشكال التاريخية لاجتماعية الناس .... ص ١٦٠
اشكال اجتماعيات الناس .... ص ١٦١
المجتمع العشائري القبلي .... ص ١٦٢
الشعوب .... ص ١٦٦
الامة ـ القضية القومية في ظل الرأسمالية .... ص ١٦٩
مميزات الامة ومكانها في الحياة الاجتماعية .... ص ١٧٠
تطور العلاقات المتبادلة بين الامم في عهد الرأسمالية .... ص ١٧١
القضية القومية والثورة الديمقراطية البرجوازية .... ص ١٧٣
حركة التحرر الوطني في المستعمرات .... ص ١٧٥
تطور القومية في عهد الاشتراكية .... ص ١٧٩
حل المسألة القومية في عهد الاشتراكية .... ص ١٨١

الفصل السادس

دور الجماهير الشعبية ودور الشخصية في التاريخ .... ص ١٨٧
دور الجماهير والشخصية في التاريخ .... ص ١٨٨
الجماهير الشعبية كمقولة في المادية التاريخية .... ص ١٩٠
الاسس النظرية والطبقية لنفي دور الجماهير الحاسم .... ص ١٩١
المادية التاريخية ودور الجماهير .... ص ١٩٥
دور الشخصيات البارزة في التاريخ .... ص ١٩٨
قانون دور الجماهير المتعاظم في التاريخ .... ص ٢٠٤
المجتمع الاشتراكي والشخصية .... ص ٢١١

* * *

منشورات الهدف

الثمن : ٥ ل . أو مايعادلها